

عَبْدُكَ كُنُونْ

أَحَادِيثُ
عَنِ الْأَدَبِ الْمَغْرِبِيِّ الْحَدِيثِ



40,00

أحاديث
عن الادب المغربي الحديث

عَبْدُكَ كُنُونْ

أَحَادِيثُ
عَنْ الْأَدَبِ الْمَغْرِبِيِّ الْحَدِيثِ



دار الثقافة

32 - 34 شارع فكتور هيو

الهاتف 30 76 44 / 30 23 75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

بين يدي الكتاب

نفحات زكية من المغرب العربي

الاستاذ الدكتور اسحق موسى الحسيني

اراد الله للامة العربية ان تلتحم اجزاؤها التحام اعضاء الجسم الواحد ، علاوة على الملحة الوجدانية والروحية التي وكبتها احداث التاريخ في قديمه وحديثه .

وتبدو لنا هذه الامة بصورة طائر قلبه في ارض الكفانة ، وجناحه الايمن يصل الى العراق والخليج العربي ، وجناحه الايسر يرف فوق المغرب العربي حتى يمس ماء المحيط الاطلسي .

هذا هو الوضع الطبيعي الذي باركته مشيئة الله . واذا كانت بعض الشعوب تلتقى بآدابها ولغاتها ، أو تقاليدها واديانها ، أو قوانينها وسلطانها ، فان الامة العربية التقت في جميع هذه الميادين . وجاءت وحدة الرقعة الجغرافية فمكنت لها وزادتها رسوخا . فالبحر الابيض المتوسط يطوق شمالي افريقيا العربي ، ويرتفع شمالا كي يربطه بالشرق العربي . وتلف الجزيرة العربية بحار صافية ابتداء من البحر الاحمر حتى اعالي الخليج العربي .

هذه الرقعة التي خلقها الله متحدة وموحدة جاءت يد الانسان الظالم الباغي فعبثت بها ، ونشرت حولها الازاجيف ، ورسمت الحدود والقيود ، حتى كاد ان ينقطع ماوصله الله ، وينهار ما اقامته الارادة الالهية . ولكن ما يحدث خلاف الطبيعة والارادة بفعل مئات السنين ينهار امام العزيمة في بضع سنوات .

وهذا ما حدث بالفعل . فبعد ان قطع المغرب العربي والشرق العربي

اجزاء لتبتلعها الافواه الكبيرة الشرهة ، وبعد ان اقيمت الحدود والسدود ،
ورسمت الخُرت ، ودقت الاوتاد ، وعاثت الايدي فسادا زاد على مائة
عام ، هبت العاصفة ومحت تلك الرسوم ، كما تمحو رياح الصحراء آثار
الطريق في ساعة من الزمن

وقد توسل الباغي بوسائل شتى من حديد ونار الى حبر وورق .
وكانت احدى الوسائل **التجهيل** . فما كان العربى فى المشرق يعرف عن
اخيه فى المغرب الا ما تتناقله اللسنة وكان الباغي يستعمل كل وسائل
الاعلام فى قومه حتى اصبح التاريخ الشامل الوافى مدونا باللغات
الاجنبية .

وما كادت الادارة العربية تقتلع البغى من جذورها حتى راحت الايدي
تمتد من وراء الصحارى والبحار تتصافح وتتعارف

وصدرت كتب تكشف ولأول مرة عما فى ضمير الامة العربية من
احاديث ظلت مكتومة عشرات السنين .

وحرص الشباب المستنير ان الالتقاء بعد طول الفراق لا بد من ان
يتم طال الزمن او قصر ، ولكن ثمت حواجز واباطيل لا بد من ازالتها من
دروب الاحبة . والمعرفة هى المنجل الحاد الذى يجتث الشوك .

وصدرت كتب تعرف بالأخوة من هم ، واين هم ، وماذا كانوا ، وماذا
اصبحوا ، وماذا حل بهم فى اثناء تلك الحقبة البغيضة السوداء من تاريخهم .

ومن هذه الكتب سلسلة من افيد ما اصدرته المطابع ، تعرض
تاريخ البلاد العربية من النواحي المختلفة تمهيدا للتعرف بحياتها الادبية ،
التي هى حياة وجدانها فى اصدق مظاهرها .

ومن الكتب كتاب الاستاذ الفاضل ابن عاشور عن تونس ، وعبد الله
عبد الجبار عن الجزيرة العربية ، وناصر الدين الاسد عن فلسطين
والاردن ، وجميل صليبا عن الشام ، وصلاح لبكى عن لبنان ، واخيرا
عبد الله كتون عن المغرب العربى .

وهذه الكتب وضعت على وفق منهج مرسوم للتعريف بالامة العربية في جميع اقطارها . وهي اشبه بمدخل لاغنى عنه للوصول الى حقيقة الادب الواسعة . ومنى تمت هذه السلسلة الذهبية — وهي تامة باذن الله — فسيكون بأيدي القراء تاريخ واف للامة العربية وادبها المعاصر ، يبنى عليه تاريخ موحد ينتظم الوجدان العربى في جميع البلدان العربية .

وكتاب الاستاذ عبد الله كتون اسمه « احاديث عن الادب المغربى الحديث » وهو محاضراته التى القاها على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية ، اسوة بسائر الكتب التى ذكرت سابقا .

ويكشف الكتاب عن حقائق كنا ندركها بقلوبنا ومشاعرنا ، دون الاسانيد والنصوص حتى جاء المؤلف غاردف كل ظاهرة ادبية ، وحقيقة تاريخية بما يجلوها عن بيان مشرق وسند قوى .

واولى الحقائق الجديرة بالذكر ان الصلة الثقافية بين مصر والمغرب العربى لم تنقطع حتى في الفترات المظلمة من التاريخ الحديث وان نفرا من المغاربة نهل من علم الكنانة وادبها ، وعاد الى بلده ينشر الوعي ، وقد ذكر المؤلف اثنين من امهر المتخرجين في المعاهد المصرية ايام السلطان محمد الرابع — في القرن التاسع عشر — هما الطبيب عبد السلام العلمى ، والجغرافى احمد شهبون ، « وكلاهما ممن اسهم في الحياة العلمية بالتعليم والتأليف وبعدان من الطلائع الاولى للنهضة الحديثة ، لان تعليمها كان بالعربية » ص 17 .

وذكر المؤلف ان الطباعة دخلت المغرب العربى لأول مرة عن طريق مصر « فان السيد الطبيب الرودانى قاضى تارودانت رآها فأعجبته وكان ذهب الى الحج ، فاقتنى آلتها وتعاهد مع فنى مصرى للعمل فيها ، فصحبه الى المغرب ، ولما رأى ان الدولة احق بها اهداها الى السلطان محمد الرابع فقبلها منه واكرمه بان ولاه عليها ، وشرع في طبع الكتب المهمة وخاصة الكتب الدراسية مما يستعمل في القرويين ومروعا . . وانتشر من الطباعة بعد ذلك وصار من عمل الافراد ، وكثرت المطبوعات

المغربية المعروفة بالفاسية ، لان المطابع التى تصدرها كان مقرها فى
فاس . . « ص 14

ونكر المؤلف ان اثار النهضة الشرقية من علمية وادبية وفنية كانت
تصل الى المغرب العربى بوساطة الكتب والمجلات والصحف فتتلقها
الأيدي بتلف عظيم . ومنها آثار الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا
واستاذهما جمال الدين الافغانى فى العلم والاصلاح والمنافحة عن الاسلام ،
وآثار الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى ومحمد فريد وجدى واثار الشعراء
شوقى وحافظ والزهاوى والرصاصى وغيرهم من اعلام الفكر والسياسة
كمصطفى كامل وسعد زغلول . « انها كانت مدرسة تخرج فيها الجيل الاول
من رجال العلم والادب والوطنية الصحيحة ، الذين بثوا افكارهم فى النشء
الجديد ومهدوا السبيل للنهضة المغربية العتيدة ، فكانوا صلة الوصل بين
الماضى الغابر والحاضر الزاهر . وعن طريق هذه المدرسة عرف المغرب
اتجاهات الفكر الحديث فى الفلسفة والادب واطلع على تاريخ الحضارة
وتقدم العلوم فى اوربا . فانها كانت تخاطبه بلغته ، وفى الوقت نفسه تقدم
اليه احسن آثار المفكرين والادباء الغربيين مترجمة الى العربية فيطلع منها
على ما لم يتح الاطلاع عليه لانصاف المثقفين باللغة الفرنسية الذين كان
الاستعمار يحرص على ان يجعل منهم موظفين صغارا وحسب « ص 34

ورد المؤلف كذلك نشأة التمثيل فى المغرب الى الفرق التمثيلية التى
كانت تغد اليه من مصر وتونس ، ص 122 .

وهكذا ظلت التيارات الفكرية والادبية تجوب البلدان العربية ذهابا
وايابا فوق الحدود والسدود ، والظالم غافل عنها

والحقيقة الثانية : التى يبرزها المؤلف هى تشابه العوامل والاسباب
التي ادت الى قيام النهضة الحديثة ، فقد كانت نفوس الادباء تخضع
لمؤثرات متشابهة لان وجدان الامة العربية الذى صنعه التاريخ الطويل
وتشرب المثل العربية العليا اصبح ينفع للمؤثرات حيثما وجدت ، فالظلم
والبغى والعدوان منفرة حيثما كانت والحجر على الحرية واضطهاد العقيدة
والدس بين طبقات الامة تثير الحفيظة فى كل زمان . ولذا لا يكون تشابه

الظواهر الأدبية دليلا على التقليد بل هو دليل على وجود حساسية متشابهة في أعماق النفس العربية » ومن الخطأ أن نميز عمل أى بلد عربى فى هذا الصدد ، سواء اكان سابقا أم لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجبه الا حيث تلتقى جهود العرب كافة . . ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى برغم ما قيل فى توجيهها وللتنويه بآثارها . والذى يتحقق يوميا هو أن الادب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وأن انصار الاقليمية ينهزمون دائما فى ميدان الادب والسياسة على السواء ، لأن امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع والفوارق الطفيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لا تبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب فى أى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما أن الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة . ان الادب العربى وحدة لا تتجزأ ، وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الابداء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى . . وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم أن يعطل ذلك « ص 84

والحقيقة الثالثة : التى يكشفها الكتاب هى أن المغرب العربى ،

مع ما تعرض له من « فرنسة » مدة تزيد على ربع قرن ، عرف جميع الانواع الادبية التى عرفها المشرق العربى من مقال ادبى ، وقصة واقصصة ومسرحية وشعر « ويتصفح هذه الآثار نجد أن الحصاد الادبى لهذا الجيل اصبح من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استقم العناصر الاولى للادب الحى ، وأنه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الادبى فى العالم العربى . ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والادبية ظهرت البحوث المنوعة فى الفلسفة والفن والنقد وبلغت الخطابة السياسية اوج الكمال . وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاقصاصة والقصة وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . وفى الشعر استعمل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستعمال حركتها ، مكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الاجنبى وتذكيره بسجده وتاريخه العظيم ، وتحول

الظواهر الأدبية دليلا على التقليد بل هو دليل على وجود حساسية متشابهة في أعماق النفس العربية » ومن الخطأ أن نميز عمل أى بلد عربى في هذا الصدد ، سواء اكان سابقا ام لاحقا ، لأن طابع العروبة لا يوجب الا حيث تلتقى جهود العرب كافة . . ولم يتحقق للنظرية الاقليمية في الادب العربى مدلول خارجى برغم ما قيل في توجيهها وللتنويه بآثارها . **والذى يتحقق يوميا هو ان الادب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وإن انصار الاقليمية ينهزمون دائما في ميدان الادب والسياسة على السواء ،** لأن امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع والفوارق الطفيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لاتبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب في أى قطر عربى عما هو عليه في قطر آخر شقيق ، كما ان الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع أن تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة . ان الادب العربى وحدة لا تتجزأ ، وإن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى في نظرنا وليدة تفاعل افكار الابداء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى . . وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم أن يعلل ذلك » ص 84

والحقيقة الثالثة : التى يكشفها الكتاب هى أن المغرب العربى ،

مع ما تعرض له من « فرنسة » مدة تزيد على ربع قرن ، عرف جميع الاتواع الأدبية التى عرفها المشرق العربى من مقال أدبى ، وقصة واقصصة ومسرحية وشعر « وينصفح هذه الآثار نجد أن الحصاد الأدبى لهذا الجيل أصبح من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول أنه استتم العناصر الأولية للأدب الحى ، وأنه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الأدبى في العالم العربى . **ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية ظهرت البحوث المنوعة في الفلسفة والفن والنقد وبلغت الخطابة السياسية أوج الكمال .** وبدأت المحاولات الناجحة في كتابة الرواية التمثيلية والاقصاصة والقصة وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف في الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . **وفى الشعر استعمل النظم في موضوع الوطنية تبعا لاستعمال حركتها ،** فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الأجنبى وتذكيره بمجده وتاريخه العظيمين ، وتحول

الشعر العاطفى من تفاعلة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانيه صادقة ، وجمال الشعراء فى ميدان الطبيعة ، وحلقوا فى مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلى فى مسرحيات صغيرة تعتبر نواة لهذا اللون الجديد من الشعر العربى ، الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التى اكتسبت الادب المغربى ، منثورة ومنظومة بسيطة فى الشكل والمضمون لم يعرفهما من قبل « ص 83

والحقيقة الرابعة : التى تبين بوضوح ان المغاربة لم يقلوا عن المشاركة متانة اسلوب وعذوبة لفظ وسموا فى الخيال ورقة فى العاطفة . وقد ابدعوا فى النثر ابداعهم فى الشعر . واكسبت حرارة العاطفة الوطنية شعرهم توهجا . « والادب العربى ان كان قد سجل فى تاريخه الحفيل صرخات شوقى وحافظه وبطران والرصاصى والزهاوى وشكيب ارسلان واضرابهم من رواد الشعر الوطنى فى القطاع الشرقى للوطن العربى فقد بقى عليه ان يسجل الصرخات المماثلة التى اطلقها زملاؤهم فى القطاع الغربى » ص 148 .

ويقول البحث بالاستشهاد من الشعر العربى الجميل ، وحسبنا ان نحيل القارئ الى الكتاب ليمتع نفسه بنماذج من الادب العربى الحى النابع من الاعماق ، وليستمع الى صوت اخيه فى المغرب يشدو شدو الورق ويعصف عصف الاعاصير

ان صوت الامة العربية فى مشرقها ومغربها فى عهود الحماية والاستعمار ينبع من نفس واحدة ويعبر عن آمال وآلام متشابهة ، ومتى توحد الوجدان توحد المضمون ، ومتى توحد الاثنان جاءت الكلمة الواحدة تتردد تتردد الصدى فى اعماق الوادى .

وطالما كرر القائد المظفر معيد شباب الامة العربية وناصرها ان وحدة الكلمة ترمى الى وحدة الوجدان وان وحدة الوجدان من صنع التاريخ الطويل الذى طبع العقل والوجدان بسمات لن تزول . وقد جاء كتاب الاسناد كتون مصداقا لهذا القول بكامل ما فيه من قوة .

لقد تردد المؤلف كثيرا في القاء محاضراته التي تكون منها هذا الكتاب . ولو كان يعرف اى كسب حصل عليه اخوانه المشاركة وايضا خدمة اسداها الى الامة العربية والتاريخ العربى لما تردد . انه نفحات زكية هبت من المغرب الى المشرق لتزيده قوة فى كفاحه وايمانا برسالته ، وثقة بالاخوة العربية ووحدة الضمائر والعقول .

وتحية مباركة الى عبد الله كتون الذى وضع لبنة جديدة فى تاريخ الامة الادبى الى جانب ما وضعه زملاؤه ابن عاشور وناصر الاسد وعبد الجبار ولكى وغيرهم (1)

(1) نشر هذا المقال فى العدد المئثار من مجلة منبر الاسلام القاهرة الصادر بتاريخ ربيع الاول 1384 = 10 يوليو 1964

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كان اول من فاتحنى فى امر هذه الاحاديث هو الاستاذ الدكتور اسحاق موسى الحسينى عند تعرفى به فى مؤتمر ادباء العرب الذى عقد بالقاهرة فى نهاية سنة 1957 . وهو من الرجال العاملين بمعهد الدراسات العربية العالية كما لا احتاج ان اقول . وقد اعتذرت اذ ذاك لسيادته بانى لا اعنى بالادب الحديث واحلته على غيرى . ثم بعد ذلك بنحو سنتين تلقيت رسالة من العلامة المؤرخ محمد شليق غربال ، وهو مدير المعهد ، يدعونى فيها الى القاء محاضرات عن ادب المغرب العربى على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية ، ويرغبنى فى ذلك بما كبر على ان ارفض الدعوة . فكتبت اليه استفسره عن بعض النقاط ، وقلت له ، وانا احاول التملص من هذه المهمة : ان الامر اذا كان يتعلق بالمغرب العربى كله فليس فى استطاعتى القيام به . وتوفى رحمه الله ولم اطلق منه جوابا .

ولما سافرت الى القاهرة لحضور المؤتمر الثامن والعشرين لمجمع اللغة العربية ، فى مارس سنة 1962 وجدتهم ينتظروننى فى المعهد للقاء هذه المحاضرات . واستفريت الامر لانى لم ارتبط معهم بموعد ، بل لم اعرف ما يقصدون بالذات من ادب المغرب العربى ، ولقد استفسرت عن ذلك ولم احصل على جواب . ولكنهم اطلعونى على الملف الذى يحتوى على جواب من العميد الدكتور طه حسين الذى تولى ادارة المعهد بعد وفاة الاستاذ غربال ، وفيه بيان ان المقصود هو المغرب الاقصى ، وهذا الجواب ارسل

بطريق رسمية فلذلك لم يصل . وعلى كل حال فقد وجدت انه لم يعين الادب الحديث مع انه المراد . فقلت انه حتى لو كان الجواب وصل لبقيت في حيرة من امرى لانه لم يوضح جميع النقاط التى استفهمت عنها .

وتواعدنا على العام المقبل : انهم لم يجدوا فى الملف جوابا منى بالقبول ، فسلموا . وانا خجلت من كثرة التملص فقبلت على ما فى الامر من صعوبة وما يقتضينى من مجهود .

لقد بينت للصديق الدكتور عبد الرحمن البزاز وهو المدير الجديد للمعهد بعد تولى الدكتور طه حسين عنه . ان الادب المغربى الحديث غير مدون ، وغير مدروس . فالذى يريد ان يتحدث عنه ، عليه ان يقوم بعمليتين اثنتين : عملية التدوين اولا وهى جد شاقة ، لان عليه ان يكتتب الادباء ويسافر الى لقائهم ويتصفح آلاف الجرائد والمجلات التى نشرت شيئا من هذا الادب فى فترة تزيد على نصف قرن ، وعملية الدرس ثانيا ، وهى لا تقل عن الاولى مشقة مع ما فيها من المسؤولية المعنوية التى تعرض متحملها لكثير من القيل والقال . وانه ليس كالادب فى اى قطر آخر من الاقطار العربية الذى نشرت فيه عشرات المجموعات والمنتخبات فضلا عن الدواوين الشعرية والقصص التى تعد بالمئات ، واخرجت فيه دراسات وبحوث نقدية كثيرة باقلام مختلف الكتاب ، فاصبح مناله سهلا بخلاف ادبنا الذى ما زال خاها لم يخدم من ناحية الجمع ولا من ناحية التقييم . ثم قلت له ان اهتمامى بالادب المغربى كان دائما منصبا على القديم منه ، وقد وفقت بفضل الله الى وضع كتاب فيه يقف الى جنب كتب تاريخ الادب العربى للزيات والاسكندري وغيرهما التى لم يجرى فيها سطر واحد عنه . . . وانى اعمل على تعزيزه بكتاب فى تراجم المغاربة الذين يمنون كالادب المغربى بتجاهل كبير . لذلك لا اريد ان اصرف وجهتى عما انتطعت اليه لئلا ينخرم هذا العمل الذى اعده من قبيل الاحياء للتراث العربى فى بلاد المغرب .

وكان جوابه وجواب الاصدقاء الذين سمعوا منى هذا الكلام هو الالحاح على وجوب الاعتناء بالادب الحديث ايضا ، والا وقع له من الاهمال ما وقع للادب القديم .

والآن ، وقد قبلت القيام بالمهمة ، ولم يسعنى الا النزول عند رغبة هؤلاء الافاضل ، ها هي ذى الاحاديث او المحاضرات المطلوبة عن الادب المغربى الحديث ، لم آل فيها جهدا ان اوضح العوامل التى اثرت فى تكوين هذا الادب والاتجاهات الجديدة التى اتخذها . ولم أحد قيد شعرة عن نهج الانصاف فيما حكمت او علقت فلا تبجح ولا دعوى يكذبها الواقع : ولا بخس ولا اجحاف بحق من الحقوق . وقد آثرت ان ادرس الادب — او اتقدمه على الاصح — فى آثار اعلامه ، بدلا من ان ادرس الادباء فى آثارهم ، ولذلك فاننا لم اذكر من الاسماء الا ما اقتضاه الموضوع او تطلبه الشاهد . ولو ذهبت اقدم الادباء بشخصياتهم لما وغيت بواحد منهم ، ولطال الامر جدا من غير ان يمكننى الالمام الا بعدد محدود منهم . فهذه الطريقة التى جعلتنى اتصرف بحسب الموضوعات المدروسة لا بحسب الاسماء المقدمة ، لم تدع لى اختيارا فى الادباء الذين اذكرهم ، وامدتنى فى الوقت نفسه باكثر عدد من الاسماء ما كان لى ان استوعبها لو تبعت الطريقة الاخرى .

ولا اخفى اننى من اول وهلة اعتزمت ان لا اتصل بأحد لا بالكتابة ولا بالشخص ، تخففا من المتاعب وتجنباً لضياح الوقت الذى غالبا ما يكون بغير طائل ، وان اكفى بما عندى من مواد ومراجع اكثرها من الجرائد والمجلات التى صدرت فى المغرب منذ بداية هذا القرن . وفعلنا فقد نفضت ما لا يقل عن عشر آلاف صحيفة وانتقيت منها ما يلزمنى لهذا العمل ثم صنفته كما يجب ، وراعت الاكثار من النصوص والنماذج لانى رايت بعضها اذا طالت المدة سوف يدخل فى خبر كان . ولانى ايضا اردت ان اقول بالحجة واحكم بالدليل .

وفى خصوص النشاط الفكرى والكلام على حركة التأليف والبحث لم اشر الا الى ما صدر بالطبع ، ونشر اما استقلالا على شكل كتب ونشرات واما بشكل مقالات وابحاث متتابعة فى الصحف الدورية ، لانى وان كنت اعرف لبعض الكتاب والمؤلفين موضوعات وبحوثا شتى فان ما لا أعرفه من ذلك اكثر ، ولا معنى لتخصيص البعض بالذكر دون البعض . على ان هناك كثيرا من الاعمال انما هي أسماء بدون مسميات ، ومشروعات ما زالت لم تدخل لحيز التنفيذ ، فلم اثنا ان اتورط فى الحديث عن الغيب ،

واخترت الاختصار على ما هو موجود ومشاهد وواقع بين يدي كل واحد من غير ان يحتاج الى من يوقفه عليه . وهذا الموجود نفسه لا ادعى انى استوفيته . فقد يكون فاتنى منه شيء وان يكن فى ظنى شيئا قليلا . وواضح ان ما كان من قبيل الكتب المدرسية والفقهية والحديثية الخاصة بتحقيق بعض المسائل الجزئية ، لم يكن من مشمول ما ذكرته فى الحديث عن هذا النشاط فانه شيء كثير ، وهو بطبيعته بعيد عن مجال هذه الاحاديث

واملى ان اكون وضعت مخطط هذا البحث ، ولم يعدنى التوفيق فى بناء هيكله على الاقل . فعلى الباحثين الذين هم اكثر اطلاعا واوسع ثقافة ان يعملوا على سد هذه الثغرة ويؤدوا للحركة الادبية فى المغرب الخدمة التى تستحقها فى مجال التعريف والتاريخ . وكل يعمل على شاكلته ، وما على من بذل جهده من ملام .

والشكر لمعهد الدراسات العربية العالية على ما اتاح لى من هذه الفرصة الثمينة التى لولاها لما كانت هذه الاحاديث ، والدال على الخير كفاعله.

عبد الله كنون

على عتبة العصر الحديث

بقى المغرب خلال النصف الثاني من القرن الماضي واوائل القرن الحالى . يتمثل الثقافة القديمة بعيدا عن كل تيار فكرى جديد . فى حين ان غيره من البلاد العربية ولا سيما الشرقية كمصر والشام والعراق كانت تشهد قيام حركة علمية وادبية نشيطة ، قدح زندها اولا محمد على فى مصر وثانيا البعثات العلمية الاجنبية التى امت هذه البلاد ، واسست فيها مدارس عصرية من مختلف المستويات .

فاذا كان تاريخ نهضة الادب العربى فى الشرق يبدأ من منتصف القرن التاسع عشر فانه فى المغرب قد تاخر الى ما قبل نشوب الحرب العالمية الاولى بقليل .

ذلك ان المغرب كان فى عزلة تامة ، فى تلك الفترة ، عن الشرق والغرب . اما الشرق لمعلوم ان تبعيته للدولة العثمانية ، ولو بصفة اسمية كما كانت عليه الحال فى مصر اخيرا ، جعلت منه وحدة اقليمية متماسكة الاجزاء بتاثر بعضها ببعض . وتتلاقى فيها الحوادث بما يكون لها من صدى فى جميع الاوساط .

والمغرب حتى لما كانت السيادة العثمانية تمد رواقها على تونس والجزائر ، كان خارجا عن هذه الوحدة له كيانه الخاص ، ودولته المستقلة ، فبينه وبين ما يجد فيها من احوال حجاب كثيف . وزاد هذا الحجاب كثافة بعد سقوط الجزائر فى قبضة فرنسا سنة 1830 ثم تونس سنة 1881 فاصبح المغرب فى غيبة عما يجرى فى العالم من تطورات ، برغم ما يربطه به من روابط متينة .

وأما الغرب فإن سياسته الاستعمارية التي كشف عنها النقاب نسي
الجزائر وفي أقطار أخرى ، جعلت المغرب يقدم الحذر في علاقاته به ويبتعد
عن طريق اللقاء معه ما أمكن ، ولم تكن هذه خطة عملية ، فانها انما منعت
الاستفادة من علومه ومعارفه ، ولم تقف في وجه مطامعه وشروره . وقد
كان المفروض ان البلاد التي تتاخم أوربا شمالا وتعد الحد الشرقي لأمريكا
لا بد ان تجارى هذه في النهوض ، وتقتبس من تلك ما تلقح به نراثها الفكرى
والحضارى ، بل ان تكون سبابة في ذلك فلا تتقدمها البلاد البعيدة عن مراكز
التمدن هذه كاليابان مثلا ، ولكن مبدا الحيطة الذى درج عليه المغرب في
انصاله بالغرب وأسرف فيه ، هو الذى أضرب به وضرب عليه هذه الانطوائية
في التفكير والعمل .

وهكذا نجد المغرب في هذا التاريخ منعزلا عن العالم القديم والجديد ،
عن اصدقائه في الشرق وجيرانه في الغرب ، ولو انه بقى في عزلته من غير
ان تبدأ الدسائس الاستعمارية تنصب حبالها للايقاع به ، لكان دبر أمره
في الاتصال باخوانه العرب والمسلمين ، لتبادل الراى ووضع خطة العمل
للنهوض والحقائق بركب الحضارة ، او لكان نظم علاقاته بجيرانه الغربيين
على اساس الاخذ والعطاء والمصلحة العامة . فلم يكن الشعب المغربى
ولا حكومته في يوم ما ، على غير رغبة في العمل باخلاص مع العالمين لرفع
مستوى الحياة الانسانية . وحمل مثلث المعرفة ، ولكن تدخل الاستعمار
الغربى في شؤونه الخاصة وتحرشه به في غير ما موقف ، لم يفتح امامه
سبيل المواجهة مع هذا الغرب الماكر ، ولا اتاح له فرصة التعاون مع
الشرق الناهض على ما فيه خير الجميع .

لقد كان هبوب المغرب لنجدة شقيقته الجزائر في محنتها القاسية ،
سببا في اغارة جنود الاستعمار الفرنسى على حدوده الشرقية واشتباكهما
مع القوات المغربية في معركة ايسلى سنة 1260 هـ الموافقة لسنة 1844 م
وهى المعركة التي دشنت بها فرنسا سياستها العدوانية ضد المغرب .
وكانت ايدانا بفتح باب التنافس الدولى على مصراعيه للحظوة بهذه
البلاد الطيبة .

وما لبثت اسبانيا ان اشهرت الحرب على المغرب سنة 1276 هـ - 1860 م متفرعة بحادث نزاع على حدود سبتة ، وبادرت فاحتلت مدينة تطوان ، فلم تخرج منها برغم ايقاف القتال الا بعد سنتين وثلاثة اشهر ، وكانت هذه الحرب اسوا اثرا مما قبلها في تعزيز النفوذ الاستعماري في البلاد وارهاق الخزينة الوطنية بالديون الاجنبية .

وتلاحقت الحوادث بين مؤتمرات دولية لتحديد الامتيازات الاجنبية ، واتفاقيات سرية لاطلاق يد فرنسا في المغرب الى اقتطاع بعض المناطق الصحراوية من جسم البلاد ، واحتلال بعض المدن الكبرى بالقوة حتى ارغم رئيس الدولة على توقيع عقد الحماية في 30 مارس سنة 1912 .

ان شريط الحوادث التي الجأت المغرب الى هذا المصير المفجع اطول من هذا بكثير ، ولكن يكفى من القلادة ما احاط بالعنق كما يقول المثل ، ولعل حق القلادة هنا ان تكون ربة لينسجم المثل مع الموضوع . فهي ربة منعت من التصرف في شؤونها كما يريد ، حجرت عليه ان يحيا حرا وان كان بلاد احرار ، لان الذي وضعها في عنقه اراد ان يستأثر بخيراته دونه ، اراد ان يستعبده ، وهو الذي لم يعرف العبودية قط لم يخضع لروما في جاهليته وبربريته فكيف يخضع لربيبتها فرنسا في اسلامه وعرويته ؟ ولما لم تجده وسائل القوة والعنف ، عاد الى الخداع والملاينة فزعم انه يحمل اليه رسالته المدنية ، وانه سيلقنه علوم الحياة باجمعها ، ولم يكن ما حمله اليه الا عمرا وفسادا ، وما لقنه الا تجديدا والحادا ، اترأها بقية حرب صليبية ؟ انها كذلك كان آباءنا في هذا العهد يرونها ، ولقد صدق ظنهم الظاهر البربري المعروف الذي اصدرته بنت الكنيسة البكر ، اعنى فرنسا (اللايكية) سنة 1930 وسنتكلم عليه في حينه .

لكن هل استكان المغرب لهذه المؤامرات الاستعمارية ؟ وهل انهزم امام قوى الشر التي تكالبت عليه من كل جهة ؟

كلا ، انه قاوم جهد المقاومة ، وعمل ما في استطاعته ، وهو معزول عن كل صديق وحليف ، ليتفادى الوقوع في الفخاخ التي كانت تعد له قصد اضطياده ، وصارت المكائد والشدائد بمثابة موطئ لشعوره وحافز لهيمته ،

وما لبثت اسبانيا ان اشتهرت الحرب على المغرب سنة 1276 هـ - 1860 م متذرة بحادث نزاع على حدود سبتة ، وبادرت فاحتلت مدينة تطوان ، فلم تخرج منها برغم ايقاف القتال الا بعد سنتين وثلاثة اشهر ، وكانت هذه الحرب اسوا انرا مما قبلها في تعزيز النفوذ الاستعماري في البلاد وارهاق الخزينة الوطنية بالديون الاجنبية .

وتلاحقت الحوادث بين مؤتمرات دولية لتحديد الامتيازات الاجنبية ، واتفاقيات سرية لاطلاق يد فرنسا في المغرب الى اقتطاع بعض المناطق الصحراوية من جسم البلاد ، واحتلال بعض المدن الكبرى بالقوة حتى ارغم رئيس الدولة على توقيع عقد الحماية في 30 مارس سنة 1912 .

ان شريط الحوادث التي الجأت المغرب الى هذا المصير المفعج اطول من هذا بكثير ، ولكن يكفى من القلادة ما احاط بالعنق كما يقول المثل ، ولعل حق القلادة هنا ان تكون ربة لينسجم المثل مع الموضوع . فهي ربة منعت من التصرف في شؤونها كما يريد ، حجرت عليه ان يحيا حرا وان كان بلاد احرار ، لان الذي وضعها في عنقه اراد ان يستأثر بخيراته دونه ، اراد ان يستعبده ، وهو الذي لم يعرف العبودية قط لم يخضع لروما في جاهليته وبربريته فكيف يخضع لربيبتها فرنسا في اسلامه وعرويقته ؟ ولما لم تجده وسائل القوة والعنف ، عاد الى الخداع والملاينة فزعم انه يحمل اليه رسالته المدنية ، وانه سيلقنه علوم الحياة باجمعها ، ولم يكن ما حمله اليه الا عهرا وفسادا ، وما لقنه الا تجديفا والحادا ، اترأها بقية حرب صليبية ؟ انها كذلك كان آباؤنا في هذا العهد يرونها ، ولقد صدق ظنهم الظهير البربري المعروف الذي اصدرته بنت الكنيسة البكر ، اعنى فرنسا (اللايكية) سنة 1930 وستكلم عليه في حينه .

لكن هل استكان المغرب لهذه المؤامرات الاستعمارية ؟ وهل انهزم امام قوى الشر التي تكالبت عليه من كل جهة ؟

كلا ، انه قاوم جهد المقاومة ، وعمل ما في استطاعته ، وهو معزول عن كل صديق وحليف ، ليتفادى الوتوع في الفخاخ التي كانت تعد له قصد اصطياده ، وصارت المكائد والشدائد بمثابة موقف لشعوره وحافز لهبته ،

فكلما قويت كان رد الفعل عنده اقوى ولا نتكلم عن اعماله في الميدان السياسى والحربى فانها من اختصاص التاريخ العام ولكن لا بد من الاشارة الى اعماله في الميدان الاجتماعى كالتعليم والادارة والتجهيز الحضارى الحديث مما له تاثير على الحياة العسكرية والنهضة الادبية المؤرخة .

ففى التعليم كان مما اسفر عنه الاحتكاك المتواصل بالعربيين سواء في المداوالت السياسية او المعاملات التجارية انه لا بد من الاقتباس والنقل عن القوم ، اذ تبين تفوقهم في العلوم الكونية والفنون والصنائع وذلك كما فعل اجدادنا في نقل علوم اليونان والاقتباس من حضارة الفرس والهند وكما فعل الغربيون انفسهم في الاقتباس والنقل عنا اول عصر الانبعاث في اوربا .

وكان اول ما توجهت اليه عناية الدولة الفنون العسكرية والطب والهندسة واللغات ، واختير لذلك من اول وهلة ، نظام المبعوث ، فكان الشبان يكونون تكوينا سريعا يتلقون فيه على الخصوص دروسا في مبادئ العلوم الرياضية والتاريخ ولغة البلد الذى سيتوجهون اليه ، باستثناء من كانوا يوجهون الى الشرق ، فقد كانت هناك بعض المبعوث وجهت الى مصر اول الامر ، ايام السلطان محمد الرابع وفي مدة الخديوى سعيد باشا وولده اسماعيل ومن اشهر المتخرجين في هذا العهد من مصر الطبيب عبد السلام العلمى والجغرافى احمد شهبون وكلاهما ممن اسهم في الحياة العلمية بالتعليم والتأليف ، وبعدها من الطلائع الاولى للنهضة الحديثة ، لان تعليمهما كان بالعربية .

اما المبعوث الاخرى فقد وجهت الى اوربا ، وكانت البلاد التى اختيرت لها هى انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وبلجيكا واسبانيا ، فضلا عن جبل طارق الذى كان المبعوثون اليه يتلقون فيه تدريبات عسكرية بالخصوص وتكررت هذه المبعوث فكان كلما قفلت جماعة خلفتها جماعة اخرى واتصلت ايام السلطان مولاي الحسن وولده مولاي عبد العزيز (1) ولم يمنع من

(1) يقتصر المؤرخون على ذكر المبعوث التى توجهت في ايام السلطان مولاي الحسن كانها توقفت بعده لكنها تعلم ان افرادا آخرين توجهوا في ايام ولده مولاي عبد العزيز ولا سيما من طنجة .

استمرارها الا ما نشب بعد ذلك من الفتن الداخلية والاصطدام بقوة الاحتلال الفرنسي وبلغ عدد افرادها في الجملة بضع مآت انتفع بهم في الادارة والجيش والديبلوماسية ، وكان من بينهم من ارتقى الى اعلى منصب في الدولة كالوزير الصدر محمد الجباص .

واذا كان مما يلاحظ ان هذه البعث لم تتم بنشاط مهم في ميسدان التعليم بعد رجوعها وان الانتفاع بها كان قاصرا على الميادين التي ذكرنا ، فان ذلك لسببين مانعين : احدهما ان التعليم الذي كان يتلقاه غالب افرادها لم يكن تعليميا كاملا وانما كان تدريبا او تكوينا عاما ، واكثره مما يتعلق بالفنون العسكرية . وثانيهما انه لم يقع التفكير على ما يظهر في فتح مدارس لهؤلاء المتعلمين ليعلموا فيها ما حصلوا عليه من المعارف الجديدة لغيرهم من المواطنين حتى تعم الفائدة بذلك وينتشر العلم على اوسع نطاق كما كان يقع في مصر وفي غيرها من البلاد الناهضة كاليابان التي يقال ان حركة ارسال البعث العلمية الى اوربا فيها كانت مقارنة لحركة المغرب ، ولكنها جنت ثمار هذه الحركة في اقرب مدة ، وبقي المغرب محروما من نتائج حركته لهذا السبب .

ولا ننسى الظروف العصبية التي كان المغرب يمر بها ، فانها لم تدع له مجالا للعمل بحرية في هذا الصدد ، ولم تزل به حتى شلت حركته فاقف هذه البعث في النهاية .

وفي الادارة اهتم كل من السلطان محمد الرابع ومولاي الحسن بتنظيم الحكومة وتحديد اختصاصات الوزراء فأحدثت وزارة الخارجية والمالية والحربية والعدل ، وبقي الوزير الصدر يترأس الحكومة ويلى وزارة الداخلية وكان من هم وزارة الخارجية ان تنظم علاقات المغرب بغيره من الدول ، وتوجه التنافس الدولي القائم حول المغرب لصالح البلاد والحد من الامتيازات الاجنبية . اما وزارة المالية فقد كان اهتمامها منصبا على تنمية موارد الدولة التي كانت تنحصر في الاعشار ومعاليم الجمر ، لان الشعب كان يستنفع من اداء اية ضريبة ، ولاقى المغرب في هذا العهد صعوبات جمة في تنظيم ماله وموازنة الدخل مع الخرج تجنباً لعقد اى سلف خارجي وان

لم يجد بدا من ذلك في الاخير ، حيث أنشئ مصرف للدولة فواجه الازمة بما يقتضيه الحال ، واهتمت وزارة الحربية بتنظيم الجيش وامداده بالمعدات الحربية ، فزيادة على التدريب العسكري الذي كان يتلقاه انواع المتعلمين في الخارج استقدمت الوزارة بعض الضباط الاجانب للمعاونة في هذا التنظيم ، ولم تكف بما تقتنيه من السلاح والعتاد الحربي من الخارج ، بل انشأت معملا حديثا لتزويد الجيش بما يلزمه من ذلك في كل الظروف وعملت على تكوين قوة بحرية جديدة تعيد بها ماضي القوة البحرية المغربية التي اضمحلت بسبب الاهمال ، فأوصت على صنع بعض المراكب الحربية في معامل اوربا ، واشترت غيرها مما كون لديها نواة لاسطول مغربي حديث .

وكذلك كانت الاصلاحات الجوهرية تتناول جهاز الدولة شيئا فشيئا فتحوله من جهاز قديم فقد فعاليته بتاثير الحوادث ، الى جهاز جديد أكثر ما يكون انسجاما مع تطورات العصر . وكانت مظاهر الحضارة الحديثة تستهوي افئدة الناس وتغزو المجتمع المغربي بكل الوسائل فيصطنع الكبراء والمترفون منها كل ما له لمعان وبريق ، ويففلون عما له تاثير في تطوير الحالة المادية والمعنوية للشعب ، على ان بادرتين عظيمتى الاثر في البعث الادبي والاصلاح السياسي كانتا من اهم ما انبثقت عنه حركة التجديد والمقاومة في هذا العهد ، وهما الطباعة والدستور .

فالطباعة دخلت للمغرب في اول هذا العهد ، وقصة دخولها شيقية ، فان السيد الطيب الروداني قاضي تارودانت رآها بمصر فاعجبته ، وكان ذهب الى الحج ، فافتنى آلتها وتعاقد مع فني مصري للعمل فيها ، فصحبه الى المغرب ، ولما رأى ان الدولة احق بها اهداها للسلطان محمد الرابع فقبلها منه واكرمه بان ولاء عليها ، وشرع في طبع الكتب المهمة وخاصة الكتب الدراسية مما يستعمل في القرويين ولغروعا . وكان بعثني بالتصحيح وينتقى الخطوط الجميلة ، اذ كانت مطبعة حجرية فاكسبت مطبوعاته سمعة طيبة ، واشتهرت باسم السلطان ، فكان يقال لها مطبوعات المطبعة المحمدية ، وانتشر فن الطباعة بعد ذلك ، وصار من عمل الافراد وكثرت المطبوعات المغربية المعروفة بالفاسية ، لان المطابع التي تصدرها كان مقرها فاس واشتملت على جميع الفنون من عربية وفقه وادب وتاريخ

وعلوم ، وكانت حافظا لكثير من اهل العلم على التأليف والنشر فزخرت المكتبة العربية في كل مكان بنتاج هذه المطابع .

على أن مطابع اخرى من ذوات الحروف المركبة ما لبثت ان عززت المطابع الحجرية في فاس وغيرها . واهم ما يلفت الانظار في نتاجها هو ظهور اول جريدة عربية تحمل اسم المغرب ، وكان ذلك في طنجة سنة 1889 وهي جريدة اسبوعية حرة اصدرها بعض اللبنانيين ولم تعمر طويلا ، ثم صدرت بعدها في طنجة ايضا جريدة المغرب الاقصى سنة 1900 فجريدة السعادة سنة 1905 فمجلة الصباح سنة 1906 فجريدة لسان المغرب سنة 1907 وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا الى المغرب في هذا العهد ولم يبق منها الا السعادة التي اصبحت فيما بعد لسان حكومة الحماية .

وكان حدث الدستور حريا ان يقلب الاوضاع في المغرب راسا على عقب ، لولا انه اتى متاخرا جدا ، على اثر مبايعة السلطان مولاي عبد الحفيظ 1325 هـ - 1908 م ، وكانت مبايعته ثورة على الفساد والاستغلال وامتداد النفوذ الاجنبي في ايام اخيه مولاي عبد العزيز ، ومع ما يمكن ان يقال في اصالة هذه الحركة ونعيرها عن الراي العام المغربي الذي لم يفتأ السلاطين يعيرونه كل اهتمامهم ، ويصدرون عنه في جميع المواقف الحرجة التي يرون انه لا بد من الاخذ باثارتها فيها ، فان صدى الحركة الدستورية التي كانت قائمة في المملكة العثمانية ، في هذا الوقت بالذات ، لا بد ان يكون بلغ الى المغرب ، وان يكون هو المحرك القوي للمطالبة بالدستور

يدلنا على ذلك هذه الفقرات (1) التي جاءت في مقال لجريدة لسان المغرب التي كانت تصدر بطنجة آنذاك والتي نقول :

« بما ان الوقت قد دعا الى الاصلاح ، والشبيبة العصرية قد هلت قلوبها وانشرحت صدورها له وجلالة سلطاننا الجديد يعرف لزومه ، فنحن لا نالوا جهدا في المناذاة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته وهو يعلم اننا ما قلدها ببيعتنا واخترناه لامتنا وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير

(1) ننقلها عن مجلة المغرب الجديد العدد 6 السنة الاولى .

أن يجلب علينا بخيل ولا رجال ، الا املا ان ينقذنا من هوة السقوط النسي
اوصلنا اليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالته ان يحقق رجاءنا وان يبرهن
للكل عن اهليته ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته في الاصلاح
وجدارته مادارة ما قلدته امته ، والذي نرجوه منه اولا قبل كل شيء هو
فتح المدارس ونشر المعارف ، وان يكون التعليم الابتدائي اجباريا ، وان
يولى ذوى الكفاءة والاستحقاق والاهلية ، ويقرب اليه ذوى العقول الراجحة
والانكار الحرة الراقية ، وليتحرز من الوثاة والجواسيس الذين يشوهون
له رعاياه ويحولون بينهم وبينه ، وفي بلاطه الشريف من هذه المكروبات
القتالة جيش كبير ، فان لم يحترز منها ويتاومها نقلت اليه جرائم موثة
معدية ، وبما ان بدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب من وهدة سقوطه
ولا على اصلاح ادارة مختلة كادارة حكومتنا ، فيجب ان نكون الايدي
المتصرفنة والعقول المفكرة ، والانكار المدبرة كثيرة متكاته على العمل ، وعليه
فلا مفاص ولا محيد لجلالته ان يمنح امته نعمة الدستور ومجلس النواب ،
وان يعطيها حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا
الحاضرة المسلمة والمسيحية ، والدول الحاضرة يوم كانت مستدة وسلطتها
مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة ولا ما يدل على انها قديرة . وحيث خلص
الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة
سقوطها وتنقلت في اطوار الكمالات حتى وصلت اليوم الى ما وصلت اليه ،
وكفى حجة على هذا امة اليابان تلك الشمس في آفاق آسيا التي كانت
في مؤخرة الدول قبل الاربعين سنة واصبحت اليوم في مصاف الدول العظيمة
وانتصرت ذلك الانتصار العجيب على دولة من اعظم دول العالم (روسيا) .

وغير بعيد عنا الانقلاب العجيب الذي حصل في دولة تركيا العلية
اثر منح جلالة امير المؤمنين لشعبه الدستور وامره بجمع مجلس المبعوثان ،
فعسى ان نقنطى بهم ونقوم بخدمة بلادنا ونسمى جهدا في اصلاح حالتنا .

هذه صيحة مدوية تنذر بما كان يتهدد المغرب من اخطار ، وتعلن من
راى النخبة المفكرة والطبقة الواعية في الاصلاح الذى يتركز في وضع دستور
للبلاد يكفل لها حياة العزة والكرامة والحرية والتقدم ، وهى كما ترى
تعكس الاحداث التى كانت تجرى في البلاد العثمانية من اجل الدستور

والحصول عليه في نفس سنة 1908 .

وقد وضع الدستور المغربي بالفعل وكان يحتوى على قانون الحريات العامة ونظام مجلس النواب والانتخابات العمومية الخ ، ولكن مصيره كان الى الاهمال لان تتابع الاحداث التي ادت الى فرض الحماية الفرنسية على المغرب شغل السلطان وعقل الشعب عن كل عمل يهدف الى اصلاح المنشود .

تلك هي حالة المغرب العامة اثناء النصف الثاني من القرن الماضي واولئل القرن الحالى ، وهي حالة مهما قلنا بخضوعها للتطور الحديث ، فانها نظرا لبطء هذا التطور واقتصراره في الغالب على الشؤون المادية دون الامور المعنوية ، لم تكن لتخلق جوا ادبيا يختلف عما عهده الناس ولا لتحداث تحولا فكريا يصب في غير المجرى المألوف . ومن ثم فان الحياة الفكرية والادبية بقيت على حالها من تمثّل الماضي واحتذاء حذوه سواء في المادة او القالب ، في المعنى او الاسلوب ، المؤلفون يضعون تأليفهم على غرار الذين من قبلهم ، والادباء يصوغون ادبهم نفس الصياغة التي توارثوها عن تقدمهم ، والانتاج في الواقع كثير ، والمطبعة تخرج من الآثار القديمة والجديدة في العلم والادب ما يدل على نفاق سوق المعرفة ، ولكن عنصر التجديد وروح الابتكار كانا يعوزان هذه الاعمال ، فميزانها بالنسبة الى النهضة الفكرية الحديثة ميزان خفيف وان كانت في حد ذاتها ذات قيمة لا تفكر . . نعم كان هناك مؤلفون وادباء ولكن صلتهم باهل العصور الخالية اقوى من صلتهم باهل العصر الذي يعيشون فيه ، فنتائجهم يعد من صميم النتاج القديم لا لفرق بينه وبين ما وضع قبل ثلاثة قرون وان كان منه ما وضع في اواخر العهد الذي نحن بصددده ، ولا نقول انه لا يمثل عهده هذا ، فالواقع انه اصدق ممثل له ، لانه وقفنا على مناحي التفكير ومناهج التفكير التي كانت سائدة اذ ذاك ، وهي كما نعلم منحصرة في ضروب المصارف الاسلامية وعلوم العربية واثارة من فلسفة وحساب وفلك ، اى ما كان يدرس في جامعة القرويين بفاس ولمروعاها المنتشرة في أنحاء المغرب ، ولا زائد ، من غير ان تمسه يد اصلاح او تدخل عليه مادة تلقيح .

ولئن كان العصر قد خطا خطوات عظيمة حتى في البلاد العربية بالنظر الى تقدم العلوم واتساع دائرتها فان المغرب الذى كان في عزلة ، لم يستشعر شيئا من ذلك في نشاطه الفكرى اطلاقا ، وبذلك قلنا ان نتائج هذا العهد يمثلها اصدق تمثيل ، فالعبرة بما وقع لا بما كان ينبغي ان يقع .

ومع ذلك فان حركة التأليف والنشر التى كانت نشيطة جدا في هذا العهد ان لم تدل على بعث فكرى ، فهي تدل على حيوية عظيمة في اهل العلم الذين تركوا لنا تراثا حافلا لم تخرج المطبعة بعده الى الآن ولا مقدار ربعه ، ناهيك بمؤلفات المهدي بن سودة (ت 1294) ومحمد كنون (ت 1302) وعلى الدمناني (ت 1309) واحمد بن الحاج (ت 1310) وابراهيم التاطلى (ت 1311) وعبد السلام العلمى (ت 1313) واحمد ابن خالد الناصرى (ت 1315) وماء العينين الشنقيطى (ت 1328) ومحمد ابن قاسم القادري (ت 1331) والمهدي الوزانى (ت 1342) واحمد بن الضباط (ت 1343) ومحمد بن جعفر الكتانى (ت 1345) واحمد بن المامون البلغيشى (ت 1348) والمكى البطاورى (ت 1354) وغيرهم ممن يطول تعدادهم . ان هؤلاء كانوا حملة مشعل المعرفة وقادة الفكر في البلاد والآثار التى خلفوها من ورائهم ما زالت تنير السبيل امام الباحثين في تاريخ الحياة الفكرية بالمغرب . ولعل هذه الآثار على تشبعها بروح القدم كانت اربابا بين يدي النهضة الادبية الحديثة ، لانها لا تعدو ان تكون بحثا عن الحقيقة ، ونطلعا لمستقبل زاهر .

ومهما عمنا في الحكم على هذه الآثار بأنها خالية من التجديد والابتكار ، فاننا لا نخفل منها بالخصوص آثار الفقيه محمد كنون والطبيب عبد السلام العلمى والمؤرخ احمد بن خالد الناصرى . ان الفقيه كنون قام بدعوة اصلاحية تردد صداها في المغرب من اقصاه الى ادناه ، دعوة تتركز في محاربة البدع التى شوهدت جمال الدين والرد على اهل الطرق الصوفية اصحاب الدعاوى الباطلة ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يحجم في ذلك ان يتعرض لاحوال الولاة وما يرتكبونه من المخالفة لاحكام الدين وظلم الرعية حتى نالته بسبب ذلك اذاية السلطان ولكنه لم يتأثر ولم يضعف بل زاد قوة وثباتا ، وكان الى ذلك دؤوبا على نشر العلم ، وبذل النصح للخاصة

والعامة من غير تكلف ولا تصنع ، بل تعثريه في ذلك حال ربانية لمنفع الله به من لا يحصى عددا من الطلاب وجمهور الناس وبذلك انتشر تلاميذه في جميع انحاء البلاد داخل المغرب وخارجه ، وانتشرت دعوته معهم ، وكانت كتبه التي تحمل طابع الجد في العلم والعمل مما يقوى نفوس اتباعه ويحملهم على التمسك بدعوته وزيادة التبصر في الدين .

واما الطبيب العلمي فانه كان اول طبيب مغربي تعاطى الطب على الطريقة الحديثة ، والف فيه تأليف نافعة تشتمل على تعريف المواطنين بنهضة الطب في هذا العهد ، في اوربا والشرق ، وتحتوى على مصطلحات طبية جديدة باللغة العربية بسبب كونه درس الطب في مصر كما قدمنا ، وذلك ما لم يكن في استطاعة الاطباء الآخرين الذين درسوا في اوربا .

والناصرى كان مؤرخا متفتح الذهن ، اكسبته خدمته للسلطان خبرة بأحوال عصره ، فكتب أحسن تاريخ جامع للمغرب لا يقتصر على سرد الحوادث فقط ، بل يتضمن اجكاما وآراء اصلاحية سديدة ، وينتقد سياسة الدولة وما آل اليه امر المغرب من الضياع . وكان هو المؤرخ المغربي الاول الذى لم يستنكف من النقل عن المؤرخين الاجانب لبيان وجهة نظرهم على الامور ، واستتمام المعلومات عن بعض المسائل التاريخية ، مما كان موضع تندر عند بعض المحافظين ، وزاد في قيمة تاريخه انه كان عالما ادبيا متمرسا بصناعة النظم والنثر فحرره بلغة سليمة واسلوب متين .

ان هذه الآثار نفتح اعيننا على بصيص من النور كان ينبعث من خلال هذا العهد في مجال الاصلاح الدينى والتطور الفكرى ، وهناك آثار اخرى تكتسى صبغة الصحافة السياسية كان نخبة من الشبان المتحمسين للنهضة الوطنية في اواخر هذا العهد والعلماء الواعين وعلى راسهم الشيخ محمد الكتانى (ت 1327) يصدرونها بشكل رسائل صغيرة يبينون فيها تدهور سياسة الحكومة وفساد دول الاجنبية ولا سيما فرنسا التي لغرت ناهيا لابتلاع المغرب ويلضحون مناورات العملاء وصنائع الاستعمار الذين كانوا يمهدون له بمختلف الاقوال والاعمال ، مما يدل على وعى هذه النخبة ويقتظنها .

على ان الصحف التى كانت تصدر بطنجة ، وان يكن اصحابها لبنانيين ، لم تكن تخلو من اسهام المغاربة فيها فالفقرات التى نقلناها آنفا من مقال لجريدة لسان المغرب تكاد تنطق بان كاتبها مغربى ، وهى تعطينا فكرة واضحة عما كان يطالب به هؤلاء الشبان والعلماء من اصلاحات ، وما كانوا يوجهونه للجهاز الحكومى من انتقادات .

هذه لمحة عن جانب من الانتاج الفكرى فى هذا العهد ، نتعرف منها حالة الكتابة العلمية والكتابة السياسية التى تعتبر نواة للكتابة الصحافية الناشئة فيما بعد . ونتخلص منها للكلام عن الانتاج الادبى الخالص الذى هو فى الحقيقة المقصود بالبحث ، ربطا للنتائج بالمقدمات .

ونبادر فنقول : اننا وقد عرفنا ان اى تطور فعال لم يطرأ على الحياة الفكرية عموما فى العهد المؤرخ ، فلا ننتظر ان نجد عند الادباء غير ما وجدناه عند العلماء من تغلغل روح المحافظة على الماضى والاتباع لآثار القدماء فالاعمال الادبية تتمثل فى الرسالة والمقامة والخطبة والتاليف بطريقة الكتابة الفنية نثرا ، وفى موضوعات الشعر العربى المعروفة نظما ، والمعانى والامكار هى ما يوحى به التراث الادبى المشاع بين العرب كلهم ، لانه الرصيد الذى ينفق منه الجميع ، فلا عنصر جديد فى الشكل ولا فى المضمون ، وان كان هناك من ميزة تسجل لادب هذا العهد فهى انه ادب متين الاسلوب قوى التعبير ، برىء من التكلف ، بعيد عن الضعف الذى يشيع فى عهود الانحطاط ، لان العهد وان كان كذلك بالقياس الى النهضة الحديثة ، فهو فى الثقافة العربية لم يكن متخلفا ولا قاصرا . ولكن هذا الادب بكل اعتقار لا يعدو ان يكون صفحة متممة لتاريخ الادب المغربى القديم .

ولناخذ باب الرسالة ، سلطانية او اخوانية ، فانا نجدها لا تخرج عن الطريقة المألوفة فى التزام السجع وتضمين الامثال السائرة ، والاقول الماثورة ، واعتماد المجاز والاستعارة والكتاية فى اداء المعنى المراد فضلا عن ارتكاب وجوه التحسين اللفظى المتعددة التى تدخل فى نطاق الصنافية البديعية . اما المقامة فهى هى . من عهد الحريرى الى اليازجى ، انما يراد منها اظهار البراعة الادبية والتمكن من ناحية اللغة ، لذلك فان

اسلوبها المعهود يعد من عناصر تصميمها ، والتحوير الذى ادخله عليها المويلحى من كتاب مصر فى هذا العهد ، فى كتابه حديث عيسى ابن هشام ، لم نر من اقتفى اثره فى الشرق العربى ولا فى المغرب .

ولا نقول فى الخطبة شيئا لانها كانت متصورة على الخطابة الدينية وسبيلها معروف وكذا التأليف بطريقة الكتابة الفنية فانه بقى ينهج الفتح ابن خاتان فى تلاتده والعماد الاصفهائى فى خريدته وما الى ذلك المنحى ، فى غير فسولة ولا ضعف ومن غير تطور ولا تحرر ايضا .

والنتيجة التى نخلص بها انه لم تكن هناك اية محاولة للخروج بالنشر عن دائرة الموضوعات التقليدية فيما عدا بعض البوادر الملمع اليها فى الاصلاح الدينى والسياسى ، وان طرق التعبير المتبعة هى الطرق المتعارفة قديما وخاصة فى الانتاج الادبى البحت .

ولعل هذا الحكم لا يكون تاما الا بايراد بعض النماذج لهذا الانتاج ولو فى بعض الابواب ، لنرى كيف سار فن الكتابة على الوتيرة التى ذكرنا ، ولئلا يخلو الكلام على هذا العهد من اعطاء صورة للنثر توضع فى مكانها من الاطار الجامع لادب المغرب .

فمن رسالة ادبية لمحمد الفاطمى الصقلى (ت 1311) يعرض بشعراء وقته : (انه لما رخص الشعر ، بعد ان كان غالى السعر ، ودخل الكساد سوقه . تعاطاه بعد ذهاب اعيان ملوكه سوقه ، فمنهم قاطع فى سبيله وسارق ، ومنهم مدع انه فرد ، وهو لعمرى منه مارق ، ومنهم من يؤلف بين المفردات فقط ، ومنهم من على تدبيح الالفاظ سقط ، وكل هؤلاء لم تحل لهم عرائس المعنى ، بمقنى ، ومن دون هؤلاء يأدق تطاول الفرازين ، يكونها تحسن الموازين ، بيد انها على غير القسطاس ، وآخرون غاية مقدورهم تسويد القسطاس ، ومن هذه الفرقة شعبة تتمسّدق ، وتدين بثلب الاعراض وتترنّدق ، والكل اخطات أسسه الحفرة ، ولم يجد محزا للشفرة) .

ومنها فى وصف روض : (بروض طوق جيده بالنهر ، ورصع بساطه بالزهر ، واختالت اشجاره ، وانهارت انهاره ، وتفتح سوسنه وشقيقه ،

وتطلع من خد الورد عقيقه ، وغض النرجس من الحياء طرفه ، ومد المنثور
اصابعها اذ فتحت النسرين كفه ، وابتسم ثغر اقحوانه ، وانصت الريحان
بآذانه ، وابدى الجلنار صبغ أرجوانه ، والبنفسج احد سنانه ، والخابور
ارخى عنانه ، والياسمين ترمى بالدراهم على الروابي ، والبطاح مفروشة
من ديباج الربيع بزرابي ، والغمام يدير الراح ، والحمام تثير الافراح ،
والنسيم لاعطاف الفصوص ثانی . والاطيار تنقر وتغنى على العود فتزرى
بريات المثاني ، وبه منتزه يفوق الخورنق والسدير والزاهي ، والابلق وتصر
الرصافة والباهي ، والثمانيني والبدیع والايوان . تكاد أبراجه تزامم كيوان ،
لولا ان بانيه امسك العنان ، لطاول راسه العنان) .

ومن مقامة لعبد السلام المحب (ت 1323) ، حكى الضحاك بن
بشير قال ضمننتي يد الرفقة والعشرة ، مع اصحاب نفاس كالنجوم عشرة ،
بلوت شجرهم مرا وحلوا ، وخطبت صحبتهم فوجدتها من الموانع خلوا ،
رضعوا من الادب الاخلاق والانواق ، وفطموا عن ضرعها الخلاف بالوناق ،
طالما حنكتهم التجارب رغبة ورهبة ، وساقتهم الايام فرقة وغربة ، حتى
الفهم الاسنمة والفوارب ، واختصمت فيهم المشارق والمغارب ، وصارت
جميع البلاد لهم اوطانا ، والمنازل كلها اعطانا ، وكان لى فيهم صاحب
هو واسطة عقودهم ، وحنة عنقودهم ، امتزجت روحى بروحه امتزاجا ،
واعتدل طبعى بطبعه مزاجا ، اخلص كلانا لصاحبه جهره وسره ، ووثقنا
بخير موطننا فلم يتق شرى ولم اتق شره ، وحينما القينا عصا الترحال بنفاس ،
وتخلصت الرحال بوضع ثقلها من معرة النفاس ، اصبحت الطرق بالقطاع
شاغرة ، وعوادي الفساد لافواه الفتن ماغرة ، وامست السهول وهى
وعرة ، واعثرت الخيول بعرة ، واستنشرت بفاث الطير ، وانتشرت بفاة
الضير ، وذلك بشغب شيطان زعم انه من الملائكة ، واشداقه لحنظل الباطل
لائكة ، فاعوزتنا السيوف ففرعنا للاقلام ، وارهننا بصحائف الكلام صفائح
الكلام ، لماذا نحن جمعنا ، لاقراص الاوراق رجعنا ، واذا نظما ، نظمنا نظما ،
وترانا نثرى ، اذا نثرنا نثرا) .

ومن كتاب لمواصل الجمان فى انباء وزراء وكتاب الزمان لمحمد فريط
(1364) وهو وان تاخر هذه حرى ان بعد من انباء هذا الجيل - يصف

الحالة الاجتماعية في المغرب قبيل اعلان الحماية : « وحسنت الاحوال ، بعد زوال تلك الاهوال ، فالوى الناس الى خضراء الدمن ، ومكثوا في هدنة على دخن وأمن من تقلبات الزمن . . . وذهب بعضهم في اللهو والبطالة كل مذهب ، وركب في ميدان خلاعته الكميث والاصهب ، وتواخوا على الفحشاء وبس ذلك الاخاء ، وسخوا ولكن فيما يحرم فيه السخاء ، وربما افسد النفوس الرخاء ، وصاروا في يوم الجمعة كما كان اهل الاندلس يوم السبت ، يفعلون فعائل اصحاب الطاغوت والجبت ، من الروز الى خارج المدينة باطعمة واشربة وزينة ، ورفع الاصوات بالمواليات والازجال ، واختلاط النساء بالرجال منعطرات مقبرجات ، كأنهن بكل ناظر متزوجات ، وشكاية غرام ، واستقضاء مرام ، ومعاطاة الكؤوس على المقابر ، كأنها اعيد لهم عصر الجاهلية الغابر ، وغير ذلك مما لم تحمد عواقبه ، وناحت به على حق المروءة والانسانية نواديه ، وعمت مصائبه ونوائبه ، كأنها ابيع لكل منهم فعل ما يحبه ويهواه ، وارضاء نفسه باسقاط من خلقه وسواه ، ولا ناهى عن معصية الله ولا أمر بتقواه . ولم يزل اولئك الشباب ، يلجون من الشهوات كل باب ، الى ان بلغت المهلة مداها ، فنبهتهم صيحة طبق المعمور صداها) .

ان هذه الامثلة فيما نظن كافية لتصديق الحكم الذى قدمنا على النشر في عهدنا هذا من كونه يجرى على الاسلوب القديم وانه مع ذلك متين الحوك مما يدل على ازدهار الثقافة العربية . على أنه من وجهة النظر العامة يعطينا فكرة عن الحالة النفسية التى كان الشعب يعاني من اضطرابها ما يعاني نظرا لعدم استقرار الامن وانتشار الفساد فالصقلى اول من يبدأ في تصنيف الشعراء المزيغين يشبههم بقطاع الطريق والسراق . والمحب في مقامته يذكر كيف تعدد هو ورفقته عن الاسفار مع ولوعهم بها لكون السبل أصبحت مخوفة ، وغريبط يندد بتدهور المجتمع وينذر عاقبة السوء لماذا قلنا ان هذه القطع النثرية تمثل واقع المغرب ولو من بعض النواحي لم تكن مبعدين .

واما عن الشعر في هذا المهد فانه كان اغزر مادة واقوى انتشارا وذلك لان هذا الجيل من الادباء كان ينظر اليه نظرة خاصة ويعتبره الدليل

العملى على صحة دعوى الادب . فمن لم يمارسه كان مزجى البضاعة
الادبية ، وربما كان مشكوكا فى ادبه بالجملة ، ولهذا كثر الشعراء حتى
راينا الاديب الصقلى يزرى عليهم ويسخر من تطفلهم على مائدة الشعر
ولكن فى زحمة هذه الكثرة من الشعراء المدعين كان يوجد شعراء مجيدون
لهم بصر بصناعة النظم وتصرف فى المعانى الشعرية واقدام على القول فى
جل ابواب الشعر المعروفة ، ول بعضهم ديباجة رقيقة تذكرنا بديباجة الشعر
الاندلسى الرقيق .

سوكما قلنا فى النشر انه لم يخل من نظرة الى احوال العصر ولو من بعض
الجوانب نقول فى الشعر انه كذلك لم يغفل عن تمثيل الاحداث الكبرى
والتعرض لمجريات الاحوال ، وان كان على طريقة الاقدمين التى لم يحد
الادب عنها فى هذا العهد نثرا كان او شعرا .

فمن تسجيلاته الاولى لحادث احتلال الجزائر قول الوزير محمد بن
ادريس (ت 1264) يحض المواطنين على النفير للجهاد :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم	الى الجهاد فما فى الحق من غلط
فالشرك من جنابات الشرق جاوركم	من بعد ما سام اهل الدين بالشطط
فلا يفرنكم من لين جانبه	ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عن دركه فكرة الشبان والشطط
فوانح المكر تبدو من خوائمه	فعنده المكر والمكروه فى نمط
وانتم القصد لا تبقن فى دعة	ان السكون الى الاعداء من السقط
(من جاور الشر لا يعدم بوائقه	كيف الحياة مع الحيات فى سبط)
قد يغبط الحر فى عز يخلده	وليس حى على ذل بهفبط

فهذه الابيات البليغة فى مبنائها ومعناها تبرز عمق الشعور بالفاجعة
عند الشاعر ، وتصور مكائد السياسة الاستعمارية التى وهو وزير يلامى
منها الشدائد ، وان خرج ذلك كله مخرج العداوة الدينية والحرب الصليبية
لانهم كذلك كانوا ينظرون الى التوسع الاستعمارى الاوروبى فى القرن
التاسع عشر .

ولهذا الشاعر قصيدة طويلة قالها لما سقطت تلمسان في يد فرنسا
وهي على غزار القصائد التي كانت تقال عند سقوط مدن الاندلس في
البكاء على المعاهد والديار وتحويل المساجد الى كنائس وهتك الحرم
وسفك الدماء ونكسة الدين اولها :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب اشراكه مستعبدا بكيده للعباد

ويقول فيها :

واسطة المغرب تد حازها حوى الجزائر ووهرائها
مصائب صبت على معشر يكاد يقضى المرء من حرها
اخوانكم دينا وجيرانكم ساموهم هونا وازروا بهم
وطمعوا فيكم فكونوا يدا والامر جد والبلا في ازدياد
وراع حاضرا بذاك وباد يبكي من الاشفاق منها الجهاد
على حشاه وتذوب الصلاد اضحوا رعايا الشرك بين اعداد
في الدين حتى ركنوا لارتداد فان ثاقلتم فانتهم مراد

وكان لهذه النكبة المروعة صدى مماثل عند غير ابن ادريس من
الشعراء ، فلا نطيل بنقل اقوالهم .

وسجل الشعر كذلك وقعة تطوان بلسان اديبها المفضل ابيسال
(ت 1304) في قصيدة مشهورة .

يقول في اولها :

يا دهر قتل لي علامه كسرت جمع السلامه
نصبت له للسدواهي ولم تخف من ملامه
خففت قدر مقام للرفع كان علامه
ملكته لاعباد ليست تساوي قلامه
فالدين يبكي بدمع يحكيه صوب الغمامه

على مساجد اصبحت تباع فيها المدامه

والملاحظة الوحيدة على هذا الشعر هي انه في غمرة الحزن وهول المصائب لم ينس الفكت البديعية والمحسنات اللفظية ، لانها كانت من المقاصد البلاغية لاصحابه ، حتى صارت من وسائل التعبير عند بعضهم ، اما الضرب على وتر الدين فانه يمثل وجهة نظرهم الى انطلاقة الاستعمار الاوربي في القرن الماضي التي لم يكونوا يرون فيها الا استمرارا للحروب المليبية ، وهي وجهة نظر لم تكن بعيدة عن الصواب ، الم يقل الجنرال كورو لما دخل دمشق بعد الحرب العالمية الاولى وهو واقف على قبر صلاح الدين ! نحن هنا ؟ وكذلك اللورد للنبي الم يقل حين دخل القدس اثناء الحرب المذكورة : الان انتهت الحرب الصليبية ؟ ان ادباضا ليسوا بأقل غيرة دينية من هؤلاء الضباط الكبار الذين يمثلون أعرق الأمم حضارة في القرن العشرين ، ولذلك فان هذا الشعور الديني أمام الاكتساح الاوربي كان يلزمهم حتى اننا نجد شاعرا مثل محمد المشرقي (ت 1334) يقول في مطلع رجزية مؤثرة يبكي بها المغرب عند قيام الحماية :

دع عنك داعي السرور والمزاح واسلك سبيل من بكى الدينوناح

يبكى الدين وهو يبكي المغرب :

وكذلك يقول طاهر الايفراني (ت 1374) حين توالى ارهاصات الحماية داعيا الى نصره الدين باعلان الجهاد في سبيل الله من قصيدة :

لقد انشعب الكثر المداهن نابه	ومد الى سرح الهدى كف مقصد
وكاد بانواع المكائد اهله	لمصار ينادي خامري وتبلدى
اسر احتشاء في ارتقاء وماله	سوى الدين من مرمى يرام ومقصد
وقد بلغ السيل الزبي بظهوره	وان لم يداو العر بالكي يزدد
لقد طبق الصحراء بالنحس ثلوه	واعدى نواحي التل بالخبت الردى
وجاس على هاذى السواحل كلها	ببحر سلين بالقوارب مزيد
ولخص به الدين الحلينى لماكنى	لما يشتكى من بئه ثوب مكبد
شجاء الاسى من لقد حر يمه	لكاك فماه من يد المتسرد

يقود اليه كل اصيد قارم
يجاهد في الله العظيم عدوه
يشب لظى الهيجا بقلب مشيع
واطراق ثعبان وكيد ثعالة
ويختال ما بين الصفوف كأنه
على كل طرف سابح ومطهم
ببيض سيوف او بسمر مدافع
يلعب اطراف الرماح كأنه
يخال مجال الحرب وجه صحيفة
فينقط مدافع ويشكل صارم

لحم العدا مخشوشن متمعد
باقدام لبت في الكريهة محرد
وكف بصير بالطمان معود
وتصميم فهد في الجراءة فرهد
عروس تهادي بين خود وخرد
توى القرى عبل كصرح ممرود
مزلزلة ان يبرق السيف ترعد
صبي مع الولدان بالجوز مستد
تسطرها خيل اللقا بالنطود
ويكتب رمح الخط خط مجود

وقد تجاوزنا من القصيدة محل الشاهد قصد تقديم هذه الصورة
البارعة التي صور بها الشاعر الحرب ، ويزداد اعجابنا اذا علمنا انه من
بادية سوس في صميم بلاد البربر .

وفي موضوعات الشعر الاخرى كان لشعراء هذا العهد جولات موفقة
تدل على براعتهم الادبية وحسن تفننهم في ضروب القول . فمن ذلك نرى
النسيب قول الوزير محمد بن احمد كنسوس (ت 1294) :

اذا عن تذكاري الاحبة احيائي
حنينا الى القوم الذين تغيوا
احن اليهم والمدامع وكف
منازل لا انفك ارنو لشطرها
يذكرنيها البرق يهفو كأنه
وان صدح الورق السواجع هيجت
وان صامحت ايدى النواسم بانها
سقى الله مصطافى هناك ومربى
فيا حبذا تلك العرامس واهلها
نحبي لها ما زال يزداد جدة
خليلي ان الحب ليس بهين
وما هو الا لوعة عز برؤها

وان كنت اتضى منه في بعض احيان
خمائل اثل في اجارع نعلان
وفي طي احشائي توتد نيران
بالحافظ مقروح الجوانح ولهان
على تلعات الحى ارواغ ثعبان
الى ساكن البطحاء وجدى واثجاني
فواها لهاتيك النواسم والبان
بكل سكوب اوطف الحزن هتان
وعيش تضيئه كهبة وسنان
على ما عراه من تقادم ازمان
فكيف هداك الله في الحب تلحاني
اذا استحكت يوما بمهجة انسان

لها كان عراف اليمامة شافيا لجنة مجنون وغلسة غيلان

وقول الكاتب ادريس بن محمد العمروى (ت 1296) :

ونار هوى المحبوب فى القلب لا تطفى	علامة اضرار المحبة لا تخفى
يكر على صبرى فيهزمه زحفا	وجيش الصبايات المروع للحشا
ودمع مأتى العين قد ساجل الوطفا	وكيف اوارى الحب او اكتم الهوى
فهل ترتجى مما عرا بكم كشفا	عريب النقا ماذا لقينا من الضنى
تجدد للصب المصاب بكم لهفا	اذا باكرت من بطن نعمان نسمة
انار باحشائى لذكراكم وجفا	وان لمع البرق اليمانى موهنا
ورقوا لتهيامى فقد جاوز الوصفا	بحق هواكم بالفؤاد ترفقوا
وان انتم لم تسمحوا فابعثوا الطيفا	اذا لم يكن وصل فوعد بزورة
فما نام طرفى بعدكم لا ولا اغنى	على انكم مذ غبنم هجر الكرى

ففى هاتين القطعتين نرى فنا رائعا وصناعة مستحكمة ونحس عاطفة مشبوبة وذوقا مهذبا ، مما يحملنا على القول بان صاحبيهما ممن له الرسوخ فى الادب العربى ، واليد الطولى فى نظم الشعر ، على اساليب القدماء من كبار الشعراء ولذلك فان اية قطعة منهما ، يصح ان نوضع بجانب المختار من شعر النسيب ، فى اى ديوان عرس ، ولا تكون متخلفة عما فيه .

ومن شعرهم فى الوصف قول ادريس السنانى (ت 1319) فى روص :

سيان فيه الزهر والزليج	روض يروق الناظرين بهيج
يحيى النفوس بحسنه وبهيج	فكلاهما فى بهجة وتنوع
وافاك دون الباب منه اريج	ان جلته تبغى انتشاق اريجه
شبه اللجين يديرها الصهريج	قد عريت اشجاره بمدامة
فى شدوها التفريع والتفريع	والطير تشدو فى الفصون بنفمة
والفصن غص والخليج يموج	نلنا به عند الصباح مسرة
ما يعم الحرم الشريف حجيج	ابقاه ريسى زاهرا فى لخرة

وهذه الابيات مما تلوح عليه آثار المغربية ، فان لفظ الزليج من
الاضاع التى لا تستعمل الا فى المغرب ، وكذلك الصهريج فى الغالب ،
وهى من الشعر الرائق الذى يطابق الوصف فيه الموصوف حسنا وجمالا

ولمحمد الفاطمى الصقلى فى وصف خطيب متفاح :

خطيب فى ترقيه خطوب	به الدنيا محياها قطوب
يذكر باقلا من عى نطق	ترض به المسامع والقلوب
يروم محسنات من بديع	وما حسناته الا ذنوب
يظن بانه يهدى بوعظ	نعم يهذى فتجتمع الكروب

وهو وصف بليغ لهذا الصنف من الخطباء الذين ابتليت بهم الامة
فى عهود التأخر ولا تكاد تخلو منهم مدينة أو قرية حتى وقتنا هذا . وينفى
ان يتبته الى ما فى قوله « يروم محسنات من بدائع » من طغيان الزخارف
اللفظية واعتبارها مقياس البلاغة حتى عند الخطباء الذين فقدوا التأثير
بحرارة ايمانهم وقوة شخصيتهم فطلبوه بزور القول وسخف الكلام . وعليه
فلا غرو ان راينا ادباء هذا العهد يعنون العناية التامة بصناعة البديع
ويبتلون بفنونها الجميلة ، فيرصمون بها كلامهم ويجعلونها له كالحلية
الغالية للحسنة الغانية . وذلك كما فى ابيات الصقلى نفسها ، التى تمت
بمضمونها على السخرية وبشكلها على الاعجاب :

ولعل فيما ذكرناه من الامثلة كفاية ، وان بقى موضوع المدح والثناء
وغيرهما . ولكن تتبع ذلك يطول والمقصود اعطاء نظرة عن الشعر فى جملته
لا فى تفصيله ، وهى حاصلة بما ذكرناه .

فجر النهضة

لم يكن ما طرأ من تطورات على الحالة العامة في العهد الماضي الا تبشير بفجر النهضة الذي انبثق منذ العقد الثاني من هذا القرن ، فأنبار السبيل أمام العاملين في مختلف الميادين . ومما لا شك فيه أن حادث الحماية قد رج المغرب رجة نبهت الغافل ، وايقظت النائم ، ولكن سر الحوادث كما عرضنا له ، يدل على أن البلاد كانت تتلمس طريقها الى النهوض ، وإن نخبة واعية من شباب الأمة كانت تأخذ اهبتها لتسلم مقاليد الامور ، كي تدعم كيان الدولة وتحقق الإصلاح المنشود ، وما ظلم السلطان عبد العزيز والمطالبة بالدستور الا مظهران من مظاهر الانبعاث واليقظة التي سبقت الحماية ، وكانت حرية أن تجنب المغرب ويلاتها ، لولا أن كلمة الدول الاستعمارية اصفقت عليه وقررت من مصرعه .

واذن فنحن بازاء عوامل مختلفة لانبثاق فجر النهضة ليست الحماية الا واحدا منها ان لم نقل انها كانت باعثا على تعزيزها وانتشارها . وهذه العوامل هي :

اولا - التعليم الحديث . وقد رأينا أن المغرب بذل جهدا غير قليل في سد حاجة الدولة من المتعلمين في العهد الماضي ، بارسال البعثات العديدة الى بلاد أوربا وتوظيفها في المصالح الحكومية المختلفة ، بعد عودتها وانتماء تحصيلها . وهذه البعثات وإن لم يكن لها أثر في التعليم العمومي الا أن تأثيرها في توجيه الانظار الى التعليم الحديث وضرورة تزويد البلاد به ، كان كافيا لقيام نهضة تعليمية حقيقية . فاهتم الناس بتعليم ابنائهم تعليما حديثا بادخالهم الى المدارس الاجنبية ، وارسالهم الى كليات أوربا والشرق العربي . واهتمت الدولة كذلك بتأسيس المدارس العصرية ، ولكن سلطات

الحماية كانت تضع العراقيل في هذا السبيل ، فلا تسمح الا بقليل منها ناهيك بأنه الى انقضاء عهد الحماية لم يكن في المغرب الا ثلاث ثانويات حكومية ، ولم يكن في مجموع مدارس الحكومة اكثر من خمسين ألف تلميذ وهذا الى فرنسة التعليم التي فرضها المديرون الفرنسيون لمرضا ، سواء في المدارس الابتدائية او الثانوية . لذلك عول الشعب على نفسه ، وقام بإنشاء عدد عديد من المدارس الحرة ، لاستيعاب أكثر ما يمكن من التلاميذ الذين لا يجدون مقاعد في المدارس الحكومية ، ولمقاومة الفرنسية المفروضة في تعليم ابنائه . واما التعليم العالي فلم يكن اليه من سبيل الا في الخارج ، باستثناء التعليم الديني الذي تقوم عليه جامعة القرويين . وكم كان يلاقي الطلبة من صعوبات في الحصول على جواز السفر الى الخارج وفي التوصل بالنقود التي تلزم لنفقتهم ، ومع ذلك فقد كانت المهمة التي تحدى بالمواطنين الى النظم ورفع راية العلم ، تتغلب على جميع تلك الصعوبات .

ثانيا - الاصلاح الديني المتبلور في الدعوة الى السلفية . فقد كان من رد فعل السيطرة الاستعمارية وظهور امر الاجانب ، ان العلماء قاموا يذكرون الشعور الديني في العامة ، ويندبونهم الى الجهاد ويحضونهم على التمسك بالكتاب والسنة ، وهجر البدع والاهواء التي انحرفت بالامة عن سبل المؤمنين ، وهدى السلف الصالح . وفرقت كلمتهم وجعلتهم طرائق قددا . وقد ارتفعت هذه الدعوة ، من منابر الخطباء ، وحلقات المدرسين ، وكتب فيها الكتاب وحاضر المحاضرون وكان الذي يتزعمها بجدارة ويضئ عليها الصفة العلمية الخلقة بالقبول ، هو الشيخ ابو شعيب الدكالي (ت 1356) ذلك العالم المصلح الذي قيصه الله للمغرب في هذه الفترة ، فجدد سفد العلم ، واقام للسلفية منارا عاليا بما اوتى من التبحر في علوم الكتاب والسنة ، وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الاقناع ، فضلا عن خبرته باحوال العالم الاسلامي التي اكتسبها في جولاته بالشرق ، وكان يلي وزارة العدل فزاده الجاه هبة في النفوس ، ونائرا على الخاص والعام . ووجدت هذه الدعوة قبولا لدى الشباب المتعلم ، فنصرها ، وتطور امرها عنده الى الوقوف في وجه اصحاب الطرق الصوفية ولا سيما المزيغون منهم . ونشأت معركة عنيفة بين الطرفين

كانت تجد لها متنفسا في صحافة تونس والجزائر ، اذ كانت الصحافة بالمغرب قليلة وغير مكفولة الحرية . وفوق ذلك كانت السلطات الاستعمارية تعضد الطرقيين وتحارب الشباب وفئة الاصلاح . واستشرى الخلاف حتى انقسمت البلاد الى معسكرين ، معسكر الطرقيين ، ويرمى الشباب بالمروق من الدين ومعاداة اهل الخير والصلاح . ومعسكر الشباب ، ويتهم الطرقيين بممالة الاستعمار واستغلال الدين لبلوغ المآرب الشخصية . وهذه الحركة خلقت نشاطا فكريا عظيما الا انها تجاوزت الحد ، فلذلك لما قدم الامير شكيب ارسلان رحمه الله الى المغرب في زيارة خاصة سنة 1930 وكان يحظى بتقدير عظيم في جميع الاوساط المغربية ، الح على الشباب العامل في ايقافها او سلوك سبيل الاعتدال فيها ، والاهتمام بما هو اوجب منها من المطالب السياسية والحقوق الوطنية . وبين ان الطرق الصوفية ليست كلها على ضلال وان بعضها يقدم خدمات عظيمة للاسلام في افريقية السوداء ، كما سجل ذلك بعد في تعاليقه على كتاب حاضر العالم الاسلامي .

ثالثا - النهضة الشرقية التي بلغت في هذا التاريخ الى طور النضج والانتاج ولا سيما في مصر ، وكانت آثارها ما بين علمية وادبية وفنية ، في الكتب والمجلات والصحف تصل الى المغرب فتتلقفها الابدى بتلف عظيم . ومنها آثار الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا واستاذهما السيد جمال الدين الافغانى ، في العلم والاصلاح والمنفعة عن الاسلام . وآثار الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى والاستاذ محمد فريد وجدى والعلامة محمد كرد على والمؤرخ جورجى زيدان في الادب والاجتماع . وآثار الشعراء شوقى وحافظ والزهاوى والرصافى في الشعر الجديد وغيرهم من اعلام الفكر والسياسة كمصطفى كامل وسعد زغلول وتلك الطبقة . انها كانت مدرسة نخرج فيها الجيل الاول من رجال العلم والادب والوطنية الصحيحة الذين بثوا افكارهم في النثر الجديد ومهدوا السبيل للنهضة المغربية العتيدة فكانوا صلة الوصل بين الماضى الغابر والحاضر الزاهر . ومن طريق هذه المدرسة عرف المغرب اتجاهات الفكر الحديث في الفلسفة والادب واطلع على تاريخ الحضارة وتقدم العلوم في اوربا ، فانها كانت تخاطبه بلغته ، وفي الوقت نفسه تقدم اليه احسن آثار المفكرين

والادباء الغربيين مترجمة الى العربية ، فيطلع منها على ما لم يتح له الاطلاع عليه لانصاف المثقفين باللغة الفرنسية ، الذين كان الاستعمار يحرص على ان يجعل منهم موظفين صفارا وحسب . وفي دنيا الفنون كان للقناء الشرقي ولا سيما الحان الاناشيد الوطنية المدرسية اثر عميق في الاوساط الموسيقية وزارت البلاد بعض الفرق التمثيلية من مصر وتونس ، فتعرف المغرب منها على فن المسرح ، ونشط شباب هذا الجيل في محاكاة ما عرضته من القطع المختارة . وكان ذلك سبب نشوء المسرح في المغرب وبالجملة فان تاثير النهضة الشرقية على تطور الحياة الفكرية بالمغرب كان عظيما جدا .

رابعا — وقتل كل شيء وبعده ، الحماية ومقدماتها ونتائجها التي كانت حائزا لجميع طبقات الشعب على المقاومة بحد السلاح في المدن والقبائل ففى فاس بمجرد اعلان النبا المشؤوم اندلع لهيب الثورة ، التي عرضت المدينة لهجوم جيش العدو وقذفها بالقنابل حتى استسلمت . وتبع ذلك وقوع حروب شديدة بين جيش الاحتلال والقبائل المغربية ، في الاطلس المتوسط والاطلس الكبير وتافيلالت والشاوية والناحية الجبلية في الشمال والريف . واستمرت المقاومة في بعض هذه الجهات الى سنة 1936 وكانت الحرب الريفية ضد اسبانيا اولا ثم فرنسا ثانيا بقيادة البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي . اعظم حروب المقاومة للحماية . واشتهرت وقائعها في الداخل والخارج . ومنها واقعة انوال التي سحق فيها المجاهدون الريفيون جيشا اسبانيا يتكون من عشرين الف مقاتل . ولما رأى الفرنسيون ان خطر هذه الحرب . يهدد منطقة نفوذهم . وانسه يوشك ان يطيح بالحماية اصلا ، فرنسية واسبانية هبوا لمساعدة الاسبان وتكالبت قوات الدولتين على بطل الريف العظيم فاضطر الى التسليم سنة 1926 ان المقاومة المسلحة تكون الى جانب العوامل المتقدمة عاملا قويا في النهضة . ولئن كانت تلك العوامل سببا مباشرا في البعث الادبي . فان هذه نسبت بواسطة تنمية الوعي القومي في مضاعفة الجهود العاملة لذلك البعث . ومن ثم قلنا ان الحماية ، والمقاومة انما نشأت عنها ، لعلها ان تكون من البواعث على تعزيز عوامل النهضة وانتشارها اكثر من ان تكون عاملا بذاته

ويستطيع الباحث أن يضيف عوامل أخرى إلى هذه كالمحاولة الأولى التي جرت لإصلاح القرويين ، وذلك في ميدان التعليم . واتساع حركة العمران وما أدى إليها من التجهيزات الضرورية كوسائل المواصلات الحديثة ، وهذا في ميدان التطور الحضاري ، والاختلاط بالاجانب الذين انتشروا في اطراف البلاد ، انتشار الجراد ، وكان له اثره البالغ في الميدان الاجتماعي . إلى غير ذلك من الأسباب الجزئية والكلية التي أثرت في الحالة العامة للمغرب ، ولكننا نعتبرها داخلة فيما ذكرناه من العوامل الأساسية ومندرجة تحتها ، لا سيما وبعضها قد كان له اثر سيء في فساد الاخلاق وتدهور المجتمع . وهو هذا الأخير ، فذكره انما يكون لتسجيل ظاهرة من ظواهر التأخر لا التقدم .

وإذا نظرنا في النتائج الأولى لهذه العوامل ، وما كان لها في الحياة الفكرية من اثر عاجل ، نجد ان تحولاً فكرياً عظيماً ظهر في الاعمال العلمية والادبية التي انجزت في هذه الفترة . فبينما كانت المحافظة هي طابع العهد الماضي اذا بالتبار التحري يسرى إلى الافكار والمنشآت ، ويصبح هو القاعدة المحكّمة . فالعلماء صاروا يعولون على البحث والنظر أكثر مما يعولون على الحفظ والرواية ، والادباء يحرصون على التجديد والابتكار ويتخففون من التقليد والاتباع وأصبح الاتجاه العام لدى الجميع ، هو مسابرة ركب التقدم ، والتكيف بروح العصر ، عكس ما كان عليه الحال قبل من عزلة عن العالم وبعد ما يجد فيه . والحقيقة ان الانقلاب الذي حصل ، نتيجة للعوامل السابقة ، كان من السرعة بحيث يكاد يعد من الطفرة ، وهو امر يدل على ما يمتاز به الشعب المغربي من قابلية للتطور واستعداد للنهوض . وقد شهد بذلك حتى الاجانب ، ففي التقرير السري الذي رفعه المارشال ليوطي إلى الحكومة الفرنسية سنة 1920 يقول « اننا وجدنا هنا دولة ووجدنا شعباً . وإذا كانت الدولة المغربية قد مرت بأزمة فانها أزمة حديثة وحكومية أكثر منها اجتماعية . ان جمهرة الشعب المغربي ليست مصابة بالخمول الذي يوصف به المسلمون في الشرق ، بل هي بالعكس نشيطة عاملة متلهفة على طلب العلم ، مستعدة للتجديد اننا لسنا امام سكان مغربين همجيين ، بل نحن امام شعب يمتاز عن بقية شعوب الشمال الافريقي بالاستعداد للتطور وبرد الفعل السريع الذي

يكلف ثمننا غالبا لاي تصرف غير حكيم يرتكب ضده « ولعل في هذه الفقرات ما يغنى عن القول بان المغرب شق طريقه بنفسه الى النمو والازدهار وان كانت الحماية تقف في وجهه حجر عثرة ، وذلك لما اوتى من ذكاء خارق ، وطرح نادر ، يحفزانه الى مواصلة الكفاح من اجل اثبات وجوده وابرار شخصيته .

ولقد كان الشعار الذي عمل تحته في هذا الطور كل المخلصين ، هو العلم ، لانه اعتبر سفينة النجاة . فكنت لا تسمع ولا تقرا الا ما يركز فكرة العلم ، وانه الوسيلة الوحيدة للانتقاذ ، والقي احد الفيز محاضرة جعل عنوانها (العلم والا الموت) فاصبح هذا العنوان على كل لسان ، وصار هو الكلمة المعبرة عن ارادة الشعب .

وتام العلماء بدورهم في المعركة ضد الجهل ، وفي تنوير الراى العام . فكان الشيخ ابو شعيب الدكالى ، كما معنا اليه ، رائد الجماعة التى حاربت الخرافات والبدع والشعوذة والتدجيل ، واحيت السنة واعلت منارها وارتفعت بالمفهوم الدينى عن المستوى العامى والمثبولوجى الى الحقائق الثابتة والقيم المثلى . وسار على اثره في ذلك تلميذه الفقيه محمد ابن العربى العلوى الذى حظى باعجاب الشباب ، لمشاركته في الحركة الوطنية وتحمله نصيبه من الاذى في سبيل ذلك . وكان للاستاذة الكبار محمد السائح (ت 1367) ومحمد الحجوى (ت 1376) والمدنى ابن الحسنى (ت 1378) يد طولى في نشر علوم الفقه والحديث والتفسير والعربية والادب ، في دروس جامعية من المستوى الرفيع ، الى جانب غيرهم من عشرات المشايخ ، الاساتذة في القرويين والمعاهد الدينية الاخرى في مختلف انحاء المغرب ، الذين لم يفتأوا قياما على اداء هذه الرسالة المقدسة ، رسالة العلم والثقافة الاسلامية العربية وقد كان عمل هؤلاء العلماء مفيدا جدا في تصحيح الفكرة الدينية لدى العموم ، وتكميل النقص الذى بدا في حركة التعليم الحديث ، من حيث خلوه من دروس العربية والدين . وبذلك تلاقى المثقفون الجدد ومشيخة العلماء على صعيد العمل الموحد للنهضة العلمية في البلاد .

وكما تطورت أساليب العلماء في التدريس تطورت أساليبهم في الكتابة والبحث . فتناولوا شتى الموضوعات بروح علمية عالية ، وأخرجوا الدراسات المنوعة المستوفية من حيث الفكرة والمنهاج للشروط المطلوبة ، فنشر محمد الحجوى كتابه القيم الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى . ونشر محمد السائح أول كتاب للمنتخبات الأدبية يشتمل على تراجم لادباء مغاربة وأندلسيين ونماذج من إنتاجهم ، وذلك للاستعمال المدرسى . كما نشر محمد أقصى (ت 1364) أول كتاب مدرسى لتعليم القراءة والكتابة على الطريقة الحديثة . وفى خصوص المباحث التاريخية كتب محمد بوجندار (ت 1345) تأليف محررة مثل شالة وآثارها ومقدمة الفتح لتاريخ رباط الفتح . وكتب النقيب عبد الرحمن بن زيدان (ت 1365) تاريخ مدينة مكناس فى عدة مجلدات نشر منها خمسة وكذلك نشر العباس بن إبراهيم (ت 1378) خمسة مجلدات من تاريخه لمدينة مراكش . ونشر عبد الحى الكنانى (ت 1383) كتاب فهرس الفهارس فى مجلدين وكتاب الترايب الإدارية كذلك . ونشر أحمد الرهونى (ت 1371) كتاب تقريب الانص من تاريخ الاستقصا واللؤلؤ الحبيب من كتاب نفع الطيب وكتبا أخرى تعليمية ، وله كتاب عمدة الراوين فى تاريخ تطاوين فى مجلدات إلا أنه لم ينشر ونشر محمد المرير كتاب الاحاث السامية فى تاريخ المحاكم الإسلامية فى مجلدين ونشر عبد الحفيظ الفاسى كتاب المدهش المطرب فيمن لقيهم من شيوخ المغرب . ونشر أحمد الرجراجى كتاب الشموس المنيرة فى اخبار مدينة الصويرة وهو جزء لطيف فى اعمال أخرى لغیر هؤلاء العلماء لا نقل عن هذه وزنا وقيمة .

والواقع أننا اذا اعتبرنا دلالة اعمال العلماء من الناحية العلمية الصرف ، حكمنا بأن العهد عهد نهضة متكاملة لا لجر نهضة فقط كما يقضى عنوان الحديث . ولكننا نستطيع ان نؤكد ان هؤلاء النواصخ كانوا ممن سبقوا زمانهم بكثير فجاءت اعمالهم على قدر همتهم لا على قدر زمنهم . ولا ادل على ذلك من انهم لم يخللوا مثلهم الا فى القليل .

ولم تحظ الحركة الادبية بعبارة يتخطون بها مراحل التطور ، فسارت فى طريقها الطيمى ولكنها مع ذلك قطعت شوطا بعيدا نحو

النمو والازدهار ، ونزعت نزوعا بينا الى التجديد والابتكار . والظاهرة الاولى التى تلفت نظر الباحث ، هى تحلل الكتاب من قيود النثر الفنى الذى كان اسلوبهم المفضل للتعبير فى كل موطن ، من الرسالة الاخوانية الى تأليف الكتب . بل كان دليل التفوق عندهم وعلو الكعب فى صناعة الكتابة . فبعد ان كنت لا تعثر على اثر نثرى كتب بطريق الترسل الا نادرا . صرت لا تجد من يكتب بطريق السجع الا فئة قليلة بقيت محتفظة به كما يحتفظ بأحد الآثار الجميلة . وهى الى الجيل الماضى اقرب منها الى هذا الجيل . ومن خصوص افرادها محمد غريط الذى نقلنا نموذجا من نثره فى الحديث السابق . ومحمد بن موسى الذى هو البقية الباقية من اعلام هذا الفن .

وليس العجب ممن احتفظ باسلوبه من هؤلاء ، بل العجب ممن انقلب فى فترة قصيرة كهذه من كاتب راسخ القدم فى التسجيع ، الى كاتب بارع فى الترسيل . ونعطى مثالا على ذلك أحمد بن المواز (ت 1341) فان من يقرأ كتابته فى الرسائل السلطانية والاغراض الاخرى فى العهد الماضى ثم يقرأ كتابه حجة المنذرين الذى وضعه فى هذا العهد ، يجد البون شاسعا بين الاسلوبين ، اسلوب الالتزام البديعى واسلوب النثر الحر المتدفق تدفق ينبوع الثرى . فضلا عن ذلك فانه يجد فى هذا الكتاب تنوعا فى الموضوعات التى طرقتها يتجاوز حدود ما كان الكتاب قبله يعنون به . ويجد كذلك تعمقا فى تناول هذه الموضوعات ، وخاصة منها موضوع سياسة الحكومة بعيد مرض الحماية ، مما يقرب من الكتابة السياسية التى ظهرت فى الصحافة الوطنية بعد ذلك . وكان اكثر ما يهدف اليه من هذه الكتابة التوجيه والارشاد ، وربما قصد الى الانتقاد فأفرغ ذلك فى شكل مذكرات عن احاديث جرت بينه وبين احد رجال الحكومة ، او موافق لبعض ابطال التاريخ ، معززا ذلك بالنصوص التشريعية من القانون الدولى وغيره ، فالرجل كان شخصية ادبية وسياسية هذة : وقد تولى المناصب العالية فى العهد الماضى وكان هو الذى حرر البيعة الحفيظية التى قيدت السلطان الجديد عن التصرف المطلق فى مقدرات الدولة .

ومن هذا يظهر ان التطور الذى اصاب النثر لم يقتصر على الشكل

بل أصاب المضمون أيضا . فقد أقدم الكتاب على طرق الموضوعات الاجتماعية والادبية والفلسفية والسياسية . وحلت المقالة في ذلك محل الرسالة وظهرت الخطابة الاجتماعية والسياسية بعد أن كانت الخطبة دينية فقط . وظهرت كذلك المحاضرات العلمية والادبية ونشطت نشاطا ملحوظا . وهذا الى تجديد اسلوب التأليف الذي اشرنا اليه آنفا .

ولعل تصديق هذه الاحكام انما يتم بايراد الشواهد عليها . فلنقدم بعض النماذج لكل ما ذكرناه من ضروب النثر التى نشأت في عهدنا هذا .

من ذلك في النثر العلمى ما كتبه محمد الحجوى في فصل الفقه قبل الاسلام من كتابة الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى . قال « اعلم أن الاسلام وجد الامة العربية امية لا تقرا ولا تكتب ، ولم يكن لديها علوم مدونة في الكتب ، تدرسها في مساجد او مدارس . وان وجد لديهم معرفة بعلوم تدعو اليها ضرورة حياتهم البدوية كعلم النجوم والقيافة والعيانة والاتساب وغير ذلك مما نسب المؤرخون لهم معرفته وحفظ بعض قواعده . ومن هذه الانواع ما كان لهم من الالمام ببعض ضوابط فقهية يفصلون بها خصوماتهم كقولهم في القصاص القتل انفى للقتل ، والدية على العاقلة في الخطا ، وكما يؤثر عن عمرو بن العاص احد حكام العرب قوله في الخنثى القضاء يتبع المبال ، وفي النسائى وغيره ان القسامة كانت في الجاهلية وقضى فيها بين اناس من الانصار ادعوه (اى القتل) على يهود خيبر ومن ذلك معرفتهم بعض مناسك الحج . وكانوا يصومون عاشوراء كما في الصحيح ، بل كانوا يتحنثون في رمضان بالصوم كما يدل عليه حديث بدء الوحي وقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » وقد ثبت اغتسالهم من الجنابة واختنائهم . وكان لهم نكاح بخطبة وصداق كما يدل له خطبة ابي طالب لخديجة زوج النبى (ص) وهى مذكورة في السير محفوظة فلا نطيل بها . ولهم طلاق وظهار ، فقد ثبت في النسائى وغيره أن خولة زوج اوس بن الصامت اتت النبى (ص) فقالت ان زوجى ظاهر منى فامرها بفراقه فلما نزل قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكى الى الله » الآية نسخ الطلاق بالكفارة تخفيفا من الله ورحمة . ويظهر ان تلك الاحكام كانت عند العرب من بقايا شريعة اسماعيل وولده ابراهيم عليهما السلام ، فلما جاء الاسلام اقر ما اقر

ونسخ ما نسخ . ومن جملة ما نسخه القرآن نذر الجاهلية لغير الله المبين في قوله تعالى في الانعام : « وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افترء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء » وقال تعالى : « ومن الانعام حمولة وغرثا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان الى قوله ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا » وقال في سورة المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » فهذه الايات بينت نظام الانتاج في الحرث والانعام الذي كان عند مشركى العرب ، جعلوا نصيبا منه لاوثانهم يأخذونه سدنتها ، ونصيبا للفتراء . وما هو للاوثان اقسام ثلاثة الاول حجر لا يطعمه الا من يشامون الثانى انعام حرمت ظهورها والثالث انعام لا يذكرون اسم الله عليها وهى السائبة والبحيرة والوصيلة والحامى . فالغى الشرع ذلك وقرر نصاب الزكاة فقال وآتوا حقه يوم حصاده . وقرعهم بقوله ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا الآية .

فهذا مثال ما كان عند العرب من الفقه ، وهو ضوابط قليلة الاهمية ليست كافية في بابها ولا رادعة لاهل الفساد والدعارة ولا وافية بالنظام الاجتماعى لهذا بقيت الامة العربية متفرقة الاهواء ، فاقدة النظام ، تخوض بحار الحروب لقتل نفس بل لضربة او سبة . فتقطع السبل وتذهب الحقوق وتقطع المواصلات والمعاملات ، الا في الاشهر الحرم فكانوا في جاهلية جهلاء يفتخرون في اشعارهم لدى منتدياتهم ، بقطع السبل وقتل النفس وسلب الحقوق وغير ذلك من الامعال الشنيعة ، وانما وازعهم الذى امكنهم من الحياة وبقاء الجنس العربى هو العصية القومية ، فمن كانت له عصبية في قومه دافع بها عن حقوقه ، والا حالف قوما آخرين فكان تحت ذمتهم يدافعون عنه على اصول معلومة عندهم ، حتى ان الحليف كان يرث حليفه ، الى ان جاء الاسلام فعند ذلك عرفت الحقوق بمعرفة الفقه وصار لها المقام الاول في الاعتبار ، والركن الاعظم في الازهان ، ونسخ حكم التحالف بوجوب التناصف .

ففى هذا النص دراسة منهجية لموضوع الفقه قبل الاسلام محيطة به من جميع جوانبه ، تدل على ما كان لعلماء هذا العهد من بعد نظر وسعة اطلاع . وهو الى ذلك نموذج من النثر العلمى قوى الاسلوب واضح الدلالة خالى من التكلف والفضول . ونكتفى به فى هذا الباب فاكثر نثر هذه الطبقة من هذا الطراز .

ومن النثر المسجوع ، وقد صار لندرته كالشامة فى وجه الحسناء ، ما كتب به محمد بن موسى عن الخليفة السلطاني مولاى الحسن بن المهدي وكان يلى وزارته ، تقرظا لمؤلف اهدى اليه « انسان عين الفضل والنجابة ، ولسان صدق الاحسان والاصابة ، الفقيه العلامة الاديب السيد فلان ، وصل الله حبلك بأعنة الصواب ، وايد فضلك بطرائف الحكمة وفصل الخطاب ، تلقينا من طرفتك الضاربة فى الابداع بسهم مصيب ، والآخذة فى طول الباع بالفرض ومن قوة العارضة بالتعصيب ، متحفا بعثت به آثار ملوك المغرب وامرانه من مراقدها ، وجمعت فى آفاقه من نتفهم الادبية بين اوانسها وشواردها ، فكان لك الفضل فى احياء هذا الضرب من الادب العربى بعد اندراسه ، والترويح عليه بصدق العزيمة حتى تحرك بعد خمود انفاسه ، ولا غرو فقد ناسبت براعتك بين رؤسه ومناكبه وناسقت بين درره الثمينة وكواكبه ، وشارفت به اندية الادب فى طراوة افئاسه وبهجة مواكبه .

كالنفوادي اظهرن كل جنى مستقر فى زهرات الرياض

شكر الله سعيك المبرور ، وخذ عملك غرة فى جبين الدهور ، والسلام عليك ورحمة الله .

ان الملاحظ يرى فى هذا المثال ملكة راسخة تنصرف فى الكلام كما تشاء ، حتى ان السجع لمطاوعته للكاتب يدخل فى صميم الفكرة التى تعبر عنها الفقرة او الفقرات . ويرى صور المعانى كما تعرض الماثورات القديمة ، تسجل احداثا جديدة ، فبجانب الصورة المنتزعة من علم الفرائض ، صورة متحف الآثار الذى هو من منشآت الحضارة العصرية ، وبذلك يكون التجديد شمل حتى هذا الفن الذى اصبح بعد من الآثار القديمة .

نفى هذا النص دراسة منهجية لموضوع الفقه قبل الاسلام محيطة به من جميع جوانبه ، تدل على ما كان لعلماء هذا العهد من بعد نظر وسعة اطلاع . وهو الى ذلك نموذج من النثر العلمى قوى الاسلوب واضح الدلالة خالى من التكلف والفضول . ونكتفى به فى هذا الباب فاكثر نشر هذه الطبقة من هذا الطراز .

ومن النثر المسجوع ، وقد صار لندرته كالشامة فى وجه الحسناء ، ما كتب به محمد بن موسى عن الخليفة السلطانى مولاى الحسن بن المهدي وكان يلى وزارته ، تقریظا لمؤلف اهدى اليه « انسان عين الفضل والنجابة ، ولسان صدق الاحسان والاصابة ، الفقيه العلامة الاديب السيد فلان ، وصل الله حبلك بأعنة الصواب ، وايد فضلك بطرائف الحكمة وفصل الخطاب ، تلقينا من طرفتك الضاربة فى الابداع بسهم مصيب ، والآخذة فى طول الباع بالفرض ومن قوة العارضة بالتعصيب ، متحفا بعثت به آثار ملوك المغرب وامرائه من مراقدها ، وجمعت فى آفاقه من نتفهم الادبية بين اوانسها وشواردها ، فكان لك الفضل فى احياء هذا الضرب من الادب العربى بعد اندراسه ، والترويح عليه بصدق العزيمة حتى تحرك بعد خمود انفاسه ، ولا غرو فقد ناسبت براعتك بين رؤسه ومناكبهِ وناستت بين درره الثمينة وكواكبهِ ، وشارفت به اندیسة الادب فى طراوة افئانه وبهجة مواكبهِ .

كالفوادي اظهرن كل جنى مستر فى زهرات الرياض

شكر الله سعيك المبرور ، وخذ عملك غرة فى جبين الدهور ، والسلام عليك ورحمة الله .

ان الملاحظ يرى فى هذا المثال ملكة راسخة تتصرف فى الكلام كما تشاء ، حتى ان السجع لمطاوعنه للكاتب يدخل فى صميم الفكرة التى تعبر عنها الفقرة او الفقرات . ويرى صور المعانى كما تعرض الماثورات القديمة ، تسجل احداثا جديدة ، فبجانب الصورة المنزعجة من علم الفرائض ، صورة متحف الآثار الذى هو من منشآت الحضارة العصرية ، وبذلك يكون التجديد شمل حتى هذا الفن اصبح بعد من الآثار القديمة .

ومن الكتابة السياسية ما جاء في حجة المذيرين لابن المواز ، متعلقا بموضوع امتناع الحكام عن مشاركة الرعية في اسباب المعاش : « ومن الاساسات التي اتفقت عليها حكماء السياسة ان من لوازم السلطان ونوابه في حفظ المملكة ، ان لا يشاركوا الرعية في تجارة ولا فلاح ولا غيرها من التكسب لما في ذلك من الآفات التي تفضي الى الخراب ، لقوله (ص) ايها وال اتجر في رعيته فقد هلك رعيته . وكان لعمر بن عبد العزيز سفينة يكتريها لحمل الطعام ويبيعه بالمدينة ، فلما اخبره محمد بن كعب القرظي بهذا الحديث ابطل ذلك وتصدق بذلك الطعام قال علماء السياسة الشرعية ، ان المتولى اذا زاحم الرعية في التكسب لا بد ان تحصل امور ، منها المضايقة لهم مع ما هم مطلوبون بادائه ، ومنها انه يؤثر نفسه باغراضه في ذلك ، ومنها انتزاع الشيء منهم بتمن يسر ، ، ومنها الزام الرعية بشراء مبيعاته بالغلاء ثم يبيعها المشترون بخوصة فيخسرون ، الى ان قالوا وهذا كله يعود على جباية الرعية بالتلاشي ، لانه اذا تعد التاجر وتلاشى الفلاح اضمحلت الرعية وذهبت الثروة جملة . فجاحت الجباية ، وفي الحديث تهلك هذه الامة بالحرص كما هلك من قبلها بالطمع . وجناب مولانا المنصور بالله اول من يعرف بهذه الارشادات واكثر اهتماما بالمحافظة على تواعد الامدادات والحمد لله » .

ومنه في سبيل النصح للسلطان والدفاع عن حرية الامة المغربية ، « ومن واجبات الجلالة السلطانية امان النظر في كتب الفوائين الدولية ، وتواريخ المعاهدات ومنشأ التضمينات الحربية ، التي كان اول من اخترعها نابليون الاول ، والامور التي كانت ترتكب في الحروب قديما زمان التوحش ، وما تقرر به قانون الدول الناصح لذلك بعد تقرر المدنية فكل ذلك مما نجب معرفته على من استرعاه الله ، ليعرف المقاصد المواقفة والمباينة فمن ذلك ما انصح عنه كتاب حقوق الدول في القسم الثاني منه ، وملخصه انه منذ تقرر قانون التحكيم لم يبق موجب للحرب . قال وكذلك لم يبق وجه للقاعدة الظالمة وهي كون القوة تتقدم على الحق . ثم قال وبذلك تأمن ارواح البشر والاموال من التبدد ، وانما كان يرتكب ذلك في زمان الوحشية . وقال ايضا في مادة (390) ان الاهالي الذين لم يدخلوا حربا لا يجوز سوء المعاملات والتعدييات عليهم لانه من حيث ان امنية الاهالي وحريتهم الذاتية واغراضهم

وناموسهم معدودة من الحقوق الشخصية فلا يمكن ان تختل او تنقص رعايتها ولو بسبب الحرب . وصرح ايضا في مادة (369) بأنه لا تجوز محاربة اقوام عائشين في العالم لسبب توسعة دائرة تقدمهم ومع اجتنابهم الاضرار بغيرهم وقال ايضا ، ان المنقلب في مملكة بوجه الثورة لا تعتبر معه معاهدة ولا معاملة الا بعد ايام الاعتراف به من الدول واتفاق الامم . وكذلك صرح في مادة (441) بأن قانون الجنود اذا استولوا بالقوة على قوم واحتاجوا للمؤن فلا يحمل على الاهالى الا ما يطبقونه ، ومن اللازم ان يكون ذلك بالاعتدال . ونص على ان القوة يجب ان تكون على نسبة المستولى عليهم ، ولا يرتكب فيها مالا يطاق من الدواهي الماحقة والا غمى من خوارق القانون . فهذه القرارات التى سجلها قانون المدنية والانسانية توجب الوقوف مع حفظ حقوق الاهالى ولو بعد الحرب . وعليه فالمحميون فقط يكونون احق بما نكرم من كمال الرعاية ، واولى بمراتب في جميع ذلك ، حتى لا يغشاهم من النوائب فيهب ذلك » .

ولا يخفى ما في هذين النموذجين من افكار سياسية صائبة ، ونوجيهات صحيحة في الحكم والادارة — الى ما يتضمنانه من نقد للوضع القائم بعد الحماية وتعريض بتصرفات المسؤولين ، مما يدل على يقظة فكرية عظيمة وغير وطنية كبيرة . والمهم هو الاسلوب الذى اديت به هذه الافكار ، فهو اثبه بأسلوب الصحافة السياسية التى يكون وكدها وضوح الفكرة وقوة الحجة ، لا تنميق الالفاظ وزخرفة الكلام ، والعجيب ان يكون هذا اسلوب كاتب تعود منذ نشأ على تحبير الرسائل والمنشورات بطريقة النشر الفنى المتقل الحوائى بالمحسنات والبديع . ولكننا نعرف ان ذلك احد مظاهر التطور الذى طرا على الحركة الادبية في هذه الفترة من الزمن ، وان ابن المواز صاحب هذين النموذجين من اصدق امثلة ذلك التطور .

ومن المقالات في الشؤون الاجتماعية وغيرها ما كتبه محمد السليماني (ت 1344) في موضوع التبذير والاسراف ، « علمتنا الشريعة السمحاء طرق الاقتصاد وهدانا الكتاب العزيز والسنة النبوية اليه ، وبرهنت اقوال السلف الصالح عليه ، وذلك ان الاقتصاد مركب من بذل وامسك ، بحيث لا يبسط المرء يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا ، بل يقيم البنية بحسب وفره ، على قدر غناه

وناموسهم معدودة من الحقوق الشخصية فلا يمكن أن تختل أو تنقص رعايتها ولو بسبب الحرب . وصرح ايضا في مادة (369) بأنه لا تجوز محاربة اقوام عائشين في العالم لسبب توسعة دائرة تقدمهم ومع اجتنابهم الاضرار بغيرهم وقال ايضا ، ان المتغلب في مملكة بوجه الثورة لا تعتبر معه معاهدة ولا معاملة الا بعد ايام الاعتراف به من الدول واتفاق الامم . وكذلك صرح في مادة (441) بأن قانون الجنود اذا استولوا بالقوة على قوم واحتاجوا للمؤن فلا يحمل على الاهالى الا ما يطبقونه ، ومن اللازم ان يكون ذلك بالاعتدال . ونص على ان القوة يجب ان تكون على نسبة المستولى عليهم ، ولا يرتكب فيها مالا يطاق من الدواهي الماحقة والا فهي من خوارق القانون . فهذه القرارات التى سجلها قانون المدنية والانسانية توجب الوتوف مع حفظ حقوق الاهالى ولو بعد الحرب . وعليه فالمحميون فقط يكونون احق بما نكرم من كمال الرعاية ، واولى بمراتب في جميع ذلك ، حتى لا يفشاهم من النوائب غيب ذلك » .

ولا يخفى ما في هذين النموذجين من افكار سياسية صائبة ، وتوجيهات صحيحة في الحكم والادارة — الى ما يتضمنانه من نقد للوضع القائم بعد الحماية وتعريض بتصرفات المسؤولين ، مما يدل على يقظة فكرية عظيمة وغيرة وطنية كبيرة . والمهم هو الاسلوب الذى ادبت به هذه الافكار ، فهو اشبه بأسلوب الصحافة السياسية التى يكون وكدها وضوح الفكرة وقوة الحجة ، لا تنميق الالفاظ وزخرفة الكلام ، والعجيب ان يكون هذا اسلوب كاتب تعود منذ نشأ على تحبير الرسائل والمنشورات بطريقة النثر الفنى المقتل الحواشى بالمحسنات والبديع . ولكننا نعرف ان ذلك احد مظاهر التطور الذى طرا على الحركة الادبية في هذه الفترة من الزمن ، وان ابن المواز صاحب هذين النموذجين من اصدق امثلة ذلك التطور .

ومن المقالات في الشؤون الاجتماعية وغيرها ما كتبه محمد السليماني (ت 1344) في موضوع التبذير والاسراف ، « علمتنا الشريعة السمحاء طرق الاقتصاد وهدانا الكتاب العزيز والسنة النبوية اليه ، وبرهنت اقوال السلف الصالح عليه ، وذلك ان الاقتصاد مركب من بذل وامسك ، بحيث لا يبسط المرء يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا ، بل يقيم البنية بحسب وفره ، على قدر غناه

ومعمره ، مع حفظ حصة من كسبه يعدها للعوارض الغير المنتظرة ، فاذا جمع الانسان بين الامساك عما لا يلزمه والبذل فيما هو احوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد المدوح على لسان صاحب الرسالة العامة (ص) بقوله الاقتصاد نصف المعيشة وبيانها ان المعيشة تقوم بامرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته ، فمن حصل على المال فقد حاز احد الامرين ، فان لم يحز الامر الآخر وهو حسن التدبير فقد نصف معيشته .

وبما ان الانسان ولوع بالتنوع في مقتنياته ، لا يقف عند حد في تنفيذ شهواته ، صار يظن ان التنوع في الاحتياجات البشرية من ضروريات الحياة . فمهما توفر لديه الكفاف من الغذاء واللباس طمحت نفسه لتنوع الماكل واقتناء ما لا يحتاج اليه من الملابس وغيرها . وقد قيل من اشترى ما لا يحتاج اليه اضطر لبيع ما يتوقف عليه ثم اذا نالت نفسه متمناها ترفت الى عمارة المسكن وتنميقه باحسن الرياش وما يتبعه من مظاهر البذخ والابهة وبذلك تتصل مقتنياته في تتابعها وتعددتها وتصبح سلسلة متصلة الحلقات مع انه لا يستفيد منها الا بقدر احتياجه . نعم لا ننكر ان الرجل حر في ماله يفعل فيه ما يشاء وينفق منه كما يريد ، لكن ينبغي ان يكون ذلك بما يناسب حاله لان المناسبة بين الثروة والنفقة اصل من اصول الاقتصاد الذي هو وصف كل عاقل يتأسف كلما رأى الامة على ما هي عليه من القلة وتعذر اسباب نمو الثروة ، ومع ذلك فقد فتحت على نفسها بابا من الفقر تلجه باختيارها وارادتها بدون قاهر ولا قاسر ، وهو باب التبذير والاكثار من لوازم الرفاهية وضروب الزينة وما يكسبها الظهور الكاذب بلا نفع ولا طائل .

يرى مرتكبوا الاسراف والتفنن في الانفاق ان سيرتهم تجعلهم من ذوى النعمة واليسار ، والعزة والفخر اعتمادا على انها سنة الامم المتقدمة والشعوب المثرية ، مع انها بالنسبة لحالة البلاد داعية الفقر . ومجلبة الشر فان الامم المتقدمة وان انفقت الاموال الكثيرة في تشييد القصور ، وتنميق الابنية والدور ، واقتناء فاخر الاثاث وبديع الرياش ، فان ذلك على نسبة مخصوصة من ايراداتهم الحائزين لها بالكد والاجتهاد ، وانقائهم اسباب المكاسب العديدة ، والمصنوعات المفيدة التي تكسب صاحبها في

اقرب وقت ثروة واسعة . على ان هؤلاء المتمدنين نراهم يجيزون الانفاق من راس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها ، ومع ذلك فان نفقاتهم لا تتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم . اما نحن فقد ركبنا متن الشطط وحملنا انفسنا مالا نطبق . يصرف الواحد منا في كل يوم اضعاف مخوله في زوائد الشهوات وفضول المتاع . ما ذاك الا لاننا راينا ابواب الانفاق مفتحة فولجناها قبل ان نجد عقلا يقدر لنا ما يلزم منها وما لا يلزم ، وطلبنا التملى بها بدون ان نجوز ما يوصلنا اليها من انفسنا ، وليتنا قبل ان نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والتنميق المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاث شيدينا في عقولنا الافكار وزينا انفسنا بالفضائل من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين ، واسسنا الشركات التجارية والصناعية التي يعم نفعها الوطن ويستفيد منها اهله . فلو قدمنا هذه الزينة الجوهريّة على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر الينا نظر المعظم المبجل ولكانت معيشتنا البسيطة اوقع في نفسه من المعيشة الرفيعة التي لا تناسب ضعف حالنا بوجه من الوجوه «

ومنها مقالة في الرياضة البدنية لمحمد الاوراي (ت 1350) . « الرياضة البدنية فن من فنون التربية وحفظ الصحة ، وقد عنى بها قدماء اليونانيين وعدوها قسما من اقسام التربية الاولى ، فجعلوا الموسيقى لترويح النفوس وتهذيبها والنحو لاصلاح اللسنة وتقويمها ، والرياضة لتنمية الاجسام وحفظ صحتها ، وكانوا يعنونون بأمر الرياضة اكثر من غيرها فشيدوا لها الاماكن الضخمة واتخذوا كل وسيلة لتعميم مبادئها بين الناس ، حتى يكثر الاقبال عليها والاهتمام بشأنها . والغاية الوحيدة التي كانت تبعثهم على ذلك هي حفظ صحة الجسم وتنمية قواه الحسية والمعنوية .

لم لما سقطت دولتا اليونان والرومان وانطوت ايامهما على ما كان لهما من مجد وعلم ، تقلص في جملة ذلك فن الرياضة ، وانزوى في ثوب الاغفال والاهمال الى ان جاءت دولة العرب فاحيته مع ما احيت من علوم القدماء ولما جاء دور الحضارة العصرية وبزغ نجم العلم بأفق اوريا كان لهذا الفن رواج كبير وانتشار رائد تأسست بسببه الجمعيات والمنتديات

الخاصة به في سائر الاماكن والجهات .

اما نحن معشر المغاربة فقد اهلنا الرياضة البدنية بكل اسف اهمالا كليا حتى انك تجد الواحد منا في عنفوان شبابه ومستقبل عمره ، وهو يشتكى من ضعف قوته وخور همته وقلة نشاطه وتكرر جو صحته ، كانه في طور الشيخوخة والهرم . والسبب الوحيد في ذلك هو ترك الرياضة البدنية . . . وتجد الواحد منا اذا سار يوما لضرورة ما مسافة بعيدة في الجملة على رجليه ، بات ليلته ينن مما لحقه من التعب ويقلب على فرائس الالم ، كانه سار من شرق الارض لغربها وقطعها من شمالها لجنوبها ، ولا موجب لذلك سوى ترك الرياضة البدنية .

مدننا صغيرة المساحة متقاربة الاطراف ، ويخرج الواحد منا من منزله الى متجره او مصنعه او مكتبه ، فلا يقطع بينهما مسافة كبيرة تكون له فيها بعض الرياضة بل ينتقل من سكن الى سكن ويظل مقيدا في محل اشغاله بقيود الاعمال فاذا كانت اشغاله داعية الى القيام والقعود والنزول والصعود فان ذلك ربما يقوم في الجملة مقام الرياضة ، واذا كانت بخلاف ذلك تقتضى سكونا وقلة حركة فان ذلك مما يضر بجسم المرء وصحته لان ترك الرياضة البدنية يؤثر في سير الدورة الدموية ويعوق الهضم ويجعل الانسان في ضعف زائد وخمول دائم . ولذلك ترانا دائما كسالى نقوم من النوم كسالى ونرجع كسالى ، كائننا مصابون بمرض مزمن ولا علة الا ترك الرياضة البدنية .

ان الجسم البشري اشبه بسيارة بخارية واعضائه بمنزلة آلاتها ، ولا شك انه اذا مضت عليها ايام فضلا عن اعوام بدون استخدامهما واستعمالها فانها تصدأ طبعا وتطرا عليها علة التعطل والفساد ، وكذلك اعضاء الجسم اذا طال سكونها ولم يستعمل كل واحد منها في وظيفته ، فانه يلحق الجسم اعتلال واختلال على نسبة اهمية ذلك العضو من مجموع هيكل الانسان . ومعلوم ان لكل عضو رياضة تخصه فاذا فقدتها فقد صحته الطبيعية : وللقارئ ان ياخذ مثلا لذلك حالة اسنان اهل الحواضر والبوادي فان هؤلاء تدوم لهم اسنانهم واضراسهم صحيحة قوية ، وان

طعنوا في السن واشتعلت رؤوسهم شيبا . وأولئك تتاكل أسنانهم وتتساقط
أضراسهم في شبابهم وأول كهولتهم ، وما ذلك الا لان اهل البوادي يأكلون
خبز الشعير والذرة وغيرها من المأكولات الجاسية مفتشرون بذلك
أضراسهم ولا يصيبها التلف . واهل الحواضر حين مالوا الى الترفه والنعيم
اخثاروا من المأكولات البنها والطفها تفقدت أضراسهم بذلك الرياضة
الواجبة وأسرعتم اليها الآفات .

فلنعتن بالرياضة البدنية على العموم وليخصص كل واحد منا لنفسه
يوما وقتا معلوما يقوم فيه بنوع من الرياضة لجسمه ، فان ذلك مما يفيد
افادة محسوسة في حفظ صحته وتجديد قواه .

ان هذين المثالين كافيان فيما نظن لاعطاء فكرة عن المقالة التي كان
يلاذها من مظاهر التطور الذي طرأ على النثر في هذا العهد . وهو تطور
يشمل الشكل والمضمون معا ، بالنسبة اليها خاصة . ففي الشكل نجد
الكاتب لم يبق معنيا برصف العبارات وتكرير الجمل بل وجه عنايته الى اداء
المعنى وبلوغ القصد من غير لف ولا دوران ، فالعنوان يحدد الموضوع
ويمنع الاستطراد ، والادلة منتزعة من صميم الواقع لا من نسج الخيال .
وبلاغة الفصل والوصل لا تتحكم في سياق الكلام فقد صار من المؤلف
الوقوف عند عدة مقاطع واستئناف الحديث بان او غيرها مما يجيء في
ابتداء القول تنشيطا للقارئ وهذا الى استعمال بعض التراكيب القلقة
التي شاعت في انشاء المحدثين كتركيب (العوارض الغير منتظرة) وتركيب
(فقد أهملنا الرياضة بكل اسف) بله الالفاظ والمصطلحات الجديدة كدور
الحضارة العصرية والدورة الدموية وغير ذلك . وفي المضمون لا يخفى ان
موضوع المقالة الاولى وهو التبذير والاسراف موضوع قديم ، ولكن الطريقة
التي تناوله بها الكاتب فيها كثير من التجديد نشأ عن تطور الافكار واختلاف
وجهة النظر عما كان عليه الحال قبل ، في تناول مثل هذه الموضوعات
الاجتماعية . فهو لم يسلك الطريقة الخطابية ويجعلها أساسا لزم التبذير
والاسراف ، وان ابتدا كلامه بالاستشهاد بالشرعية والكتاب والسنة ،
ولكنه ركز موضوعه على بيان فوائد الاقتصاد في النفقة ومضار الاسراف
ومقارنة حال الامة بأحوال المتدنيين واطهار الفرق العظيم بينها وبينهم في

عظيم ثروتهم وحرصهم على الاقتصاد ، بعكس ما هي عليه من الاتلال والتبذير . ثم زيف رأى الذين يظنون ان العظمة والمجد في التظاهر بالثروة والانغماس في الترف ، وبين ان العظمة الحقيقية في الجد والعمل والتمسك بالفضائل وخدمة الوطن بما يعود نفعه على العموم . هذا هو الجديد في الموضوع وهو الذى يناسب ما كانت تنخبط فيه الامة عهدئذ من مشاكل اجتماعية ولا تهتدى الى التفصى منها طريقا .

اما موضوع المقالة الثانية وهو الرياضة البدنية فهو موضوع جديد بلحمته وسداه ، ولا شك انه يمس واقع الامة من ناحية أخرى وهي الناحية التربوية وان كان انما الم بذلك الماهما ظاهريا لضعف مادته ولكنه على كل حال يشهد بما قلناه من تطور النثر في ضمن المقالة .

وكان بودنا ان نعرض مقالات أخرى في موضوعات مختلفة ، الا أن ضيق المقام يمنعا من ذلك . ولكن نوعا آخر من انواع المقالة وهو المطعم بلقاح من الثقافة الحديثة لا بد لنا ان نعرض مثالا منه لتتمة الحديث عن نشأة المقالة في الادب المغربى ، لا سيما وقد كان هذا النوع عزيزا في هذا العهد لان جل المثقفين ثقافة حديثة انما تفتحت براعمهم في العهد الذى يليه . والمقالة التى نقدمها الآن هي من انشاء عبد القادر الوزانى ، وهو من الطلائع الاولى للكتاب المزدوجى الثقافة . وموضوعها الاقتصاد السياسى ، تعاريفه ، آراء العلماء فيه :

« قال الاستاذ سميث في كتاب ثروة الامم ان الاقتصاد السياسى باعتباره فرعا من علم يختص برجال الدول وارباب الاشتراع ، له فرضان، الاول ان يهىء للامة دخلا وافرا ويمهد لها طرقا واسعة للكسب والتحصيل الثانى ان يوفر للدولة والجماعة دخلا معيناً يكفى لتسديد نفقات مصالحها العامة ، فيكون غرضه حينئذ انماء ثروة كل من الحكومة والرعية معا . فالاستاذ سميث لا يعتبر الاقتصاد السياسى علما بالمعنى الذى يؤدى به مدلول هذه اللفظة بل انه يعده فرعا من السياسة كما يشف عنه قوله باعتباره فرعا من علم يختص برجال الدولة وارباب الاشتراع .

ويذهب غيره من علماء العصر الى ان الاقتصاد السياسى هو مجموعة

قواعد الادارة المالية في المملكة . وهذا الاستاذ روسيت سماه (علم الثروة) وقد اكثر العلماء الفرنسيون القول في المباحث الاقتصادية وبالاخص ما كان منها في الاقتصاد السياسى ، وعنوا بتدوين وجمع القواعد المتعلقة بالثروة العمومية ، وهو ما حدا بالبعض منهم اعنى الاستاذ باتيست ساى الى التفريق بين السياسة والاقتصاد السياسى قائلا ، ان السياسة علم ترتيب الجماعة البشرية ، والاقتصاد السياسى علم كيفية نحصيل الاموال اللازمة لحاجات الاجتماع وتوزيعها وانفاقها اذ ان الاموال مستقلة بجوهرها من مسألة نظام الاجتماع البشرى . ومن هنا يمكن القول ان الاقتصاد السياسى هو العلم الذى يبحث في منافع الجمعية البشرية ففى اية دولة عاشت الاقوام وتحت اى سماء تسكنت فهى تتعاملى اسباب المعيشة بحسب قواعد طبيعية ، الانفعال فيها مرتبطة بأسبابها ونتائجها . فهذا التسلسل الذى يتعلق بطبيعة الاشياء هو ما يرمى هذا العلم الى التعريف به .

هذه خلاصة اقوال الاستاذ باتيست ساى فيما انتهجه من التعريف بهذا العلم وابداء رايه فيه ، بيد انه اخذ عليه في ثلاث نقط من مادة هذا التعريف نلخصها بغاية الايجاز .

المادة الاولى — ان تعريفه غير مقرر كون احوال العمل والكسب بل والاخذ والعطاء ذات قواعد ثابتة مرتبطة بهذه الاشياء نفسها بل انها احوال قابلة للتغير بتغير هيئة الاجتماع وحالة الاقليم وعوامل الظروف . فالاقتصاد السياسى لا ينفك الا بمزيد الصعوبة عن علم نظام الجمعية البشرية وان المبادئ الاقتصادية التى يقررها علماء الاقتصاد هى في الاعم متعلقة بشؤوننا المدنية واحوالنا الاجتماعية .

المادة الثانية — ان هذا التعريف مبهم جدا وقاصر من جهة المنع فان الكسب والنحصيل والانفاق والتوزيع كلمات متشعبات المعانى كثيرات المناهى متفاوتات للفنون الصناعية والزراعية والعلمية . والاقتصاد السياسى لا تعلق له بوسائل الاكساب ووجوه النحصيل بل يبحث لى كيفية الحاصلات .

المادة الثالثة — ان التعريف المشار اليه لا يفرق بين الثروة الطبيعية

والثروة الصناعية والاجتماعية فان المواد الطبيعية التى يستمدّها الانسان وتفيضها الطبيعة على المجتمع البشرى ليست من غرض علم الاقتصاد السياسى لان موضوعه البحث فى الكمية لا فى مقادير النفع بل فى القدرة ودخولها تحت المبادلة التى هى وحدها موضوع هذا الفن لان العلم من حيث هو لا يبحث فى احتياجات الانسان بل فى نتيجة الاحتياجات التى يحكم الانسان بتعيينها ويندفع طالبا لها .

على أن هناك من رام تعريف العلم بأنه نتائج عمل الانسان . وعرفه الأستاذ كونديليّاك بأنه فلسفة التجارة او علم المبادلات ، فاحتذى البعض هذا التعريف ظانا انه يصير به علما مستقلا ، لكنه الفى غير واف بالمعنى تماما .

وخلاصة القول ان الاقتصاد السياسى لم يكن وضعها بل كان ولم يزل عبارة عن مجموعة معلومات اولدتها الخبرة ودل عليها التحقيق الفيلسفى ، ثم استنبط منها قواعد منطقية بالكسب والمبادلة فى التجارة والصناعة ، مع التعريف بحقائقها لاجل هداية الدول والرياسات اليها وتيسير حصولها عند ما تدعو الظروف اليها على ان كثيرا من هذه النتائج المستفادة من مادة علم الاقتصاد السياسى والمفيدة لرجال السياسة لا تكاد تفيد الفائدة المرجوة الا فى الوسط المتمدن او بين الشعوب الراقية كالشعوب الاوربية التى يجرى كل ما فيها من التعاليم والامور على اساس التنظيم والترتيب فى كل شئ كيما كانت حيثيته او مثانة ، حتى لكان هواء تلك الاماق تنظيم وترتيب وحتى لكانه اليها يشير ابو الطيب المتنبسى فى قوله :

اذا تهب الرياح النكب من بلد لها تهب بها الا بترتيب

وبما ان قواعد هذا العلم ادبية اكثر مما هى مادية فان من خصائصه عدم امكان الحصر لا فى شئ من تعاريفه او حدوده لانه من حيث تعلقه بكثير من الفنون اخصها علم النفس يطرا على موضوعاته من الامور مالا يمكن الرجوع اليها الى تقدير بقيمة او كمية الا حسب رغبة شخصية ومن البديهي أن هذه الرغبة حالة نفسية لا تدخل تحت حصر او تحديد كما

أن أكثر المعاملات يكون على الاغلب عائدا الى الثقة ، والثقة الى اعتقاد الشخص وهذه امور تختلف بحسب اختلاف الظروف خصوصا ما دار منها على الاشياء الكمالية التي تكاد تكون مدار التجارة العصرية .

ومع ما تقدم فان الاقتصاد السياسى يحتوى على اصول ومقاييس اجتماعية ومبادئ فلسفية ومناخ سياسية ، غير أن كيفية ربط هذه الفنون وترتيبها تحت دائرة تعريف مادة الاقتصاد السياسى مما لا يمكن جعل اصوله مطردة على وضع خاص ، وان يكن الفن من حيث هو دليلا عظيما على قوة مادة فكر الانسان فى التوليد والاختراع . ولا خلاف أن الجمعية البشرية قد جنت من ورائه فوائد جليلة ومبادئ مهمة وان الفضل الاكبر لتعاليمه فيها حله علماء العصر من مشاكل معضلة لم يكن لمن تقدمهم قبل حلها .

ولسنا فى حاجة الى المقارنة بين هذه المقالة واللتين قبلها فانها بمادتها الخصبة واسلوبها العلمى الذى تفرضه الترجمة لا قوال علماء الاقتصاد الاجانب ، قد تحدد فيها التعبير عما تضمنته من معان وافكار فلم يزد شيئا ولم ينقص عن المراد ، وهى فوق ذلك تدل على طواعية اللغة للكاتب الذى استطاع أن يؤدى حقائق الاقتصاد السياسى بهذه السهولة فى وقت مبكر جدا من الاطلاع على هذا العلم لا فى المغرب فقط بل فى العالم العربى اجمع وان كنا لا ننكر أن بعض النعابير خاصة فيما يتعلق بالترجمة غير دقيقة ، ولكن يكفى أن نعلم أن الوقت الذى نشرت فيه هذه المقالة وهو عام 1921 كان اول مجمع لغوى عربى — وهو مجمع دمشق — ما يزال فى طور التأسيس والمصطلحات العلمية والفنية ما يزال امرها فى غاية الاهمال ، فالكتاب الذين يطرقون موضوعا جديدا مثل هذا سواء فى المشرق أو المغرب انما كانوا يعتمدون على اجتهادهم فى ايجاد اللفظ المطابق للمعنى الجديد ، وقد يوفقون فى ذلك وقد يخطئهم التوفيق ، وفوق جهدك لا نلام .

ومن نماذج الخطب فى الشؤون الاجتماعية هذه الخطبة لمحمد السائح وقد القاها فى حفل مدرسى : « أبناء وطنى الكرام . ان المغرب اليوم غيره بالامس ، وان ما يرسم فى برنامج مستقبله لمومىء الى مرام بعيدة وان النظر فى العواقب ثمرة العقل ، وانه يتمثل امام عينى مستقبل ليست الحياة

فيه بالاماني التي هي احلام المنيقظ ، وانما هي بنتيجة واحدة قد اندرجت فيها كل المقدمات ، ومقصد واحد قد انطوت تحته كل الوسائل ، الا وهو العلم . فعلى كل فرد منا ان يجعل هذا نصب عينيه ، وان يبذل النفس والنفس في تغذية ابنائه بلبان العلم حتى يتميز جانبهم ويقووا على حفظ كيانهم ودينهم ولغتهم وجميع تراثهم . فالعلم يحرس الدين ويسهر على حياة اللغة ويصون المال والولد ، والولد اذا لم يشب على العلم لا يلبث ان ينفذ يده من تراث ابيه قبل ان ينفذها من ترابه . . . وقد انثالت علينا العلوم في هذا العصر بكل سبب ، وانسلت اليها من كل حذب ، وما كنا لنوليها انحرافا ولا لناخذها جزافا ، فعطينا بتقديم الاله منها فالاهم بسبب مقتضيات الظروف ، واستغنايات ما تبكر اثماره وتتبسم لاول الربيع ازهاره ، وليس من الراى ولا من الحزم الاشتغال بما تقل جدواه منها وبرك مالا نهتدى الى سبيل الحياة الا به .

وهنا نقطة يحق الالتفات اليها وهي ان كثيرا من الناس يرمون المغاربة بوصمة الجهل الذي لاداء ادوا منه ، وليت شعري لماذا ؟ فنحن اذا نظرنا بعين الانتقاد فيما لديهم من العلوم والمعارف تجلت امامنا امة ريا من الفقه والعربية والتاريخ والحساب وغير ذلك ، ولديها كفايتها من الصنائع والحرف المهمة . ولكن يعوزها شيء واحد وهو العناية بعلوم العصر من الطب والهندسة ومزاولة العلوم الصناعية والميكانيكية . ولا ارتاب في ان هذه العلوم قصيرة المدى قريبة المحيط من المركز بالنسبة الى علومهم الجمة التي تنقطع الاعناق دونها . فبمجرد ما نجعل لانفسنا سهما منها نصبح وقد شاركنا امم الارض في علومهم وفضلناهم بمعلوماتنا الاخرى . لا تقل ان هذا الامر يحتاج ويحتاج لان له طرقا تفضي اليه واسبابا تدنى منه وراى ان كل ما كانت له وسائل . فهو سهل التناول سيما وليس شيء من تلك العلوم بدخيل فينا ولا بأجنبى عنا ، بل هو والله من علوم آئنا الاولين طالما اشتغلت به افكارهم . ودونته اقلامهم ولكم كان في الاسلام ، من علماء اعلام برزوا في الجغرافية والفلك والطبيعات والهندسة وسائر العلوم الرياضية . ولقد اصلحوا واستدركوا على الاوائل من المخترعات ما استدركوا ثم قدموا علومهم الى العالم طعمة شهية ، فعنهم اخذ الافرنج ارقام الحساب وعلم الجبر والمقالة الذي هو من وضع العرب ، واخذوه

باسمه ومسيه . ولقد كانت لهم اليد الباسطة في علم الطب والصيدلة والكيمياء ، وعنهم اخذها الاوربيون وبرعوا في الجراحة حتى كان النساء بالاندلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية لامثالهن من الاناث املا نسترجع سالف مجدنا ، وآثار اجدادنا ، بهمتنا وجدنا ، واليكم معشر التلامذة يساق الحديث ، فانتم رجال المستقبل ، وعليكم نطق الامل ، فاجهدوا في تحصيل العلم ، واجعلوه اهم مطالبكم ، فان قيمة كل امرىء ما يحسن ، وان كل عز لم يؤبد بعلم ، فالى الدل يصير .

وهذه خطبة سياسية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الثورة الريفية يستحث فيها هم المواطنين الى الجهاد .

« اخواننا المسلمين ، ندعوكم باسم الرابطة الدينية ان تهبوا جميعا الى ملك رقابكم من عدوكم الذى يريد ان يستعبدكم بالكيد والعدوان ، انه والله لخزى عظيم ان يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه ، وان يحتمى بحماه ، فان كان هذا طمعا في رضاه فالله عز وجل يقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وان كان خوفا من سطوته « فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين » . وانكم تطمنون ان الفوز والنصر للحق وهو في جانب المسلم الذى يحامى عن دينه ووطنه ، وان كلمة الله هي العليا ، وحزب الله هو الغالب لا محالة ، طال الزمان ام قصر ، فقوموا تومة رجل واحد واعقدوا الخناصر على مناجزة العدو لقد اصبح على شفا الهلاك ، وعما قليل ينخذل الخذلان الاخير ، ويسقط السقوط الاذى الذى لا نهوض له منه ، وينسحب مطرودا عن هذه الارض الشريفة التى ما بقى له فيها مقيل ولا مقر .

ولولا اعتماده على بعض اخواننا الذين باعوا شرفهم ودينهم بثمن بخس دراهم معدودة لاصبح من زمان هشيما تذروه الرياح على هاته الجبال والبطاح . لكنهم وقفوا عقبة في وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية اليه ، وای مقت اكبر من ان يقف المسلم بجانب عدوه وعدو دينه يحارب اخاه المسلم ! لعمر الحق ان هذا هو الشقاء الفظيع والعار الشنيع ومع ذلك فانا نود لهم الخير ونرجو ان يراجعوا بصيرتهم ، ويلتمسوا واجبهم

باسمه ومسماه . ولقد كانت لهم اليد الباسطة في علم الطب والصيدلة والكيمياء ، وعنهم اخذها الاوربيون وبرعوا في الجراحة حتى كان النساء بالانفلس يباشرن كثيرا من العمليات الجراحية لامثالهن من الاناث املا نسترجع سالف مجدنا ، وآثار اجدادنا ، بهمتنا وجدنا ، واليكم معشر النلازمة يساق الحديث ، فانتم رجال المستقبل ، وعليكم نعلق الامل ، فاجهدوا في تحصيل العلم ، واجعلوه اهم مطالبكم ، فان قيمة كل امرىء ما يحسن ، وان كل عز لم يؤيد بعلم ، فالى الذل يصير .

وهذه خطبة سياسية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الثورة الريفية يستحث فيها هم المواطنين الى الجهاد .

« اخواننا المسلمين ، ندعوكم باسم الرابطة الدينية ان تهبوا جميعا الى مك رقابكم من عدوكم الذى يريد ان يستعبدكم بالكيد والعدوان ، انه والله لخزى عظيم ان يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه ، وان يحتسى بحماه ، فان كان هذا طمعا في رضاه فالحله عز وجل يقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » وان كان خوفا من سطوته « فالحله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين » . وانكم تعلمون ان الفوز والنصر للحق وهو في جانب المسلم الذى يحامى من دينه ووطنه ، وان كلمة الله هي العليا ، وحزب الله هو الغالب لا محالة ، طال الزمان ام قصر ، لمقوموا تومة رجل واحد واعقدوا الخناصر على مناجزة العدو لقد اصبح على سفا الهلاك ، وعما قليل ينخذل الخذلان الاخير ، ويسقط السقوط الابدى الذى لا نهوض له منه ، وينسحب مطرودا عن هذه الارض الشريفة التى ما بقى له فيها مقيل ولا مقر .

ولولا اعتماده على بعض اخواننا الذين باعوا شرعهم ودينهم بثمن بخس دراهم معدودة لاصبح من زمان هشيما تذروه الرياح على هاتس الجبال والبطاح . لكنهم وقفوا عقبة في وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية اليه ، واي مقت اكبر من ان يقف المسلم بجانب عدوه وعدو دينه يحارب اخاه المسلم ؟ لعمر الحق ان هذا هو الشقاء الفظيع والعار الشنيع ومع ذلك فانا نود لهم الخير ونرجو ان يراجعوا بصيرتهم ، ويلهموا واجبهم

الدينى والوطنى ، فيوثروا ما يبقى على ما يفتى ، ويستبدلوا رضا الله
سخطه ورحمته بغضبه من قبل ان يفوت الفوت ، ويعضوا اصابع الندم
ولات حين مندم .

اخواننا المسلمين ، ان كنتم تريدون الخلاص والنجاة حقا ، وانتم
اولئك المؤمنون الصادقون المصدقون بوعد الله . فتحركوا وانتبهوا ممن
نومكم الطويل . وكونوا انصارا لله مجاهدين فى سبيله بكل قوة . وقوة
الايمان ما فوقها قوة . واغتنموا هذه الفرصة فقد ازفت ساعة النصر ،
وجاء الفرج يبشر كل مؤمن جاهد ابتغاء مرضاة الله بالسعادة فى الدنيا
والآخرة . ولا تكوبوا من الدين خسروا انفسهم وسودوا تاريخهم بالخضوع
للعدو من اجل الحصول على راحة موهونة ، والتمتع بعرض زائل ، فسحقا
لها من حياة ينزل فيها المؤمن من سماء عزه وشرفه الى درك الدل والعبودية
لخصوم المؤمنين لا يرمون فيه الا ولا ذمة . ولا يرون لمسلم حقا ولا يقيمون
له وزنا . اما كفانا موعظة واعتبارا ما وقع لاهواننا بالاندلس وما آل اليه
امرهم من العز الى الذل ومن الايمان الى الكفر . ففى مثل هذه الحالة
يستعذب المؤمن الموت ويفضل العدم على البقاء . هكذا عهدنا اسلافنا
وعرفنا من تاريخهم المجيد انهم لا يرضون الخضوع والمسكنة ، ولا يبتغون
من الحياة الا ان يعيشوا احرارا . ويموتوا ابرارا . ولذلك فان اخوانكم
فى الريف على بكرة ابيهم يقاتلون عدوهم اللدود الذى كان يطمع فى بلادهم
قتل اليوم ، واما الآن فقد ذاق وبال امره ورأى عاقبته خسرته مع انهم لا يبلغون
عشر معشار قوته « وما النصر الا من عند الله » فكيف يليق بمن يروم
العز والفوز ان يتقاعد عن الجهاد ، ولا يسارع الى نصرته اخوانه ، وانقاذ
وطنه من ايدى الطامعين العابثين الذين يسعون فى الارض لمسادا ولا
يصلحون ؟ ما ذاك الا من ضعف الايمان وموت الهمم والرضا بالهوان ،
والواجب على العلماء والوعاظ والخطباء الذين هم قادة الامة وهداتها ان
ينصحوا العامة ويرشدوهم الى ما فيه صلاحهم وفلاحهم ويبينوا لهم ان
الواجب عينى يطلب من كل فرد القيام به ولا يغنى فيه زيد عن عمرو ، والله
المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

نرى فى هاتين الخطبتين كيف تطورت الخطابة اسلوبا وموضوعا ،

فقد كانت الى قريب من هذا العهد لا تكاد تخرج عن نطاق الخطابة الدينية، وكان المثال المحتذى فيها هو السجع والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية وهذا ان يكن من شروط الخطبة الدينية ، فان السجع لم يكن قط من متطلباتها . لا سيما والمراد منها هو الوعظ والارشاد . فوجب ادائها بعبارة اقرب ما تكون الى افهام العامة . ليس فيها تعقيد معنوى ولا اغراب لفظى . ولذلك فان اول ما درجت عليه الخطابة فى عهدنا الجديد هو نبذ تلك الزخارف اللفظية والقصد الى الوضوح والبيان . ولا ن فكر ان فى الخطبتين بقايا من هذا التفاسح . ولكنها قليلة وغير متكلفة . وهى من سرقة الطبع وغلبته على التطبع . وقد راينا امثالا فى النماذج النثرية الاخرى التى قدمناها من المقالة وغيرها . ونلاحظ تركيز الخطبة الاولى على الاثابة بفضل العلم والحث على طلبه . مصداقا لما قلناه سابقا من انه الشعار الذى كان ينادى به جميع العاملين ، فى فجر النهضة وامتازت هذه الخطبة باثابة نخوة الامة وعدم جرح كرامتها . وذلك بنفى وصمة الجهل المطلق عنها واثبات ان لها سهما صائبا فى العلم ولا ينقصها الا ان تضرب بسهم آخر فى العلوم الحديثة التى هى من آثار آبائنا الاولين . وذلك من لباقة الخطيب وحسن تأتية للامور . اما خطبة الامير ابن عبد الكريم فهى تشف عن قوة ايمانه وصدق جهاده وتنبيه من واقع الثورة الريفية وارتفاع علمها على رغم المثبطات الداخلية والخارجية بما لا ينبىء عنه حديث ولو طال وهى على صراحة لهجتها فيها كثير من الدبلوماسية التى تليق بقائد حربى وزعيم سياسى فى نفس الوقت . ولعل اعتمادها على الجانب الدينى تارة والوطنى اخرى كان لقصد اثابة شعور القبائل وعموم المخاربة الذين يجعلون الدين فى المقام الاول من الاعتبار . على ان المستعمرين انفسهم كانوا يعتبرون القتال فى المغرب حربا صليبية مقدسة . والاسبان منهم بالخصوص كانوا يعملون فى احتلال المغرب على تنفيذ وصية ايزابيلا الكاثوليكية . وقد سانداهم فى حرب الريف طيارون متطوعون من ايطاليا واميركا . واخيرا دخلت فرنسا الى جانب اسبانيا فى هذه الحرب حتى انتهت بما هو معلوم من تسليم بطلها صاحب هذه الخطبة . فلا جرم ان يستغل هو ايضا الجانب الدينى من الشعور العام عند المواطنين ، وعلى كل حال فان أسلوب الخطبة مؤثر وانشاءها متدفق العاطفة الوطنية التى املتتها . وهى حرية ان نعد من الخطب التاريخية فى ادبنا العربى .

وقد اطلنا في الاستشهاد وايراد النماذج المبينة لتطور النشر في فجر النهضة على اختلاف الابواب والموضوعات وبقي من ذلك باب المحاضرات. وهو باب واسع يضيق المجال عن استيعابه . وقد كان مما قامت له سوق نافقة في هذا العهد . وادى نادى المسامرات الذى انشئ بفاس ومعهد الدروس العليا بالرباط خدمة عظيمة للنهضة الفكرية عن طريق المحاضرات العديدة التى القيت بهما من مختلف الشخصيات العلمية والادبية البارزة في الوقت وبعضها مطبوع كمحاضرة عبد السلام السرغيني (ت 1354) في السنة والبدعة ، ومحاضرة احمد النميشي عن تاريخ الشعر والشعراء بفاس ومحاضرة احمد الشبيهي في العلم والعمل وغيرها ، فنكتفى بالاحالة عليها .

فجر النهضة

- 2 -

وننتقل الى الكلام عن الشعر ، وقد تطور هو بدوره في هذه الحقبة تطورا ملحوظا ولا سيما في محتواه ، فاصبح الشعراء يتناولون موضوعات جديدة مما يتعلق بالنهضة واحداث السياسة والمجتمع ، ويعبرون عن تجاربهم الذاتية بما يبرز مواطنهم وافكارهم على حقيقتها من غير تعمل ولا تقليد . وهذا الى التوسع في شعر المناسبات بما ادخل عليه من معان ومبان وصور مبتكرة تعلقا بالتجديد ومجaraة لاحوال العصر وتصورات اهله . واذا كان الشعر من هذه الناحية قد تضخم وزخرت مادته فان الملاحظ انه من الناحية اللفظية قد جنح الى السهولة ، واخذ بسبيل البساطة فلا غموض في كلمة ولا ابهام في تعبير ، حتى بلغ الامر ببعض الشعراء الى الاجحاف بحق الصياغة الفنية احبانا ، وليس ذلك من ضعف المادة اللفظية، والما هو من تمثل روح العصر في السماحة والتيسير . وكثر لذلك الشعر وطال نفس الشعراء واستعملوه في كل غرض حتى كانت بعض الصحف تنشر اعلانات منظومة . وجمع النقيب ابن زيدان ديوانا ضخما في خصوص ما قيل من قصائد المدح في السلطان مولاي يوسف .

ولا نقول ان الشعر نهض نهضة حقيقية ونحن نرى ما بلغه في الشرق العربي من التلنن والابداع ، ولكننا نقول انه تحول من المجري الذى كان يصب فيه ، فلم يبتى قاصرا من جهة المعنى على اغراض القدماء بل اضاف اليها اغراضا حديثة ، ولا من جهة المبنى على القوالب الموروثة ، اذ نخفف من ثقلها كثيرا ، من غير ان يثور على الاوضاع التقليدية للشعر العربي او ياتى ببديع في مآثوراته وهو في ذلك يثائر خطا الشعر في الشرق العربي الذى كان ما يزال محافظا على العمود الشعري وان بلغ غاية النمو والازدهار

وهذا يعنى انه سار فى الطريق العام للنهضة الحديثة التى كانت تغزو بلاد العرب الواحدة تلو الاخرى ، ولا يعنى مطلقا اى مفهوم تقليدى كما يحلو لبعض الكتاب ان يجرح النهضة فى هذا الشعب او ذلك من الشعوب العربية فيجعلها تقليدا محضا لما سبق ان قام فى احدها من الدعوات والاتجاهات ، ذلك ان هذه الانتفاضة التى نعبر عنها بالنهضة العربية كانت منبعثة من اسباب وعوامل متشابهة فى كل بلد عربى ، وكانت انطلاقة للقوى الفكرية والعملية المذخورة فى نفس الفرد العربى اينما وجد ، وبالضرورة لا تتفجر العناصر فى آن واحد ، فذلك تيار النهضة كان يدفع الشعوب العربية بعضها قبل بعض ولكن فى اتجاه واحد ، ولكم جهد دعاة القومية الضيقة ومعهم اصحاب النظرية الاقليمية فى الادب ان يميزوا كل قطر عربى عن اخيه بميزات لا وجود لها الا فى خيالهم ، واستحدثوا من المذاهب الفكرية والنقدية ما زعموا بانه سيكون قوام هذا التمييز ، فابت تلك المذاهب الا ان تتلانى على صعيد وحدة الامة العربية والادب العربى النابع من صميم تلك الوحدة وكما كانت المذاهب والآراء فى هذا الادب تنتقل قديما من عاصمة العباسيين فى العراق الى عاصمة الامويين فى الاندلس فاذا نبغ هناك منسىء يقال له ابو الطيب نبغ هنا متنبىء آخر يسمى ابن هانىء ، واذا قيل هذه طريقة البحتري قيل بجانبها وهذه طريقة ابن زيدون ، فكذا كان لادب المهجر والمهجرين حديثا صдах فى مصر وتونس والمغرب ولادب العقاد وطه رواده فى سوريا ولبنان ، ولا تقليد فى القديم ولا فى الحديث ولكنه تجاوب ونداع وتأثير وتأثر متبادل .

وقد سار المغرب فى نهضته الادبية على هذا الدرب ، وخطا خطوانه الاولى نحو التطور الفكرى حسبما بيناه وراينا نتائجه بالنسبة الى النشر فى النماذج التى قدمناها ، ونرى الآن نتائجه بالنسبة الى الشعر فى نماذج تتضمن المعانى والاغراض الجديدة التى عرض لها وتبرز ما استحدث فيه من اساليب وصيغ تعبيرية لم تكن معهودة من قبل ، فمن ذلك فى الحث على اليقظة والاخذ بأسباب التقدم وطلب العلم والاصلاح الدينى قصيدة لمحمد السليماني يقول فيها :

حماة الدين هبوا من سبات
فمركزنا يؤول الى الخراب

ولم نترك لنسا غير انتساب
 كتابهم ويا حسن الكتاب
 وينذرنا مفاجاة العذاب
 نقود المسلمين الى الصواب
 ويا لحياتنا يوم الحساب
 اذا ما قال شرك في الجواب
 يقيم لسانه عند الخطاب
 وهل تغنى القشور عن اللباب
 الى ان اوتعتنا في تباب
 ولا عضد يساعد في الصعاب
 فاصبحت الضائع في اضطراب
 فراس المال منخرم الحساب
 جنوا من ريعها عجب العجاب
 بانفسنا بأحضان المرابى
 وان كثروا ذئاب في ثياب
 من الالباب فارغة الجراب
 عطاء الله من اهل القباب
 فكيف جوابكم يوم المآب
 فان الشاة في وسط الذئاب

تركنا الدين خلفا لا نبالى
 يقول الشامتون هم اضاعوا
 كتاب جاءنا للحق يدعو
 اما ترك الرسول لنا وصايا
 فطال العهد واخترنا سواها
 رضينا الفى حتى لا فصيح
 ولا احد من اهل العلم منا
 وفخضة المعمم كيف تجدى
 فوا اسفا على حال حدثنا
 فلا مال يصون لنا حياة
 مصانعا الم بها فساد
 وساد على تجارتنا كساد
 وزاحم في فلاحتنا اناس
 ونحن ازاءهم فقراء نلقى
 زعانفنا ولا اخشى ملاما
 هم شبه الرجال ولا رجال
 وما زالوا يرون بلا حياء
 وهذا يا حماة الدين منكم
 بنى العلم الرعاة الا افيقوا

هذه الصرخة الداوية لعلها ان تكون خطبة ميدان اكثر من ان تكون
 قصيدة شعر ، ولكن اذا عظم الخطب وعم البلاء فان كل الجهود يجب ان
 تصرف الى ما يقى الامة عاقبة السوء وشر المصير ، فالكتاب يجندون
 اقلامهم والشعراء يشحذون قرائحهم لتجسيم الخطر والتنبيه على طرق
 اجتنابه ، وهذا هو الالتزام فى اوضح صورة والادب الملتزم فى اصرح
 مواقف ، وان تكن دعوته لم تخرج بعد الى حيز الوجود فى هذا الوقت
 فالشاعر يخاطب حماة الدين وهم اهل العلم واصحاب الفضيلة ، مهيبا بهم
 الى النهوض لدرء الضرر وعلاج المرض ، وتذكير الامة بسيرة السلف الصالح
 التى تتمثل فى التمسك بالكتاب والسنة اللذين هما سبيل التقدم ومعراج
 الرقى ، فان سلفنا لما كانوا بهما متمسكين بلغوا الغاية من القوة والعظمة

والعزة والمنعة ، ونحن لما امرضنا عنهما ونبذنا العمل بهما حل بنا التمس والشفاء ومنينا بالذل والهوان ، ثم يلتفت الى الحالة الاجتماعية فيرى آسفا — الفقر ضاربا اطنابه في البلاد وذلك من اختلال امر الصناعة والتجارة والفلاحة ، ولا ينسى ان ينبه الى ما احرزه المعمرون الاجانب من نجاح عظيم في فلاحه الارض لما زاولوها بالعلم والخبرة والجد والاجتهاد ، والى استغلال اصحاب رؤوس الاموال من المرابين الاجانب لجهلنا وتدهورنا الاقتصادي ، ويعرض بعد ذلك بما عليه الجمهور المغربي من جهل وغباوة وطلب النفع من غير وجهه وتعلق بالموتى واهل القبور من اصحاب الاضرحة والقباب ، ويحمل المسؤولية في ذلك على اهل العلم الذين من واجبهم ان ينصحوا الامة ، ويدلوها على ما فيه صلاح امرها معاشا ومعادا . فان ضيعوا هذا الواجب لم يكن لهم عذر ولا جواب امام الله والناس .

ونظن اننا لسنا بحاجة الى التنويه بصراحة لهجة الشاعر واللوعه التي تشيع في كلماته معبرة عن اخلاصه وغيرته واشفاقه من الواقع الاليم الذي تعيشه امته فان ذلك مما تفيض به آيات القصيدة وتنضح به كل مقاطعها ، ولكن الذي لا بد ان نشير اليه هو هذا الاسلوب السهل المتحرر والالفاظ الواضحة الدالة على مراد الشاعر من غير لى ولا تمثدق ، فانه عرف ان الامر اهم ، والمقصود اعظم ، فنكب عن سبيل المجاز الى الحقيقة ، واخذ اللب وترك القشور رغبة في الافهام ومبالغة في اداء رسالته حتى لا يحول بينها وبين من وجهت اليهم حائل ما ، وهذا الى جانب الموضوع الجديد هو من التطور الذي طرا على الشعر في فجر النهضة كما لاحظنا ذلك صدر هذا الكلام .

ومن قصيدة اخرى في الموضوع لمحمد بن عبد الصمد كنون :

افيقوا من سبات طال جدا	وصونوا واحفظوا للمجد عهدا
كفاكم ما احاط بكم كفاكم	مركن فخاركم والله هذا
انلغ ما نروم من المعالي	وما في الشعب من يرضيك قصدا
انرقى ذروة العلياء يوما	ولم نقصد من الاصلاح زندا
الا لا يلفن المجد من لا	يكاسبه عمره تعب وجهدا

كفى هذا التكاثر والتواني كفى كم نكرر الإصلاح جحدا
نرى أمم التمدن في ارتقاء ونحن كائننا ننحط عمدا
فآه ثم آه ثم آه لشعب المغرب الأقصى المفدى

ومن ثالثة لمحمد النمشي خطابا للشباب :

العلم أجمل حلية الإنسان فاسمعوا اليه معشر الشبان
وردوا بشوق مترعات حياضية متسابقين تسابق الظمان
وتنافسوا في نيل كل فضيلة وتشبثوا بأوامر القرآن
فالدين اس صلاحنا ونجاحنا والدين أصل سعادة الاوطان
فان اتخذناه دليلا هاديا سلمت تجارتنا من الخسران
لكن فقد العاملين هو الذي أدى بنا لتواكل وتوان
ومتى وجدنا عاملا فوجوده لرقيننا اذ ذاك كالعنوان

انهما دعوتان مخلصتان للنهوض والعمل ومجارة الاحياء والاخذ
باسباب التقدم وطلب العلم الذي هو وحده سبيل النجاة ، مع الحض على
التمسك بالدين والاخلاق والاسف لما آلت اليه البلاد من الانحطاط والتأخر
بسبب فشو الجهل بين انائها ، وتكاسلهم عن السعى فيما يورث المجد
ويكسب الحمد من اصلاح حال المجتمع ، والاهتمام برقى الوطن ماديا
وادبيا حتى يبلغ الشعب ما يصبو اليه من الحياة الكريمة والعز والشرف
وقد كان لهما ولائهما المفعول القوي في نفس الجمهور وحركة البعث
التي عمت جميع المرافق ، فلم تقتصر على الناحية الادبية . بل شملت
النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تصريحا وتلويا ، وكل ذلك
مما لم يكن الشعر يتناوله قبل وخاصة بهذا الاسلوب المعرب المبين المتراوح
بين الذكرى والاعتبار والمقارنة بين ماضى الامة وحاضرها ، واستنهاض
الهمم الى استرجاع ذلك المجد المفقود ، فالتطور الذى المعنا اليه مما
لا خفاء به في هاتين القطعتين ايضا .

والشعر في هذا المعنى كثير وهو متقارب النفس مما ذكرنا ، ومنه
ما خص الدعوة الى التعليم وتعداد فوائد العلم وعجائب مخترعاته ، ومنه
ما عنى بالاصلاح الدينى ودم البدع ومهاجمة الخرافات ، والاثبه منه

الشعر هو ما خص وعم ، وكان دعوة الى النهضة الشاملة كالامثلة السابقة ، فنكتفى بها ونعرض الى موضوع آخر وهو اهتمام الشعر بتسجيل الاحداث الكبرى والقضايا السياسية وطنية وغيرها مخترقا بذلك الحدود والسدود التي كان الادياء يقيمونها حولهم فلا يحتفلون الا بالمعاني الذاتية وما كان من قبيل المناسبات العادية .

ومن اول التسجيلات في هذا الباب قول ابن المواز متنبأ بوقوع الحرب العالمية الاولى قبل نشوبها .

وقائلة ما في طوايا زماننا ؟ نقلت لها قولا لمن ينفرس
اراه بطول السلم قد ضاق صدره فهم بزمرات بها يتنفس

وهي نظرة فلسفية للحرب تنبئ عن تفكير عميق ، وسبق الواقع فيها هو من زكاة الشاعر واطلاعه على احوال العالم فلم يبق ذلك الشخص البوهيمي المنقطع عن الناس والذي لا اهتبال له الا بالكأس والطاس كما يحلو لبعضهم ان يتصور الشاعر ولبعض الشعراء ان يكونوا بل صار انسانا يهتم بحياة الانسانية فيالم لما يؤلمها ، ويسر لما يسرها ويعيش في مجتمعه عضوا عاملا بل رائدا من رواد امنه وخيره وسعادته .

ومن قصيدة لمحمد الجزولي في انتصار الانراك على اليونان :

ضراغمة الاسلام اربعتم العدا	واسقطتم شيخا وراهم ترصدا
صددتم بكف الحزم صدمة جيشهم	واصلتم سيفا صقيلا مهندا
طعنتم بكف الحزم صدمة جيشهم	تداعى لها من جيشهم ما تشيدا
وصار هباء رغم انف عتاده	وانف عدو جاوز الحد في العدا
عدو اتى الاسلام من خلف ظهره	فبيت فيه سيف بغية مغمدا
وانزله من فوق عرش جلاله	واوثقه خوف النهوض وقيدا
وقدمه هدبا على مذبح القضا	وهم ولم يقدر وعاد غاوعدا
تراجع يرنو للضحية ضاحكا	وقد يضحك الجزار من فتكة المدي
ترأى له في فرصة فض جسمها	فأنشب فيه الظفر حتى تفصدا
والهى بجزء كل طالب قسمة	وبالقسمة الكبرى افتيانا تفردا

عليها عدا كالذئب يعدو شراسة
فحين اتى الاوداج يفرى وكاءها
نمر بكف الرعب فوق جبينه
وقال اعاد الميت ينفض كفيه
نعم قد راى الرئبال ابرز مظلما
راى الاسد الضارى الذى كان رابضا
وانشب فى اليونان نابا ومظلما
ومزقهم شطرين شطرا لسيفه
ثمان ليال بعد سبع تتابعست
ترافع فيها الترك والروم للوغى
وقام على الخصمين يخطب مدفع
فذابت جيوش الروم حينما كأنها
فهل سمع التاريخ قبل بمحفل
وهل سمع التاريخ عن دولة هوت
نعالية اليونان عدتم لجحركم
على حتفكم انتم بحثم بظلفكم
ظننتم بان الحرب يوم وليلة
وما الحرب الا ما رايتم وذقتم
نعودوا لاحجار البحار فلستم

ولكن سيف الله يقصم من عدا
تبدى له شخصا سويا منهددا
وقد جحظت عيناه خوفا وارعدا
وهل شبح الاتراك عاد مهددا
واظهر نابا كالسنان محدددا
تجمع ثم امتد وانحط مزيدا
وعاد لما قد كان فيهم معودا
وشطرا باغلال الهوان تقبدا
غدا جيشهم فيها طريدا مشردا
وما حكموا فى الفصل الا المهندا
اذا قال اما بعد ارغى وازيدا
تمائيل ثلج فوق جمر توقدا
باسرع من لحظ العيون تبددا
على حين ان جرت من الكبر ابردا
لروبتكم ارض الاناضول مأسدا
وبغيكم والبغى يصرع من بدا
ونزهة جيش جاءها متصيدا
وما ذقتموه اليوم تلقونه غدا
كاسد البرارى قسوة وتجلدا

* * *

بنى الترك لا شلت يداكم ولا نبت
بنى الترك ذدتكم عن حمى الشرق اعصرا
بنى الترك كم تروى التواريخ مجدكم
ازلتكم عن الاسلام شارة ذلة
رفعتم له بين الممالك راية
واقررتكم عين النبى بفوزكم
وصيرتم وجه المسالم ابيضا
فمن مبلغ ارواح آبائنا الالى
ومن مبلغ من مات منا على الظما

سبوفكم عن راس من يكفر البدا
ولكن ذود اليوم صار مخلدا
وقد زدتموها الآن سفرا مخلدا
والبستموه من شهامتكم ردا
اذا انتسب النائى اليها تسودا
وقمتكم مقام الصحب فى نصره الهدى
وصيرتم وجه المحارب اسودا
باننا اعدنا المجد صرحا ممردا
باننا روينا بعد حفرجة الصدى

كان الانتصار التركي على اليونان اعظم حدث وقع بعد الحرب العالمية الاولى بالنسبة للشعوب الاسلامية والدول الاستعمارية على السواء ، فان النكسة التي اصبحت بها تلك الشعوب غداة الهزيمة التي حاقت بجيوش الخلافة العثمانية واحتلال الاستانة عاصمة الاسلام من طرف جيوش الحلفاء ، كانت بمثابة القضاء المبرم على كل بعث اسلامي لا سيما وقد توزعت الدول الاستعمارية الكبرى بلاد العرب واصفقت كلمتها على اقتسام تركية الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العثمانية حينذاك ، فلم يبق اى امل للعرب والمسلمين الا في الثورة وامتشاق الحسام .

وقد ثار العرب فعلا في سوريا والعراق ومصر ، وفي المغرب لم تخب نار الثورة في الشمال والجنوب ، وفي قبائل الاطلس المتوسط منذ نزول الحماة البغضاء بارض الوطن ، ولكن هذه الثورات كانت تخمد بسرعة ، وما لم يخمد منها كان يرى مصيره الى الفشل حتما . فلما قامت الثورة الكمالية ، والقت بجيش الاحتلال اليوناني في البحر وارغمت جيوش الحلفاء على الانسحاب من العاصمة الاسلامية الكبرى ، انتعشت النفوس ، وانشرحت الصدور ، وعم الفرخ جميع البلاد الاسلامية والعربية ، وعاد كيد الاعداء الى نحورهم ، وايقنوا ان راية الاسلام لن تنكسر ، وان وجودهم في بلاد العرب الى حين .

والمغرب الذي كان يعاني من الاستعمار الفرنسي وهو في طور استفحاله ، ما يعاني ، لابد ان يترك الانتصار التركي فيه صدى بعيدا ، وان يفهم قلوب اهله غبطة وسرورا لانه بنفس من كربتهم ، ويقوى عزيمتهم في محاربة المستعمر والوقوف بوجهه ، وذلك ما نجد الشاعر يعبر عنه بحماسة في هذه القصيدة التي اول ما يلفت فيها النظر هذا الاطلاع الواسع على خفايا السياسة الاستعمارية ودسائس المستعمرين ، وخاصة منهم الدهقان الانجليزي الذي كان يختلئ من وراء الالعوبة اليونانية ويتخذها ذريعة لاستدلال عزة الاتراك واستباحة حماهم . وقد كان التضامن الاسلامي الذي تجلى في هذه الحرب بأجلى صورته مدهشا للغاية مما حمل فرنسا على تسوية علاقتها مع الاتراك خوفا من انتفاض الشمال الافريقي عليها ، وجعل انكلترا نفسها تحت ضغط مسلمي الهند تتراجع عن موقفها العدائي السافر

من دولة الخلافة . والعنصر الثانى الذى تتميز به القصيدة هو الشعور
 الفياض المتدفق بهذا التضامن ، وحسبان الحرب التركية حربا اسلامية ما
 يصيب الاتراك فيها من خسارة يسوء عالم الاسلام اجمع ، وما يبالونه فيها
 من ربح يعد مكسبا عاما للمسلمين فى المشرق والمغرب . وصور الشاعر
 المكيدة الانجليزية تصويرا بارعا بما فيها من تأمر على الاتراك وتفريس
 باليونان وما عقبها من خيبة امل الانجليز واحباط لمكرهم الذى كان المدبر له
 هو لويد جورج رئيس وزارتهم وهو المعنى عند الشاعر بالشيخ وكان من
 دهاتين الاستعمار وعدوا لدودا للاسلام ، وقد اثر الانتصار التركى عليه
 وعلى سياسته ، وسقطت حكومته فى الاخر نتيجة لتصرفاته المتناقضة
 وفشل تدبيره . ان الغضاضة التى اصبح كل مسلم مسلم يحس بها بعد
 انتهاء الحرب العالمية الاولى بما هو معلوم من انهزام المانيا وحليفاتها تركيا
 وانزال العقوبات الحربية القاسية بالمغلوبين وهى تتسجم بالنظر الى تركيا
 فى تصفية ممتلكاتها وجعلها نهبا مقسما بين المنتصرين واغراء اليونان وهم
 الد خصوم تركيا واحترهم باحتلال ترابها واستعمارها ، ان هذه الغضاضة
 هى التى انطلقت الشاعر بما نقراه فى قصيدته من عبارات التشفى والشماتة
 والفاظ العداء والعدى وهى التى جعلته يصور فتك الاتراك بالجيش اليونانى
 وتمزيقهم اياه بتلك الصورة الواقعية العارية من كل تلوين ، ولا غرو فان
 من عاش تلك الظروف العصيبة وهو بمثل حالة المتنبى « فى احتبال الاذى
 ورؤية جانيه » (1) لا يمكن ان يملك عواطفه ولا ان يضبط شعوره ، وكذلك
 كانت حالة الشعوب الاسلامية جميعا بل حال الفرد المسلم فى كل مجتمع
 ولو غير اسلامى ازاء هذا الحدث العظيم ، والشعراء ما هم الا السنة
 شعوبهم المعبرة عن شعورهم القوى ، فشاعرنا لم ينطق الا بما كان يحس
 به هو وكل مغربى من جراء نشوة الانتصار وفرحة الاخذ بالثار ، وقديما
 قال الشاعر العربى « ولو ان قومي انطقنى رماحهم نطقت » ونظن ان ما
 اداه الشاعر فى قصيدته هذه من افكار ، وعبر عنه من احساسات هو منتهى
 صدق التجربة الشعرية فى قضية سياسية مثل قضية انتصار الاتراك نهم
 خاصة المسلمين وعامتهم فهى لذلك من امثل الشعر الذى خضع لعامل التطور

(1) هذا ظمى لقول ابى الطيب :

واحتمال الاذى ورؤية جانيه ————— به غذاء ضوى به الاجسام

وجارى الحياة فى تقلباتها اليومية .

ومن اصدااء الثورة الريفية هذا النشيد الحماسى الذى يدعو الى
مساندة الثوار ، وهو من نظم ابنى بكر بنائى :

يا بنى المغرب ما هذا الرقاد	ما لكم صرتم كأمثال الجماد
فدعوا النوم وتوموا للجهاد	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب ما هذا الفتور	اولستم ذلك الشعب الغيور
طهروا الاوطان من كل كفور	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب ان الوطننا	يرتجى من جمعكم طرح الونا
فاحملوا الصمصام مع سمر القنا	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب سيروا للامام	وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبد الكريم ابن الكرام	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هيا للقتال	واستعدوا للوغى قبل النزال
انتم والله شجعان الرجال	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هبوا هبة	واضربوا وجه فرنسا ضربة
ذكرها يبقى عليها سبة	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب موتوا شهدا	لا تعيشوا تحت اذلال العدا
مزقوا الكفر واشراك الردى	واسألوا الله انتصار المسلمين

لقد كان هذا النشيد يتردد على لسان كل وطنى غيور ، وكان المقصود
منه تمجيد الثورة والنمى ببطولة الامير ابن عبد الكريم ، والتحريض على
الجهاد ، وتعزيز جانب الثوار . وهو فى صياغته الثورية واسلوبه الخطابى
يحكى خطبة زعيم الثورة التى قدمناها فى النماذج الثرية بل يكاد يكون
نظما لها ، والسر فى ذلك هو ان الروح التى املتها واحدة ، وهى روح
الوطنية الصادقة والايمان القوى بحق المغرب فى حريته واستقلاله مع
الاعتقاد الجازم بان القوة هى السبيل الوحيد لتحقيق المطامح القومية ،
وانها وحدها هى اللغة التى يفهمها المستعمر الفاشم . فمن هنا تماثلا شكلا
ومضمونا وضربا معا على وتر واحد هو وتر الحرب والقتال الذى لا يحرك
سواكن الشعب المغربى الابى سواه .

ولحمد بن اليمنى الناصرى مرددا صدى انتصارات بطل الريف على
فرنسا واسبانيا من قصيدة طويلة :

انظر لما تلقى فرنسا منه اذ	قصدت بشامخ مجده استخفافا
جاءت بمعظم جيشها وعتادها	فاستنزفته رجاله استنزافا
وادال دولتها بفرط دهائسه	وتمزقت احزابها اطرافا
حتى اثار بمجلسيها ثورة	شعواء نرجو الهدنة استعطافا
واذا (اليوطى) قد تردى ساقطا	متحملا مما جناه اكافا
وحليفه (دى ريفيرا) قد فر لا	يلوى على شيء به يتلافى
وتنافرت آراء دولته بها	اضحت رعوس مجنديه قطافا
سل عنهم باب المروج وتازه	وسلاس والبيبان والاجرافا
وسل البرانس والتسول وجاية	والسبت والكيفان والاكتافا
تلك المواقع روعت ابطالهم	وجلت لفسا عن روعهم اسجافا

انها نشوة النصر التى انطلقت ابا الشعور ، وهو لقب شاعرنا الناصرى،
بهذه الابيات الحماسية الرائعة ، ممثلا فيها الجو السياسى المكهرب الذى
كان يهيمن على العاصمتين الفرنسيتين والاسبانيه حين ذاك من جراء توالى
الهزائم المروعة على جيشهما العامل فى المغرب ، حتى ارتفعت اصوات
الاحزاب وكبار الساسة فى كل من الحكومتين بوجوب المفاوضة مع ابن عبد
الكريم وجعل حد لهذه الحرب التى استنزفت قواهما استنزافا كما عبر
الشاعر . وعقد مؤتمر وجدة على ما هو معروف وانفض عن غير طائل ،
واستؤنفت الحرب الى ان تطورت القضية لصالح الاستعمار مع الاسف .

وننصرف عن الاحداث الكبرى الى المناسبات الاجتماعية فنجد الشعر
ايضا مع ماجريات الاحوال يسجلها ويردد صداها مؤذنا بمشاركة الشعراء
فى مظاهر الحياة الرسمية وغيرها من الشؤون العادية ، ولقد كثرت
الاحتفالات فكثر قصائد التهنئة منوهة بما جد من وسائل الحضارة والتقدم
العلمى ، وكان السلطان يحيى ليلة المولد الشريف كل سنة فكانت القصائد
المولدية التى تنشد فى تلك الليلة تعد بالعشرات ، والكثير منها يتعرض لسمو
الدعوة الاسلاميه وما انت به من مبادئ الحرية والمساواة ، الشيء الذى
لم يكن شعر المديح يلتفت اليه من قبل .

ونحن لا يمكننا ان نعطي امثلة من كل ما كان يقال في هذه المناسبات ، ولا ان نستوعب شعراء هذه الحلبة من تاريخنا الادبي ، ولذلك فاننا نكتفى بشاعر واحد كان له في هذه المواضع جولات . وكان يعد امام الشعراء في وسطه حتى اطلقوا عليه لقب الشاعر المطبوع ، فكان يعرف به كما يعرف باسمه ، وان كان شعره ليس على قدر لقبه ، لانه لم يكن يعنى بتنقيحه كما لم يكن يعنى بالافكار الجديدة ، وهذا الشاعر هو عبد الله القباچ (ت 1264) فمن قوله في تجديد القصر السلطاني بالرباط :

<p>على الطالع الميمون قد شيد القصر وزاد بطول المد في الافق حسنه بنيت به الدنيا ولم تبنيه بها وحسبك ان الارض باهت به السما وحن لافق حنت الشمس نحوه يسافر في اطرافه الطرف يجتلى هو الدار دارت بالسعود نجومها وقيد مرآها النواظر حيرة رخامية الاركان تربية الحلى منعمة فوق السها اسها استوى وما هى الا للقائد موسم تظل جميع الناس خاضعة الطلى تمرغ ما بين الرجاج خدودها</p>	<p>وتارن ما شيدته الفتح والنصر ومن عجب مد به يحسن القصر فما خص صقعا دون صقع به الفخر ففارق مختارا منازل البدر وودت به لو تطلع الانجم الزهر محاسن يابى ان يلم بها الحصر واصبح فيها بعض خدامك الدهر فما شبعنا منها ولا روى الفكر مدبجة الارجاء اكناها خضر فلا فرقد يسو اليها ولا نسر ففى سوتها تغلو المدائح والشعر بابوابها من لثم افواههم اثر وتلقى بايديها الى من له الامر</p>
--	--

ومن قوله في التهئة بعيد :

<p>نهنيك عيدا انت لا شك عيده اتاك وشوق من وراء يسوقه فانجح لما ان دنا منك سميه وعاين ملكا قاهرا وجلالة والبسه من رائع الحسن والسنا لقد بيضت اثوابك البيض وجهه</p>	<p>وحليته يوم الفخار وجيده اليك وشوق مسن امام يقوده واخصب مرعاه وأورق عوده وملكا جوادا طبق الارض جوده لباس جمال ليس يبلى جديده وابقت له ذكرا يدوم خلوده</p>
---	---

خرجت بهما نحو المصلى معظمها
يود المصلى لسو يسير بنفسه
مشيت اليه خائفا متواضعا
ولم يطفك الملك الذى قد حويته
ولا ملت للدنيا عن الدين راغبا
ولكن توليت الكفاية فيهما
ووافيت في ملك عظيم وهيبة
لعمري لقد اظهرت للملك عزة
فما ملك في الارض من غير يوسف
هو العز للاوطان وهو صلاحها
فلا زال للاسلام حصنا وملجأ

شعائره كالبدنر وافنت سعوته
ليلتقاك او يدنسو اليك بعيدته
لربك حيث الفضل حيث مزیده
ولا الجيش يمشى خافقات بنوده
ولا ضاعت الدنيا لدين تشبده
فكلا توفي حقه وتریده
ثنت دونك الابصار عما تريده
وشانا عظيما عز قدما وجوده
جميل المحيا ترتضيه جدوده
اذا ما بنا الاصلاح مال عموده
يخاف ويرجى وعده ووعيدته

ان في هذين القصيدتين مثالا لما كان يقال في هذه المناسبات من شعر ،
وهو كثير . وقد يحتوى بعضه على افكار في التجديد والاصلاح ، ولا سيما
ممن كان معروفا بهذا الاتجاه كالسليمانى والجزولى ، ولكن الديباجة هي
هذه . على ان للقباج شعرا في معانى انسانية تدل على انفعاله بواقع الحياة
المر كقصيدته في غلاء المعيشة وفقدان المواد الغذائية ايام الحرب العظمى
التي يقول في مطلعها :

ومطربش قد عاف لبس التاج وصبا للبس الخز والديباح

وقصيدته التي قالها في حريق قيسرية فارس ، مواسيا بها التجار
المنكوبين واولها :

مصابكم به نزل القضاء وليس بنافع فيه البكاء

الا انه شعر تنقصه حرارة العاطفة ، ويلزمه الكثير من الصقل لتبرز
الفكرة الانسانية التي يصورها في الثوب الفنى اللائق بها . وقد يكون من
الطريف ان نورد قصيدا له مترددا بين الحقيقة والخيال في موضوع كراء
البيت ، ولعله كان يقصد به الى الفكاهة اكثر من شكوى الحال ، وهو هذا :

الى الله اشكو ما الاتى من الاسى . ومن فزع قد حلبنى من كرا البيت

كرا البيت يعنى كل قلب وناظر
 كرا البيت مثل الموتى اتى الى الفتى
 اذا قيل هذا آخر الشهر قد اتى
 وان حرك الباب الهواء حسبته
 وان جاعنى يوما صديق يزورنى
 هنيئا لكم يا ساكنين بلا كرا
 ولو عنتر العبى طوبى بالكرا
 ولو ان ملك الموت قاساه مرة
 ولو ان بيتا فى الجحيم بلا كرا
 ولو رات المصلوب عيناى فى الهوى
 اتول وعندى من كرا البيت لوعة
 كرا البيت واغنى الى كل بلدة
 وخمسى نجاجات وديكان بعثهم
 قلعت بساط الدار عمدا ويعته

ويهتك سترا للانام كرا البيت
 ويذكره يوم الحساب كرا البيت
 ترانى مأسونا لاجل كرا البيت
 مكلف رب البيت ينفى كرا البيت
 فليست اناجيه بغير كرا البيت
 فقلبي لفقرى قد كواه كرا البيت
 لانساه طعنا بالرماح كرا البيت
 لالهاه عن قبض النفوس كرا البيت
 لطابت به السكنى لاجل كرا البيت
 لقلت لهم هذا نجا من كرا البيت
 وقلبي جريح موجه من كرا البيت
 لمائى ورعى مهرب من كرا البيت
 وامهم الصغرا لاجل كرا البيت
 فلم يبق للجابى سوى مع البيت

هذه ملامح شاعرية الرجل الذى ملا البلاد شمرا فى وقت ما بهذه
 الحقبة ، وهى فى الوقت نفسه ملامح من شاعرية طبقة من الشعراء كانوا
 لعهدهم يعدون انفسهم حملة لواء الشعر وخاصة اهل الادب بين قومهم ، ولئن
 كنا وضعناهم فى محلهم مع بيان من كان يستجيب منهم لدعوة الإصلاح ،
 ويجارى جهده تيارات التجديد ، فلان العرض الذى يجب علينا ان نقدمه
 لادبيات فجر النهضة لا بد ان يكون عاما يشمل جميع الطبقات ، وان لم
 يستوعب جميع الافراد ، ولا بد ايضا ان يكون مطابقا للفكرة التى اعطيناها
 مقدما عن التطورات الطارئة على الادب نثرا وشعرا ، وهى كما قلنا لم
 تكن حاسمة بالنسبة الى الشعر ، فلم تقض على كثير من مخلفاته القديمة ،
 وانما تناولتها بين التحوير والتعديل .

وتم شاعر كان مقسما بين الاتجاهين ، له ميل الى التجديد والاخذ
 بالافكار الاصلاحية ، ولكنه استند طاقته الشعرية فى شعور المناسبات
 والتكسب بشعره على طريقة الشعراء المتقدمين ، وكان له كالتباج لقب
 صرف به ، وهو لقب شاعر الحمراء يعنى مدينة مراكش عاصمة الجنوب

المغربي لانها بلده على انه كان نابغة حقا ، ويشبه القباچ في انه كان شاعرا بطبعه ، وقلما يحتفل بتنقيح شعره فيتع احيانا في ضرورات قبيحة ، وان كان في سعة الافق والخيال الشعري يفوقه كثيرا هذا الشاعر هو محمد ابن ابراهيم (ت 1375) وقد اضلناه الى شعراء هذا الرميل لانه كان الصق به منه بشعراء الجيل الجديد . وكان اوسع مجالاته بعد المدح الخمرات والهجاء ، فمن قوله في المدح :

وحق الذي فوق السماوات عرشه ويعلم من قلبي المكتم ما اعنى
اذا اختارك التاريخ ابنا مخلدا لقد عرف التاريخ ما اختار من ابن

وله من قطعة خمرية :

لئن فتكت سود العيون بمهجتي فكم اوردتني زرقها مورد الهلك
وكل صنوف الراح عاقرت كاسها وما اذهبت نفسي سوى خمرة الوسكى

وله يصف البلز :

لما استقام ولم يفرز بهرامه اعوج كى تقضى له الاوطار
وكذا الزمان فمستقيم خائب واخو اعوجاج نال ما يختار
يختار من بين الفنان كواعبا منهم احياد الظباء تغار
من كل عذراء صموت راسها يعلوه من فرط الحياء خمار
وعليه فض ختامها قسرا وان علقت بوصمة فعله الانظار

وله من قصيدة يصف بها نفسه ويهجو ابناء زمانه :

بما بيننا من حرمة ايها الصحب دعونى وما يقوى على حمله القلب
فانى مدهى بخطب يسؤنى وعيشى في هذا الزمان هو الخطب
فلا تنكروا منى دموعا سكبتها تخفف احزائى دموع لها سكب
وابناء هذا الدهر الا اقلهم ظواهرهم سلم وباطنهم حرب
فمالى واتوام بليت بحقدهم وليسوا باكفائى وما ضمنا سرب
ومالى ارب عندهم متطلب ولا لهم عندى — فاعرفه — ارب

أضرهم منى السذى يعرفونه
 إلا دع سمر الحقد يغلى بقلبهم
 نواكس أبصار أمامى فإن أغب
 ويضحكنى منهم الى مسابق
 كذلك أرباب المخازى اذا هم
 أما يضحك الكلب المهتم نابيه
 وأبغض ما عندى التحبيب منهم
 فأفقدنى مرآهم كل راحتى
 لسانى اذا جردته صارم غضب
 فان سمر الحقد فى القلب لا يخبو
 تطاول رأس منهم وانبرى السب
 ليخبرنى خب بما قاله خب
 مخازيهم انهوا تملكهم رعب
 اذا هو عن انيابه كثر الكلب
 وبغضهم والله عندى هو الهب
 فقربهم بعد وبعدهم قرب

ان نفس الشاعر يظهر من هذه الابيات ، ولا شك انه كان سيال
 الطبع طلق اللسان ، والمعانى الشعرية تنثال على خاطره انشالا ، ولكنه
 لا يعنى بالبأسا الحل التى تليق بها من حيث جزالة اللفظ ومتانة التركيب .
 ثم هو لا يعود الى شعره ينقحه فيطرح منه السقط ويقيم المناد ، لانه كان
 يعيش عيشة بوهيية تبعد ما بينه وبين الاهتمام بذلك ، وقد اشتهر من شعره
 قصيدة هزلية فى فندق بطنجة كان يسمى المطعم البلدى ، نوردها هنا
 لنواخى بينها وبين شبيهتها التى للقباج فى كراء البيت ، وهى هذه :

ان كان فى كل ارض ماتشان به
 اخلاق ابنائها كالمسك فى ارج
 ياتيك بالاكل والذباب يتبعه
 ما بالبراغيث ان تشاجت عجب
 تلقاك راقصة بالباب قائلة
 والبق كالقول حجما ان جهلت به
 تببت روحك بالاحلام فى رعب
 اما الطبيب فعجل بالذهاب له
 يامن مناه المكان الرحب فى سفر
 المرء فى تلق والطرف فى ارق
 وليلة زارنى فى الفجر صاحبه
 وكالدافع خلف الباب سطلته
 وكم ثقيل رات عينى وما بصرت
 فان طنجة فيها المطعم البلدى
 بعكس اخلاق رب المطعم البلدى
 وكالضباب ذباب المطعم البلدى
 لما ترى حجما بالمطعم البلدى
 يا مرحبا بضيوف المطعم البلدى
 فعشه فى سرير المطعم البلدى
 ان نمت فوق فراش المطعم البلدى
 اذا اكلت طعام المطعم البلدى
 كالقبر فى الضيق بيت المطعم البلدى
 والقلب فى حلق بالمطعم البلدى
 نقلت من قال رب المطعم البلدى
 يهتز منها جدار المطعم البلدى
 فيهم مثيلا لرب المطعم البلدى

وتعرف الناس خير المطعم البلدى	وقلت خيرا فقال الخير اعرفه
تزيد حسن نظام المطعم البلدى	ان كان عندك قل لى من ملاحظة
مثل السحاب بافق المطعم البلدى	فقلت مالى ارى هذا الذباب غدا
هذا الذباب ذباب المطعم البلدى	فقال ان فضول الناس يقلقنى
باس اذا كان بقى المطعم البلدى	فقلت والباقى قال الباقى ليس به
ما بالها كثرت بالمطعم البلدى	فقلت هذى البراغيث التى كبرت
وتال تلك جيوش المطعم البلدى	مهزنى كصديق لى يداعبنى
اياك اياك قرب المطعم البلدى	يامن غدا ينتوى لطنجة سفرا
الا مبيت الفتى بالمطعم البلدى	ينسى الفتى كل مقدور يمر به

وما نحسب اننا ننف برواية مثل هذا الشعر الهزلى ، فان الامر فى الادب ليس جدا كله ، وقد رويناه من جد الادب الذى قيل فى هذه الفترة ما فيه الكفاية ، فلا بد من الاحماض بشيء من هزله ، خاصة وان الحديث بهذه الطريقة عن بعض الاشياء معهود لدى الادباء من عهد ابي دلالة وبغلته التى ذهبت مثلا فى النقائض والعيوب ، على ان جو الاديب اذا كان مرحا طروبا لا يخلو من بعض هذه الالتماعات التى تكشف عن جانب من شخصيته ويجب تلمحها لمعرفة آفاق ادبه والاهتداء بها لدراسة ادب العصر .

الجيل الجديد

سواء كان الجيل حصة من الزمن أو طائفة من الناس ، فإننا بعد سنة 1930 أصبحنا نواجه جيلا جديدا حقا لقد استدار الزمان فولى وجهه شطر الشرق ، وكانت حضارة الغرب قد استهوت . فوقف مشدوها تجاهها لا يلوى على شيء . ان أحداثا عظيمة وقعت في بلاد أوربا جعلت قوتها تضعف ، والاستعمار يتخاذل فلم يكن بد من انكشاف الزيف وظهور العوار . الثورة الاشتراكية التي تثبت أقدامها في بلاد الروس ، وجعلت ترفع أعلامها في كثير من البلدان الأخرى ، والحكم الفاشي ثم النازي الذي ذر قرنه في بحبوحة أوربا وزرع القارة بتهديده واستطالته . وجمعية الأمم المنهارة لعجزها عن التوفيق بين مصالح الدول القوية وحقوق الشعوب المستضعفة ، كل ذلك مما نشر الذعر في نفوس المستعمرين الأوربيين وحول السياسة الاستعمارية نحو تفهم الرغبات الوطنية لدى البلاد المستعمرة نشدانا للسلام ، وخوفا من تفكك جهازها الدفاعي الذي تعد المستعمرات من أهم دعائمه .

وبقدر تراجع الاستعمار ، واضطراب أمر الدول الأوربية كان تقدم الحركات الوطنية في بلاد الشرق وانتظام عملها ، فقد ثارت الهند ثورتها التي لم تنفخ الا باستقلالها وميلاد دولة باكستان الإسلامية ، وجددت بلاد العرب ثورتها على التدخل الأجنبي في شؤونها الخاصة . وفي المغرب بدأت الحركة الوطنية تبرز للميدان في شكل هيئات سياسية تطالب بالاستقلال وانهاء عهد الحماية . ان ما لم تحققه الثورة المسلحة بدا العمل السياسي يجرب حظوظه للعمل من أجل تحقيقه .

وكان الحافز الأول لظهور الحركة الوطنية بمظهر المقاوم الجاد ، حادثا سياسيا خطيرا اراد المستعمرون به ان يقسموا المغرب الى قسمين ،

تسم يخضع للتشريع الاسلامى وقانون الفقه المالكى المعمول به فى المغرب ، وهو المدن وبعض القبائل التى تتكلم اللغة العربية . وقسم استحدثوا له قوانين مستمدة من بعض الاعراف الجاهلية ومطعمة بالقانون الفرنسى ، وهو ما يشمل جبال الاطلس والبلاد التى تتكلم اللغة البربرية ، وهو معظم الشعب المغربى . وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى اذكاء النعرة البربرية والتفرقة العنصرية بين سكان المغرب . حتى اذا تم لهم عزل القسم الثانى عن الاول او عزوا اليه بطلب الانفصال عن حكومة السلطان ، وناسيس حكومة خاضعة للنفوذ الفرنسى ، يقاومون بها الحكومة الشرعية للبلاد وما تمثله من مبادئ وقيم ، وفى طليعتها الاسلام والعروبة ، وقد سميت هذه المحاولة بالسياسة البربرية واستصدر لها ظهير سلطانى اى مرسوم ملكى بتاريخ 16 ماي 1930 عرف فيما بعد بالظهير البربرى . واصدار مثل هذا الظهير يبين الى اى مدى كان تغفل النفوذ الاستعمارى فى الحكومة المغربية . الا ان المعارضة التى لقيتها السياسة البربرية بعامة ، سواء من لدن العرب او البربر ، كانت من القوة بحيث لم يستطيع المستعمرون تطبيق ذلك الظهير الا فى جهات قليلة من مواطن البربر . وكان رد فعل هذه السياسة رائعا بالنسبة للحركة الوطنية ، اذ قوى ما بين العنصرين العربى والبربرى من الروابط ، وجعلهما صفا واحدا فى وجه المستعمر ودشائمه .

وكان من الحركات التى نتجت عن هذه السياسة واثارت حفيظة الاستعمار ان وفودا عديدة من قبائل بربرية جعلت تتوارد على الرباط مطالبة بتعيين القضاة الشرعيين فيها ، ومعلنة انها لا تقبل بحال الخضوع للمحاكم العرقية لمخالفتها لاحكام الاسلام . وان البربر ضاعفوا من جهودهم لفتح المدارس العربية فى بلادهم وارسل ابنائهم لانعام دراستهم فى المدن ، ولا سيما العواصم التى تتوفر على مدارس عليا للغة العربية كمدينة فاس حيث توجد جامعة القرويين ، ومدينة مراكش حيث توجد جامعة ابن يوسف وعاصمة الرباط حيث توجد ثانوية مولاي يوسف وغيرها اما الضجة التى احدثها صدور الظهير فى العالم الاسلامى بسبب الدعاية التى قامت بها الحركة الوطنية ضده فقد كانت عظيمة جدا ، حتى انه لم تنق جمعية اسلامية ولا زعيم سياسى فى بلاد العرب والاسلام لم يحتج عليه او يعلن استنكاره

له ، وتناولته الصحف في أقصى بلاد الشرق بالنقد والتزيف . وكان من المعتاد سنوات عديدة انه كلما حلت ذكره السنوية تقيم الجمعيات المختلفة والمعاهد الاسلامية والمنظمات الطلابية في الشرق ، مهرجانات خطابية حافلة تعبر فيها عن تضامنها مع الشعب المغربي في تمسكه بوحدته الوطنية واسلامه وعرويته .

وغنى عن البيان ان الشعب المغربي على بكرة أبيه كان يقوم في هذه المناسبة بواجبه الوطني اتم قيام ، فمن اضراب عام ، الى مظاهرات صاخبة ، الى تجمعات في المساجد والاندية والدور ، وخطب نارية تلقى في هذه التجمعات مطالبة بالغاء هذا الظهير ومعلنة عدم الاعتراف به ، وبكل ما هو منه بسبيل ، في تهكك الوحدة المغربية ومحو الشخصية الاسلامية والعربية للبلاد . وطبيعى ان هذه الحركة كانت باعنا قويا للنشاط فكرى عظيم تنافس فيه الكتاب والخطباء والشعراء فنشرت عدة كتب ، وآلاف المقالات ، ونظمت القصائد التي يخطئها العد ، في تحميس الشعب للقيام ضد هذه السياسة المشؤومة ، وبيان ما تنطوى عليه من دسائس استعمارية ، ودحض مزاعم الذين وضعوها من غلاة المستعمرين الطاعنين في عروبة الشعب المغربي والقائلين باستغنائهم عن الشرع الاسلامى ، بما له من تقاليد وأعراف قديمة في الحكم والقضاء . وهذا الجانب الادبى من النشاط الذى بعثته هذه الحركة هو ما يهمننا في احاديثنا هذه ..

واغتنمت الحركة الوطنية فرصة التضامن الذى مكن له الظهير البربرى بين عناصر السكان ، فاجدت باتفاق مع جلالة الملك المرحوم محمد الخامس مناسبة جديدة لتجسيم الوحدة المغربية وتثبيت السيادة الوطنية هي مناسبة جلوسه على العرش المغربى في 18 نوفمبر 1927 للاحتفال به ، فكان عيد العرش الذى صدر به قرار وزيرى في سنة 1934 مظاهرة وطنية تقام كل عام في جميع المدن والقرى ، القصد منها دعوة جميع المواطنين للالتفاف حول العرش المغربى والجالس عليه تمسكا بوحدة البلاد وابرازا لشخصيتها المتمثلة في حكومة السلطان ودولته الشريفة ، وكان محمد الخامس اذ ذاك قريب العهد بالجلوس على العرش ، وما يزال في فناء من سنه ، ولكن شعوره الوطنى العميق وحصانته السياسية التى

ظهرت بعد بأجلى مظهر كانا من العوامل الاساسية التى دفعت بالحركة الوطنية الى الامام فى هذه الخطة الحكيمة وفى غيرها من الخطط والاعمال التى قامت بها لصالح الوطن بتأييد منه ومؤازرة .

ان عيد العرش كان فى الاول مظاهرة وطنية ، ثم صار بعد ذلك موسما ادبيا تنجز فيه اعمال ادبية رائعة . فمن مقالات فى تاريخ الدولة المغربية وعظمة العرش المغربى ، الى خطب فى تمجيد الوطنية وجمع المواطنين على خدمة الاهداف المقدسة التى ترمى اليها ، الى قصائد فى مدح الجالس على العرش والتتويه بمشاريعه الاصلاحية ولا سيما فى التعليم والنهوض بالفتاة المغربية وانعاش الاقتصاد المغربى بحيث لما تقدم الامر بهذه المظاهرة احدثت جوائز مالية تدفع للمجيدى فى الانتاج الادبى الذى يصدر عن الادباء شعرا ونثرا فى كل سنة بمناسبةها . وحدث بعد سنوات قليلة من وجود عيد العرش ان صار الملك نفسه يحتفل به فى القصر الملكى احتفالا يحضره وجوه البلاد وكبار الشخصيات ويلقى فيه الملك خطابا رائعا يتحدث عن اعمال الدولة ومنجزاتها التى تكون فى صالح الشعب ، ويطالب بما يراه ضرورى التنفيذ من الاصلاحات السياسية وغيرها ، حتى تطور الامر الى المطالبة بالاستقلال والحكم النيابى اواخر عهد الحماية .

وكانت الحركة الوطنية فى هذه الاثناء قد حضرت مشروعا للمطالبة بحقوق الشعب المضمومة ، وبانتهاج سياسة اصلاحية تتناول جميع شؤون الادارة والحكم وقدمت هذا المشروع الى المراجع المعنية بالامر تحت اسم مطالب الشعب المغربى ، وجندت له جميع القوى الشعبية من علماء واساتذة وطلبة وتجار واعيان وفلاحين وصناع وعمال وغيرهم ، فابدته جميع الطبقات وطالبت بتنفيذه . وتوالى الضغط على حكومة الحماية من كل جهة ، قصد الدخول فى مفاوضات مع الوطنيين من اجل هذه المطالب وبما ان المشروع كان يستهدف بسط يد الحكومة المغربية وجعل حد للحكم المباشر الذى كان يقوم به ممثلو سلطة الحماية ، فان هذه الاخيرة لم تجد وسيلة للتخلص من الحاح الوطنيين الا قمع حركتهم وفتح السجون فى وجه الكثرة الكاثرة منهم ، والتطويع بقادتهم الى المنافى السحيقة فى داخل المغرب وخارجه . وكان هذا التصرف بمثابة اشعال النار فى يابس الحطب ،

فاردادت الحركة الوطنية قوة وانتشارا ، وتخطت المطالبة بالاصلاحات الى الاستقلال التام . وذلك عقيب الحرب العالمية الثانية . وبقيّة قصة الكفاح السياسى معروفة فقد استمرت المشادة بين الطرفين المغربى والفرنسى الى ان ركبت فرنسا رأسها وكنست الميدان من جميع القادة الوطنيين . ثم انزلت محمد الخامس عن العرش وابعدته الى جزيرة مدغشقر ، فكان ذلك ايذانا بانطلاق المقاومة المسلحة التى ارغمتها على الاعتراف بحق المغرب فى حريته واستقلاله ، وارجعت اليه ملكه الشرعى معززا منصورا .

وغير خاف ان هذا الكفاح السياسى الطويل كان مقرونا بكفاح آخر فى الميدان الثقافى لا يقل عنه تأثيرا وفعالية فقد قويت حركة الاقبال على التعليم وانتشرت المدارس الوطنية فى طول البلاد وعرضها ، وكثرت البعث العلمية الى اوربا والشرق العربى . ونظمت الدراسة بجامعة القرويين وادخل عليها اصلاحات مهمة ، مما حصل معه تقدم كبير فى الحياة الادبية وتطور فى مفهوم الادب ، ارتفع معه عن الابتذال الذى كان ما يزال عالقا به الى حقبة فجر النهضة المتقدمة . وكان للصحافة الوطنية التى نمت فى هذا العهد نموا ظاهرا وخاصة الادبية منها ، يد طولى فى توجيه النهضة الادبية ورعايتها ، لا سيما وقد انبرت الاقلام المثقفة لنقد الانتاج الادبى علنا لاول مرة . وكان النقد قبل ذلك قليلا وانما يقع فى المجالس الخاصة . فلما كثر واصبح ينشر فى الصحف السيارة ، صار الادباء يعرفون ما يقولون ويحرصون جهدهم على الاجادة وهكذا قل التطفل على الادب ، ولم يبق يدعيه كل من هب ودب .

وكان للاديب محمد بن عباس القباچ فضل السبق فى هذا المضمار ، فانه الذى اقتحم معركة النقد اولا بمقالاته القيمة التى كانت تنشرها له مجلة المغرب تحت عنوان لذعات بريئة . وقد قومت هذه المقالات من زيغ المقاييس الادبية التى كانت متبعة اذ ذاك ، واحداثت ضجة كبيرة بين الادباء المخضرمين الدين كانوا قليلى الاطلاع على الانتاج الادبى الجديد فى الشرق العربى . ثم قام هذا الاديب الى جانب ذلك بتأليف كتاب عن الادب المغربى يضم آثار نخبة من الادباء المعاصرين ، شيوخا وشبابا . فوضع بذلك اللبنة الاولى لدراسة الادب المغربى الحديث وقد نشر هذا الكتاب فى جزئين لطيفين منذ اكثر من

ثلاثين سنة ، باسم الادب العربي في المغرب الاقصى .

اما الصحافة الادبية التي كانت تتعهد نهضة الادب والفكر بعامه ، فانها مجلة السلام ومجلة المغرب الحديدي ومجلة رسالة المغرب ومجلة الثقافة المغربية وسواها . والاولى كان يصدرها الاستاذ محمد داود والثانية للاستاذ المكي الناصري والثالثة انشاها حزب الاستقلال والرابعة لحزب الشورى . وتعتبر هذه المجلات سجلا للحركة الادبية في هذا العهد يحتوى على احسن الآثار التي انشأها ائلام الابداء البارزين من الجيل الجديد .

وبتصفح هذه الآثار وتصنيفها نجد ان الحصاد الادبي لهذا الجيل ، اصح من الفنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استقم العناصر الاولى للادب الحى . وانه شق الطريق للحاق ثقافة البعث الادبي في العالم العربى . ففى النثر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والادبية ظهرت البحوث الموعودة فى الفلسفة والفن والنقد ، وبلغت الخطابة السياسية اوج الكمال ، وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والانصوصة والقصة ، وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية . وفى الشعر استنحل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستفحال حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الاجنبى ، وتذكير الشعب بمجده ، وتاريخه العظيم ، وتحول الشعر العاطفى من تهاة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانية صادقة وجمال الشعراء فى ميدان الطبيعة ، وحلقوا فى مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلى فى مسرحيات صغيرة تعتبر كنواة لهذا اللون الجديد فى الشعر العربى . الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التى اكسبت الادب المغربى منوره ومنظومه بسيطة فى الشكل والمضمون لم يعرفها من قبل . وهكذا لم يبق الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ، ولا تجزية للوقت عند من لم ينزل بآدبه لمستوى الشعراء المداحين والكتاب المتكسبين ، بل صار دعوة ومذهبا ، وفنا رقيقا تتمثل فيه الحياة الانسانية باهوائها ومطامحها والكون بجماله ونظامه . واصبح الاديبي صاحب رسالة سامية ومكانة مرموقة فى المجتمع بصفته احد قادة الفكر ورائدا من رواد الاحياء والتجديد

ولا نغنى ان الادب المغربى بلغ كماله ، ولا ان الاديب المغربى ادى مهمته كاملة ، وانما نغنى انهما اصبحا على الطريق ، وصارا على ميعاد مع قافلة الادب والادباء فى الشرق العربى . اى ان المغرب طوى مراحل التخلف التى كانت تعدت به عن اللحاق بركب النهضة العربية فى اول هذا القرن ، ولم يبق مع الخالفين .

وحرصنا على تلاقى المغرب والشرق العربيين ، لايماننا بان الاتجاه واحد ، وان نهضة الادب الحديث ساهم فيها جميع الاقطار العربية ، فهى منطلق الفكر العربى لا بقيد كونه شرقيا او مغربيا . ومن الخطأ ان نميز عمل اى بلد عربى فى هذا الصدد ، سواء كان سابقا او لاحقا ، لان طابع العروبة لا يوجد الا حيث تلتقى جهود العرب كافة . ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى ، برغم ما قيل فى توجيهها والتنويه بآثارها . والذى يتحقق يوميا هو ان الادب العربى يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد ، وان انصار الاقليمية ينهزمون دائما فى ميدان السياسة وميدان الادب على السواء . لان امر العرب الى وحدة وكلمتهم الى جمع . والفوارق الطفيفة التى توجد بين مجتمعاتهم المحلية لا تبلغ من القوة ما يجعلها تغير وجه الادب فى اى قطر عربى عما هو عليه فى قطر آخر شقيق ، كما ان الحدود المصطنعة التى فرضت على بلاد العرب لم تستطع ان تحول بين الشعوب العربية والاتجاه نحو الوحدة السياسية الكاملة .

ان الادب العربى وحدة لا تتجزأ ، وان ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الادباء العرب ، والتيارات الفكرية الحديثة التى طرات على الادب العربى بواسطة الترجمة عن الاداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة . وليس شئ منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك . ولا نستدل الا بان اى مذهب او اتجاه ظهر فى بلد من بلاد العرب ، لا يلبث ان يتردد صدها فى بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد ابناء العرب كلهم . كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنشى التى ظهرت فى المشرق تجد من ابي القاسم بن هانىء راعيا لها فى الاندلس حتى سمي بمتنبسى

المغرب . وكان المحترى يتمثل في ابن زيدون ، والمعري وابن شهيد يكادان يردان من منبع واحد ، هذا في رسالة التوابع والزوابع ، وذاك في رسالة الغفران . ولما طهر التوثيح في بلاد المغرب وراجت سوقه بين الادباء المغاربة ، لم يلبث ادباء المشرق ان اقتبلوا عليه واهتبلوا به حتى الفوا فيه الكتب الخاصة . وكذلك كان الامر في العصر الحاضر . فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجري من انتاج الادباء اللبنايين والسوريين المستوطنين في الامريكيتين حتى انتشر في العالم العربي وتعاطاه الادباء هنا وهناك . وفي فجر ظهوره وانتشار آثار اعلامه كجبران خليل جبران وامين الريحاني وميخائيل نعيمة وغيرهم ، كان عندنا في طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ويضرب على تلك النعمة ، حتى لتحسبه احد رواد ذلك المذهب .

واليوم تشهد الشعوب العربية جميعا نشوء طريقة جديدة في نظم الشعر ، هي طريقة الشعر الحر ، التي تحمى لها ادباء الشباب ، وتداعوا اليها من كل قطر ، فهل يدل ذلك الا على ان روافد الادب العربي تصب في نهر واحد وان تباعدت اقطار العرب وتوزع سكانها ما بين مشرق ومغرب . والمقصود من هذا اننا لا نقدم ادبا مغربيا متميزا بشيء عن الادب العربي العام لانه جزء من كل ولا نقوم بدراسة تعتمد على شخصيات الادباء المغاربة اكثر مما نعتد على الخطوط العريضة التي ينال منها سجل الادب الحديث في العالم العربي اجمع . ومن اجل ذلك نشير في الفينة بعد الفينة الى تلاقى ادبائنا وادباء الشرق العربي ، اذ كان اتجاه الجميع واحدا .

وشيء آخر نريد ان نقرره لنلا نقع في محذور سوء التقدير . وهو اننا لا نرى اخضاع ادبنا لمقاييس النقد الغربية باطلاق ، ولا ربطه بمدارس الادب الاوربي من رومانسية وواقعية وغيرها ، فضلا عن تقسيمه الى اقسامه كتقسيم الشعر الى غنائي وتقصي وتمثيلي . ذلك لاننا من اعدى اعداى التقليد في العقيدة والمذهب ، فاحرى في الادب فكيف نسرف فيه هذا الاسراف ، حتى نأخذ انفسنا بتأثر خطى غيرنا فيما نعدده مرآة لشعورنا وتعبيرا عن ذاتنا ؟ لا سيما وبعض هذه الاسماء اجنبى عن لغتنا كالرومانسية ، لم يستطع مقبسوه ان يترجموه . فبقى موها بنسبته هذه

غير ما يراد منه ، فاحتاج الى التفسير والبيان . وبعضها وان كان مترجما كالشعر الفنائى فانه لا يطابق مدلوله اللغوى عندنا الا بتمحل وتكلف . واذا تبيل ان هذا اصطلاح ولا مشاحة فيه ، قلنا ان ذلك صحيح لو كان الاصطلاح اصيلا لا دخيلا . وما ابعد ما بين معنى الغناء فى العربية وشعر المدح والهجاء مثلا الذى يندرج تحت هذا الاسم . وهل عجزت العربية ان توجد لهذه الابواب من الشعر اسما جامعا يشملها اذا كان لا بد من ذلك ؟

ولسنا كما قلنا فى حديث سابق ننكر الاقتباس من آداب الامم الاخرى وثقافتها فيها تدعو اليه الحاجة ، ويخصب تراثنا الفكرى كالشعر القصصى والتمبلى الذى كان ادبنا خاليا منه . ولكننا ننكر الاسفاف الذى يبلغ الى حد اقتباس التقسيمات والاصطلاحات التى لا تنطبق على انتاجنا الادبى مطلقا . فاسم الشعر الفنائى اذا كان له ما يبرره عند النقاد الاوربيين حين اطلقوه على هذه الاغراض الشعرية التى ليست بقصص ولا تمثيل ، من ان الشاعر — كما يقال — كان ياخذ قيثارته ويفنى عليها اشعاره لمدوحه او معشوقته ، فان الشاعر العربى لم يكن يفنى اشعاره قط . وانما كان ينشدها فى تعازم واعتداد بنفسه وهو قائم او راكب على ناقته كالخطيب او القائد الذى يحبس جيشه . بل ان من الشعراء من كان يشترط على مدوحه ان ينشده جالسا كالمتنبى . فليس عدم مطابقة المدلول اللغوى وحده هو الذى يمنع من اقتباس هذا الاصطلاح ، بل واقع الحال ايضا . ولو اننا اطلقنا على هذه الاعراض الشعرية المختلفة من المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف اسم الشعر الذاتى ، اذا كان لا بد من هذا التقسيم ، لكنا اقرب الى المعنى الصحيح . فانه ما من غرض من هذه الاغراض الا وهو يعبر عن ذات الشاعر واحساسه وانفعاله اصدق تعبير .

وابعد من هذا عن الصواب محاولة ربط الادب العربى بمدارس الادب الاوربى وتطبيق آرائها عليه ، من غير مراعاة للفوارق الجوهرية بين الادبين فى نشأتها وبيئتهما ، وفى فنونهما واغراضهما ، فالرومانسية مثلا لم تسد فى عصر ادبى او تسيطر على طبقة من الشعراء حتى تكون مدرسة مستقلة لها عهد معروف ورواد معروفون كما كان عليه الامر فى اوربا . وكذلك القول فى الواقعية ، فانها لم تخلف الرومانسية عندنا وتعقب على آثارها . وقد نشأ

الادب العربى اول ما نشأ ، واقميا يخوض معارك الحياة ، ويعبر عن ماجريات احوال العرب فى جاهليتهم بصدق واخلاص ، حتى اننا ما عرفنا كثيرا من حقائق تاريخهم الا عن طريق هذا الادب . وكذلك كان الامر فى صدر الاسلام والعهد الاموى . ثم رجع جانب الرومانسية فيما بعد ذلك ، ولكن من غير أن يخفت صوت الواقعية ابدا وحسبنا بادب المعرى تقريراً لهذا المذهب واعلاء لشأنه فى القرن الرابع وهكذا بقى الامر يتراوح بين النزعتين عند الادباء الى وقتنا الحاضر .

والملاحظ فى العموم ان قلة من ادبائنا هم الذين غلبت عليهم النزعة الرومانسية . واما الكثرة منهم فانها كانت تشارك فى الاحداث وتعيش واقع الحياة . ولا يخفى ذلك فى آثارها الادبية على من يتحفى بتتبعها ويهتم بدراستها . فان كثيرا مما صورته من الوقائع وسجلته من الحقائق ، يوجد فى غير مظانه ، وفى اثناء الاعمال التى توهم بظاهرها انها ذات اتجاه رومانسى والادب العربى كم يخفى فى ادراجه من درر ثمينة ما زالت لم تجد الناقـد الجهد الذى يبحث عنها ويجليها للناس .

والذى يظهر ان ما بين المذهبين اقرب من ان يجعلهما متدافعين ، فنجدهما يتواردان على كثير من الادباء فيظهر اثرهما فى منتجاتهم الادبية ، ويصعب بذلك ردها الى هذا المذهب او ذاك ؛ واكثر ادبائنا الواقعيين اليوم ، لا يلبث ان يستحيل رومانسيا اصيلا كلما غنى همومه واحزانه . فنحن بهذه الظاهرة العامة ولحرصنا على عدم اخضاع الادب العربى لمقاييس النقد الاجنبية عنه ، لا نعطى امثلة من ادب المغرب تعتمد احدى النزعتين او غيرها من النزعات التى تشيع فى الادب الغربى ، بمعنى اننا لا ندرس ما تقدمه من ادب هذا الجيل الاعلى اسس النقد العامة . وان لم يكن به مقر فى ناحية من تلك النواحي . معتقدين ان بلوغ الادب العربى الى اوج كماله هو الذى سيقدر قواعد النقد الجديدة الخاصة به ، ويجعل حدا لهذه الفوضى الادبية التى تضل اكثر مما تهدى .

واذ اوضحنا معالم النهضة الادبية لجيل المغرب الجديد على الاجمال ، وبيننا الطريقة التى نتناولها بها عند العرض المفصل ، فلنشرع فى بيان اوجه

النشاط الفكرى العام ، لتفخلص منه الى الانتاج الادبى الخالص ، كما فعلنا فى المرحلتين السابقتين ولقد كان النشاط قويا ومتنوعا ويمتاز عما سبقه بحيوية موضوعاته ومنهجية أبحاثه واستجابته لمطالب الحياة الجديدة من سياسية واجتماعية وثقافية .

وكانت المجالات التى ذكرناها آنفا نرعى هذا النشاط وتوجهه . وبجانبها عشرات الجرائد التى فتحت صفحاتها للمقالة الادبية والشعر والقصة وسائر ضروب الانتاج الفكرى وبهنا هنا الابحاث الكاملة والكتب المؤلفة فى مختلف الموضوعات .

ونتيجة لما كانت البلاد تمر فيه من اطوار سياسية غير عادية فقد كان الموضوع الذى استبد بنشاط الاكثريّة من الكتاب وبكر بالظهور فيه عدد من المؤلفات هو موضوع السياسة . وللاستاذ المكي الناصرى فيه سابقة معروفة فقد أخرج كتاب فرنسا وسياستها البربرية فى المغرب الاقصى ، الذى فضح اسرار السياسة البربرية وسجل اهم المستندات التى بنيت عليها هذه السياسة . من أقوال كبار المستعمرين ، ومباحث ضباط الاستعلامات ، والنصوص القانونية التى اعطتها صفة المشروعية . وناقش ذلك كله بما اطله ، واثبت انه لا قيمة له من الناحية العلمية والتاريخية . وان كل قوته مستمدة من سياسة فرق تسود .

ومعلوم ان السياسة البربرية كانت هى الشغل الشاغل لكل المغاربة فى اول هذا العهد كما سبقت الاشارة لذلك فجاء هذا الكتاب سادا لفراغ عظيم وفى وقت الحاجة اليه . اذ كانت الكتب الفرنسية فى الموضوع تعد بالعشرات ، على حين لا يوجد كتاب واحد بالعربية ينقض مزاعم الخصوم ، ويقرر حقيقة هذه السياسة للجماهير العربية والاسلامية .

وأخرج كذلك كتاب الاحباس الاسلامية فى المملكة المغربية . وهو كتاب له اهميته السياسية من حيث ان الاستعمار الفرنسى حاول الاستيلاء على املاك الاحباس وتمليكها للمعمرين الفرنسيين . وبالفعل سطا على كثير من هذه الاملاك وخاصة منها الاراضى ذات القيمة الفلاحية الممتدة . وأخرج الاستاذ الناصرى كتاب موقف الامة المغربية من الحماية الفرنسية ، وهو

يتناول بالبحث معاهدة الحماية الفرنسية والظروف التي فرضت فيها على المغرب ، وقيمتها من الناحية القانونية ، والمعارضة الشديدة التي لقيتها من جميع المغاربة ، وخرق فرنسا لهذه المعاهدة بمباشرتها للحكم في البلاد ، مما أدى الى تكتل الامة المغربية ومقاومتها للاستعمار الفرنسى بكل الوسائل.

وكان للاستاذ علال الفاسى اليد الطولى في الابحاث السياسية التي تتعلق بالقضية المغربية . وكتابه الحركات الاستقلالية في المغرب العربى كما يفهم من اسمه لا يختص بالتاريخ للقضية المغربية ، بل يتناول كذلك قضية احتلال الجزائر وتطور الاستعمار بها والمقاومة العنيفة التي لقيها من السكان سواء في الميدان السياسى او الحربى . كما يتناول القضية التونسية منذ نصب الحماية الفرنسية على تونس وقيام الحركة الوطنية في هذا القطر والكفاح الطويل الذى قامت به في سبيل الاستقلال ، وارتباط قضايا المغرب العربى بعضها ببعض مما لا يخفى به . فلذلك كان تناولها بالبحث في كتاب واحد مثل الحركات الاستقلالية من الاعمال الموفقة . واصدر الاستاذ كذلك كتاب حديث المغرب في المشرق وهو يتضمن الاحاديث التي القاها في البلاد العربية الشقيقة تعريفا بالمغرب وقضيته الوطنية .

اما كتاب النقد الذاتى للاستاذ فهو اكثر من كتاب سياسى . انه والحق يقال منهاج للحكم والادارة والاصلاح الاجتماعى يضعه علال الفاسى نصب عين المكافحين من اجل استقلال المغرب ليستفيدوا منه في بناء مغرب جديد لا مجال فيه للانانية ولا للفوضى . وسيبقى اثرنا شاهدا بعبقريه جيل النهضة ، واصالة الحركة الفكرية في هذا العهد الى ما شاء الله .

والكتابات السياسية حول القضية المغربية اكثر من ان نحصر فيها ذكر ، ولا سيما ما هو مغرق منها في الصحف والمجلات لم يجمع في كتاب . واهمه ما كان بأقلام القادة الوطنيين الذين خاضوا غمار المعارك السياسية كالاستاذ محمد بن الحسن الوزانى الذى هو في مقدمة الساسة الوطنيين وكذا الاستاذ عبد الخالق الطريس والحاج محمد بنونة والحاج الحسن بوعياذ وقاسم الزهيرى واحمد بن سودة ومحمد العربى الزكارى وغيرهم .

وفي ميدان البحث الادبى والتاريخى نشر الاستاذ محمد الفاسى عشرات

الابحاث وتراجم عظماء الرجال الذين انجبهم المغرب ، في مختلف العلوم والفنون . الا ان هذه الابحاث ويا للأسف مبعثرة في مختلف الصحف والمجلات ، ولو قدر لها ان تجمع في كتاب لكانت رصيذا ضخما للطلبة والباحثين يرجعون لها في دراستهم وابحاثهم .

ونشر الاستاذ عبد الهادي بوطالب في هذا الصدد كتابه وزير غرناطة ، وهو ترجمة أدبية تنهج نهج القصة لحياة ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب . وكذلك نشر الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله بالاشتراك مع الاستاذ محمد بن أبي بكر النطواني كتابا قيما عن حياة هذا الوزير وكتبه ، يعتبر في نظر النقد العلمى الترجمة الجامعة المحررة لهذا الاديب الاندلسى الكبير . وللأستاذ ابن عبد الله أعمال أخرى ذات قيمة رفيعة منها كتابه عن مظاهر الحضارة المغربية ، ورسائله عن الطب والاطباء بالمغرب وغير ذلك . ونشر الأستاذ رشيد ملين كتابه عن عصر المنصور الموحدي ، وهو العصر الذهبي للحضارة المغربية سلك فيه مسلك البحث المنهجي وجلى مواطن العظمة في شخصية هذا الملك العظيم . كما نشر كتابه نضال ملك الذى شرح فيه بتفصيل سياسية فرنسا في المغرب ، والمقاومة التى كانت تلقاها من طرف الملك محمد الخامس والشعب المغربى . وهو لذلك يعد كتابا سياسيا وتاريخيا فى آن واحد . ونشر الأستاذ محمد المنونى كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين . وهو تاريخ مستوفى للحياة الفكرية ومظاهر الحضارة فى ازهى عصور المغرب . ونشر الأستاذ المهدي الحجوي كتاب حياة الحسن الوزان الفاسى أو ليون الافريقى ، وهو بحث فريد فى اللغة العربية عن هذه الشخصية المغربية الفذة التى كان لها تأثير كبير على النهضة العلمية فى أوربا . ونشر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتاب المنتخب النفيس من شعر ابن خميس وهو ديوان شعر لهذا الاديب التلمسانى الكبير جمعه المؤلف وعلق عليه وعرف بصاحبه فى مقدمة منيدة . كما نشر ترجمة ابن الطيب العلمى الاديب المغربى المعروف ، وترجمة ابى القاسم القالى احد كتاب الدولة الموحدية . ونشر الأستاذ أحمد بلانريج بالاشتراك مع الغير كتاب الادب الاندلسى وهو دراسة مركزة مع بعض المختارات . ونشر الأستاذ عبد السلام الطود كتاب بنو عباد باشبيلية وهو تاريخ مفصل لهذه المملكة الزاهرة من عهد ملوك الطوائف . ونشر الأستاذ محمد بن تاويت

التطوانى بالاستشراك مع الغير كتاب الادب المغربى وهو يتناول بالنقد والتحليل تراجم الادباء المغاربة وآثارهم الشعرية والنثرية . ولهذا الاستاذ بمباحث ادبية وتاريخية كثيرة غير مجموعة . ونشر الاستاذ عبد الله الجرارى كتاب تقدم العرب فى العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا وهو بحث واسع فى هذا الباب ونشر الاستاذ محمد ابن عثمان المراكشى (ت 1364) كتاب جامعة ابن يوسف فى تسعمائة سنة ، ج ل . ونشر الاستاذ عبد السلام ابن سودة كتاب دليل مؤرخ المغرب . وهو مرجع هام لجميع ما الف عن المغرب من الكتب التاريخية والجغرافية وما اليها قديما وحديثا .

وفى خصوص تاريخ المغرب الف الاستاذ التهامى الوزانى كتابه تاريخ المغرب فى ثلاثة اجزاء ، والجزء الثالث مهم جدا لانه يتناول حقبة من هذا التاريخ قل من تعرض لها وهى ما قبل الحماية وبعدها والحرب الريفية وله ايضا كتاب المغرب الجاهلى تكلم فيه على تاريخ المغرب قبل الاسلام . . ولهذا الاستاذ عدة مؤلفات منها كتاب الزاوية وهو مذكرات طريفة عن شبابه . ولا نتعرض للكتب المدرسية فى تاريخ المغرب او جغرافيته فهى كثيرة وليست مما يدخل فى نطاق هذا البحث كبقية الكتب المدرسية فى مختلف العلوم . وفى تاريخ الاقاليم نشر الاستاذ محمد العبدى الكانونى (ت 1357) كتاب آسفى وما اليه وهو بحث قيم يتناول تاريخ هذه المدينة وناحيتها وتراجم الرجال النابغين منها . ونشر الاستاذ محمد داود اجزاء من تاريخه الكبير لمدينة تطوان وهو يحتوى على عشرة مجلدات ضخام ويتضمن وثائق ومستندات ونصوصا لا توجد فى غيره ، مع دراستها وتحليلها واستخراج النتائج المفيدة منها . ونشر الاستاذ المختار السوسى كتابه الكبير الذى سماه بالمصول عن تاريخ اقليم سوس وعادات اهله واخلاقهم وتراجم رجاله ، وهو يقع فى عشرين جزءا كبيرا يكاد المرء لا يصدق انها كلها خاصة باقليم صغير من اقاليم المغرب مع انها كذلك ، ولهذا الاستاذ كتب اخرى عامرة منها سوس العالة وقد صدر بالطبع ، وخلال جزولة وهى رحلة فى هذه القبيلة الشهيرة صدرت فى اربعة اجزاء لطاف ، وغير ذلك مما هو قيد الطبع .

ولغير هؤلاء ابحاث كثيرة منشورة فى الصحف والمجلات لو امكن تصنيفها واخراجها فى كتب لاطلع قارئوها على نشاط فكرى عظيم فى مختلف الميادين من ادب وتاريخ وفلسفة واجتماع وغير ذلك . ومن المم الاسماء التى لها

آثار في هذا الصدد الاساتذة محمد غازي وعبد الله ابراهيم ، وسعيد حجي (ت 1361) وعبد الهادي الشرايبي وعبد الكبير الفاسي ، وابراهيم الكتاني والدكتور تقي الدين الهلالي والهاشمي الفيلالي وعبد الهادي القازي ، وعلال الجامعي ، ومحمد الطنجي ، ومحمد اباحيني ، واحمد بناني ، وعبد السلام العلوي ، ومحمد عزيمن ، وحسن السائح ، والمهدي البرجالي ، والعايد الفاسي وسعيد اعراب ، وادريس الكتاني ، واحمد زياد ، ومحمد الحبيب ، وعبد اللطيف الخطيب ، وعبد القادر زماتة ، وعبد القادر الصحراوي ، وعبد السلام الهراس ، ومحمد برادة ، ومحمد زنيير ، وعبد الله العمراني ، وادريس ابن جلون وغيرهم . ولا نغني اصحاب الاعمال الادبية الخالصة هؤلاء سنتحدث عنهم فيما بعد .

واعمال اخرى تدخل في نطاق البحث والانتاج ، وهي تحقيق الكتب القديمة ونشرها . وقد قام الجيل الجديد بحركة من هذا القبيل لا تقصر عن مثيلاتها في أي بلد من البلاد العربية ، وممن له القدح المعلى في ذلك الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي وقد اشتهر بكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، الذي حققه تحقيقا كاملا وعلق عليه تعليقات في غاية الافادة . ونشر كذلك رسالة شفاء السائل لابن خلدون بتحقيق تام ومقدمة قيمة . كما نشر كتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاتدلس للحميدى . ونشر الاستاذ محمد بن تاويت التطواني كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني مع تعليقات مفيدة ومقدمة ضافية في تاريخ البلاغة . ونشر الاستاذ محمد الفاسي كتاب المعجب للمراكشي مع مقدمة وتحقيق للنص . كما اخرج الاستاذ محمد العربي العلمي طبعة اخرى منه محققة تحقيقا جيدا بالاشتراك مع الغير . واخرج الاستاذان علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس (ت 1380) الجزء الاول من تاريخ ابن خلدون بتحقيق كامل وتعليق عظيمة الفائدة . وحقق الاستاذ الهاشمي الفيلالي كتاب القرطاس لابن ابي زرع وعلق عليه واخرج منه نحو ثلثيه في جزئين لطيفين . واخرج الاستاذ محمد وجعفر الناصريان كتاب والدهما الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى في طبعة جديدة محققة ومقدمة تقديميا طيبا . ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور كتاب روضة النسر في دولة بني مرين لاسماعيل بن الاحمر . وكتاب روضة التعريف بهفاخر السلطان مولاى اسماعيل بن الشريف لمحمد الصغير اليفرنى ، وكتاب

العز والصولة في معالم نظام الدولة لعبد الرحمن ابن زيدان ، ثلاثها بتحقيق النص والتعليق عليه والتقديم له ، ونشر الاستاذ محمد عزيزان بالاشتراك مع الغير كتاب الفلاحة لابن بصال مع مقدمة وتعليق وترجمة النص الى اللغة الاسبانية . ونشر الاستاذ التهامي الناصري كتاب الفلاحة لابي الخير الاندلسي بالتعاون مع السيد محمد الرسمى .

ولعل الترجمة من اهم ما تشمله هذه الحركة . والاعمال التى تستحق الذكر من ذلك هى كتاب مدنية العرب فى الاندلس لجوزيف ماكيب ترجمة الدكتور تقى الدين الهلالي مع تعليقات ضافية له . وكتاب مفكرو الاسلام لكارادونو الحلقة الاولى المتعلقة بالفلسفة الاسلامية والفرق وكتب الفزالى، ترجمة محمد عزيز الحبابى مع تعليقات وزيادات فى المقارنة بين آراء الفزالى وغيره من الفلاسفة القدماء والمحدثين . وكتاب علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالاندلس للدكتور مياس ترجمة عبد اللطيف الخطيب الى غير ذلك من منشورات يطول الامر بتعدادها وترجمات تكتسى صبغة أدبية او صحفية لا شأن لنا بها هنا .

ان ما فكرناه من هذه الاعمال فضلا عما نسيناه ليدل على ان همة هذا الجيل لم تقصر عن مطلب فى سبيل بعث الثقافة العربية وتجديدها بالمغرب ، خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ربع قرن . وكان اكثر المراد هذا الجيل مع ذلك منهمكين فى العمل السياسى والكفاح الوطنى الذى كثيرا ما كان يؤدى بهم الى السجون والمنافى البعيدة فتعطل أعمالهم ويقف نشاطهم ولكنهم لا يعرفون للكلال معنى فما ان ينسمون نسيم الحرية حتى يعودوا الى مجال عملهم انشط ما كانوا قط ، وبذلك استطاعوا ان يؤثروا مثل هذه الآثار ، وان لهم فى المستقبل لمجالات ارحب واوسع ان شاء الله .

النثر واتجاهاته الجديدة

رأينا مدى التطور الفكرى لدى الجيل الجديد ، والآثار التى انشأها والانتاج الذى صدر عنه فى ميدان البحث الادبى والتاريخى وغير ذلك من المواضيع التى تتصل ببعث الثقافة العربية وتعزيز النهضة العلمية . ولقد كان ذلك التطور بالنظر الى نتائجه سريعا وفعالا ، لانه لم يستغرق الا مدة قصيرة تضيق عادة عن قيام حركة فكرية نشيطة مثل التى وصفنا . فكيف اذا أضفنا اليها الحصاد الادبى الوافر الذى نتجها لدراسته الآن .

لقد انكشفت هذه المدة على قصرها عن حصيلة أدبية طائلة ، منها فى الشعر دواوين مطبوعة وآلاف القصائد والمقطوعات المنشورة فى الصحف والمجلات ، وأعمال أخرى من التجديد الذى يدخل فى باب الشعر القصصى والتمثيلى . ومنها فى النثر عدة مجموعات من الخطب السياسية وغيرها ، وعدة من الكتب ذات الموضوعات الادبية الصرف، ومئات القصص والمسرحيات فضلا عن آلاف المقالات المتنوعة الافتراض كالنقد الادبى والفنى والتراجم والمذكرات والخواطر النفسية وما الى ذلك .

ومعلوم انه ليس كل ما كتب فى هذه الابواب يستحق الاهتمام ، فالمحاولات كثيرة ولكن انظارنا انما تتجه الى ما استكمل الصفات التى تجعله يعد من الكتابة الادبية بحق . كما انه ليس بإمكاننا ان نعطي نموذجا من انتاج كل كاتب ولو كان صالحا ، فالكتاب الذين جاوزوا مرحلة التجربة كثيرون ، منهم افراد متعددون الوجهات مضى ذكر بعضهم مع الباحثين ويذكرون ايضا مع الكتاب والشعراء ومنهم افراد تغلب عليهم صفه الكتابة ولا شأن لهم بالابحاث كمجد المجيد بن جلون وعبد الكريم بن ثابت (ت 1381) وابى بكر اللتوني . ومنهم افراد يكادون يختصون بالكتابة كمجد الكريم غلاب وعبد الرحمن الفاسى ومحمد الصباغ . ولو كنا ندرس الاشخاص لاقتصرنا

على هؤلاء بصفتهم الكتاب الخالص ، ولكنا ندرس الادب المغربي في خطوطه العريضة ، فوكدنا هو ان نمثل اتجاهاته العامة ونترصدها من هنا وهناك بدون اختصاص لفرد من الافراد ، ولا استيعاب للجميع .

و اول ما ننظر فيه من اشكال النثر الادبي الخطبة . وهي بما تؤديه من دور هام في المجتمع وما تختص به من عبارات مؤثرة في النفوس لا سيما اذا اعدت اعدادا لا تنفك عن كونها اثرا من الآثار الادبية الخالصة ، وان تناولت موضوعا غير ادبي وهل يستطيع احد ان ينكر ما لخطب علي بن ابي طالب (ض) وزياد والحجاج من القيمة الادبية برغم موضوعاتها السياسية ؟ لقد اشرنا فيما سبق الى ان الخطابة السياسية في هذا العهد ازدهرت ازدهارا كبيرا ، ولا ادل على ذلك من هذه المجموعات العديدة من خطب المرحوم محمد الخامس وخطب ولي عهده (جلالة الحسن الثاني) وخطب الاميرة عائشة ، وكلها منشور بالطبع . وخطب القادة الوطنيين الذين برزوا في الخطبة مثل عبد الخالق الطريس والمكي الفاسري وعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والحاج محمد بنونة والمهدي بن بركة ومحمد داود وعبد الله ابراهيم وعبد العزيز بن ادريس وسواهم ، وهي منشورة في الجرائد وبعضها مطبوع على حدة .

على ان الخطابة الدينية والاجتماعية تطورت كذلك تطورا عظيما سواء من الناحية الموضوعية او الشكلية فقد صارت تهتم بالمشاكل العمومية والاصلاح الديني والاجتماعي ، ولم تبقى قاصرة على التذكير بالعالم الاخروي والترهيد في الحياة الدنيا ، كما تحسنت اساليبها وتهذبت لغتها بالتنزل الى افهام العوام ونبذ التقعر في الخطاب ومن اشهر الخطباء الذين لهم يد في هذا التطور الاساتذة محمد الطنجي وعبد السلام الفاسي وابد الحفيظ كتون وللؤل مجموعة خطب منشورة باسم وعظ الجمعة .

ونكتفي هنا باعطاء امثلة من خطب الملك المغفور له محمد الخامس . فانه لم يكن ملكا وحسب بل زعيما سياسيا ورائدا من رواد النهضة الفكرية وقد حرك بخطبه السواكن ، واثار الكوامن . وكان خطاب العرش الذي يلقيه يوم 18 نونبر بمناسبة ذكرى جلوسه يهز المغرب من ادناه إلى اقصاه .

نخطبه على هذا لها قيمة ادبية كبيرة بسبب ما نبهت من غفلة ، وقومت من اعوجاج ، وبثت من وعى صادق في نفوس أبناء شعبه الذين كانوا يعتبرونها انجيلا للوطنية ودستورا للعمل من أجل تحرير البلاد لا سيما وهو كان يملئها املاء ويحور أسلوبها بحسب ما يظهر له حتى تأتي مستوعبة لجميع أفكاره وتوجيهاته . ومن ثم كانت متشابهة في الكثير من عباراتها واساليبها . فمن خطبة له في الحضر على التعليم ، « ثبت لدى كل عاقل أن لا اصلاح لاحوال البشر بدون انتشار التعليم الحقيقي النافع فهو اساس العمران ، ومنبع الرشاد لبنى الانسان ، فماذا انفقنا من مال وجهود في سبيله ؟ ان عدد سكان المغرب يقدر بثمانية ملايين ، منهم ما يقرب من ربع هذا العدد فتيان وفتيات ، يتمين علينا جميعا ان نعتنى بتعليمهم وثقتهم حتى اذا ان لهم ان يقتحموا بحار الحياة العملية وجدوا في انفسهم كل الاستعداد اللازم ليكونوا اعضاء عاملين لخير المجتمع نافعين لانفسهم وذويهم ، فكم من هذين المليونين نوجه للمدارس ؟ اننا لا نجد منهم حتى العشر في المدارس . يبقى اذن مليون وثمانمائة آلاف من افلاذ اكبادنا مهملين معرضين للسقوط في مهاوى الجهل والخسران ، لا على مستقبلهم سهرنا ولا الى الواجب علينا قبلهم التفتنا بل تعرضنا بهذه السيرة للقضاء على حياة الامة بسبب بقاء تسعة اعشار ابنائها في الجهل الذي هو عين الموت . فماذا يعالج هذه الحالة السيئة ؟ لا سبيل الى اصلاح احوالنا الا الاقبال بسرعة على العلم الذي ينبغي ان يبذل لا لعدد قليل منا ، بل لجميعنا من غنى وفقير وحاضر وباد ، ومزاوول للصنائع ، ومستعد للوظائف ، ومتعاط للتجارة ، وممارس للفلاحة » .

ومن خطابه التاريخي في زيارته الاولى لطنجة سنة 1947 وهي راحة تحت نير الحماية الدولية هذه الجملة التي تعبر عن ارادته القوية في استرجاع حق البلاد المغصوب ، « اذا كان ضياع الحق في سكوت اهله عنه فما ضاع حق من ورائه طالب . ان حق الامة المغربية لا يضيع . فنحن بعون الله ونفضله على حفظ كيان البلاد ساهرون . ولضمان مستقبلها الزاهر عاملون » .

ومن خطابه في عيد العرش سنة 1950 اثر عودته من فرنسا حيث

حاول ان يجرى مع الساسة الفرنسيين مفاوضات من أجل ابدال معاهدة الحماية باتفاق جديد يحقق للبلاد املها في الحرية ، « لقد جعلنا مقصدنا الاكيد بعد ما لبينا الدعوة الجميلة التي وجهها الينا فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية لزيارة فرنسا ، ان نعرض قضية المغرب على من بيدهم الحل والعقد من رجال الدولة الفرنسية ونسعى معهم في الوصول الى الحل الذي يرضى الرغائب ويحقق المطامح . ولم يكن قط هدمنا من المحادثات السياسية التي اجريناها بفرنسا ان نظفر بتقوية سلطتنا لغاية شخصية وانما قصدنا بمساعيينا وجهودنا صالح البلاد وتقديمها . ولم يغب عنا لحظة واحدة ان افضل حكم ينبغي ان تعيش في ظله بلاد تتمتع بسيادتها وتمارس شؤونها بنفسها هو الحكم الديموقراطى التى تقوم عليه الدول المعاصرة ، والذي يوافق مبادئ ديننا الحر الكريم . لقد عرضنا مطلبنا على من يهمهم الامر من رجال الدولة الفرنسية بالكتابة والقول واضفينا عليه حلة الوضوح والبيان . وذلك بان رغبتنا في ان تبني علاقات المغرب بفرنسا على اسس جديدة وان يقع الاتفاق بيننا على الغاية من تلك العلاقات ، وعلى اسباب الوصول اليها عرضنا هذا المطلب في دائرة الود والصداقة ، وما زلنا نؤمل انه سيظفر في مستقبل الايام بالاذن الصاغية والقبول الجميل . لاننا مقتنعون بان الاساس الذى تركز عليه العلاقات السياسية بين الدول يجب ان يجرى على سنة الكون ، ويساير تطور الاحوال ويراعى تبدل الظروف » .

ومن خطاب آخر له في الاشادة بالهداية الاسلامية والحض على التمسك بحبل الدين ، « ومن من الله على الامة المغربية ان هداها للاسلام بعد ان اتصلت بدول كبار فعرفت مدينتها وحضارتها ، ولكنها لم تستفد من ذلك كما استفادت من هذا الدين الحنيف ، الذى محا ظلام الشرك من جوانبها ، ولم شعث اهلها وامن سريهم ورفع شأنهم والف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله اخوانا . وعلى نصرة الحق اعوانا لا فضل لعربهم على بربريهم ولا لبربريهم على عربيهم الا بالتقوى والعمل الصالح . كلهم مغاربة وكلهم امام الحق والعدل سواء . جمل الاسلام من هذه البلاد امة ودولة ، وزودها بما كانت تصبو اليه من ثقافة ، وما كانت تنوق اليه من حضارة ، فأتجبت رجالا انفاذا كان لهم حظ وافر في بناء صرح المدنية

والعلم ، وتوطيد دعائم العدالة والسلم ، ومكث المغاربة في ظل الاسلام قرونا طويلا احسن الناس حالا ، واعزهم قرارا ، وامنهم دارا ، فاسسوا ملكا شاسع الاطراف ، رفيع العماد ، وأثلوا مجدا رفيعا شامخا ، وخلفوا تراثا قيما راسخا . . لذلك يجب علينا ان نتمسك بهذا الدين القويم ، ونتبع صراطه المستقيم ، ونجثت حبل الخرافات والباطيل والضلالات التى يبتدعها المشعرون والمضللون . لانها كانت ولا تزال من اهم عوامل انحطاط المسلمين بما اشاعت فيهم من تواكل ، وما أحدثت في صفوفهم من شقاق وتخاذل .

هذه نبذة مقتضبة من خطب العاهل الكريم التى تعد بالملئات والتى كان لها فعل السحر في نفوس الجمهور على ما المعنا اليه من قتل ولا نقول في أسلوبها وديباجتها — وذلك ما يهنا هنا — الا ما قاله هو في وصف المطالب السياسية التى قدمها للحكومة الفرنسية ، ونعيد عبارته السابقة في ذلك وهى هذه « لقد عرضنا مطالبنا على من يهمهم الامر من رجال الدولة الفرنسية بالكتابة والقول ، واضفينا عليه حلة الوضوح والبيان » ، نعم انها حلة الوضوح والبيان التى تكتسيها خطبه ، وتعتبر ميزتها الخاصة ، واذا طرحنا من حسابنا ان ملوك العرب المسلمين في المشرق والمغرب لعدة قرون خلت ، كانوا قد عطلوا وسيلة الخطابة في الاتصال بشعوبهم والشرح لسياساتهم ، فانا نجد ان ممارسة الخطابة السياسية من طرف محمد الخامس بهذه الصفة ، نعد ربحا لها وتقدما عظيما . ولا سبها بالاضافة الى ما نفخه فيها القادة الوطنيون من روح البعث والتجديد على ان دائرة الخطابة قد اتسعت كثيرا فشملت سائر الميادين الاجتماعية ، واصبحت زينة المحافل وعدة الرجال في المواقف ، بحيث يتوقف نجاح أى عمل او مشروع على نجاح الدعوة اليه ، والكلمة التى تقدمه للناس . وهذا فضلا عن المحاضرات العلمية والادبية التى تؤسس لها النوادي والمجامع الخاصة . وهى طبعا مما يدخل في باب الخطابة ، ويقوم دليلا ناهضا على تطورها الكامل .

وبعد الخطابة ننظر في المقالة . وهى الشكل الجديد من اشكال النثر الادبي الذى قلنا سابقا انه حل محل الرسالة وقد اصحت وسيلة للتعبير

عن شتى الافكار وشؤون الاجتماع وتضاييا الادب ، وكل ما يمت للثقافة
الانسانية بسبب . واكتست من حسن السبك ، ونصاعة العبارة ما اكسبها
قوة وفودا ، ولذلك كانت المقالة السياسية الى جانب الخطابة السياسية
من امضى سلاح استعملته الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار : كما كانت
المقاومة الادبية الى جانب الخطابة الاجتماعية من الوسائل الفعالة في تثقيف
الشعب وتنمية الوعي القومي لدى الجماهير ، وبعض هذه المقالات لما لها
من قيمة تاريخية او فنية جمعت في كتب ونشرت ، وهى اكثرية الكتب
الادبية الخاصة التى وجدت بالطبع لحد الآن ، ومنها كتاب مارس استقلالك
لعبد المجيد بن جلون وحديث مصباح لعبد الكريم بن ثابت ونبضات فكر
لعبد الكريم غلاب والعبر الملتهب واللهاك الجريح وفوارة الظما وغيرها
لمحمد الصباغ وغير ذلك لسواهم .

والذى نستطيع ان نؤكدده هو ان المقالة في صورتها الحالية بالمغرب
لا تقل قيمة عما يكتب منها في اى بلد عربى آخر ، وانها أصبحت من اجمل
انتاجنا الادبى على الاطلاق . ولو قدر لالوف المقالات المبعثرة في الصحف
اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية ان تجمع في كتب ، لكانت ثروة
ادبية طائلة نضم الى رصيد الفكر العربى الضخم المعتقد به من هذا القبيل
وطبيعى اننى اعنى المقالة التى اوفت على حدود الكمال او قاربتها ، ولا
اقصد كل ما كتب بشكل مقالة . فان فى هذا من السخف والهراء مالا يشملة
كلامنا بحال .

ولتمثيل ما ذكرنا نقدم بعض النماذج للمقالة فى مختلف الموضوعات
التي طرقتها بقدر ما يتسع له المقام . فمن ذلك مقالة سياسية بعنوان
تبع الله الحماية للمكى الناصرى ، « يضحكنى والله ما يقوله المستعصرون
المنافقون فى مهاترة وسفسطة لا حد لهما عند ما يأخذون فى شرح فوائد
الحماية ومنافع الوصاية وما جلبه هذا الاختراع العجيب للانسانية من سعادة
ورفاية وتقدم منقطع النظر لا سيما بالنسبة الى هذا المغرب البائس
المنكوب . وانى لوجه وجهى شطر الحقيقة باحثا منقبا هنا وهناك عن
محاسن الحماية ومزايا الاستعمار فلا ارى فى الحماية الا جناية ما فوقها جناية
ولا ارى فى الاستعمار الا جريمة لا تعدلها جريمة على وجه الارض .

هذه بلادنا المغربية كانت موحدة التراب ، موحدة السلالة ، موحدة اللغة ، موحدة الدين ، موحدة الاقتصاد موحدة السياسة ، موحدة العدالة ، موحدة الحكم ، وبالأجمال موحدة بكل معانى التوحيد ، لا فرقة فيها ولا تشريد فجاءت هذه الحماية ، حماية الغرب المراوغ النافق المخدع المحتال، فمزقت بلادنا شر ممزق ، وقطعت وطننا وأمتنا أربا أربا من كل النواحي ومن جميع الاعتبارات ، وقضت على جميع مقوماتنا الجوهريّة كدولة وأمة ذات كيان قومي وتاريخي خاص ، ووقفت حجر عثرة في سبيل تطورنا الطبيعي ونهضتنا وبين كل ما يفيد شعبنا وأمتنا أو يدفع بهما الى ساحل النجاة والخلاص ، ولم تكف الحماية الدخيلة بهذا كله ، بل خلقت لنا مشاكل جديدة ، واستحدثت لنا متاعب عديدة ، لتقف في طريقنا وتحول بيننا وبين الوصول الى اهدافنا . وضربت الشعب المغربي أجمع بسوط الافلاس والقحط الى ان صرعته او كادت ، ولم يرضها شيء الا ان يموت هذا الشعب ميتة لا يحيا بعدها ابدا .

قبح الله الحماية فهي جناية ما فوقها جناية . وان من علينا بها الحماية زمنا طويلا ورتلوا فضائلها ومزاياها ترتيلا ، واننا لاحق منهم بالمن عليهم فعلى تفانا عاشوا ، ومن دمانا اغتتوا ، ولولانا لكانوا دائما وابدا ثانويين في الحياة الدولية والسياسية العالمية .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون ، جاءت الى بلادنا العزيز بجيش من الصعاليك والمغاليك ليس لهم من الكفاءة ولا من الاستعداد ولا من الرجولة ما يخولهم ان يحتلوا ولو مركزا بسيطا في حياة شعوبهم ، وداخل بلادهم جهلاء بكل معانى الجهل ، شرهين جشعين بكل معانى الشراة والجشع ، قصار النظر في كثير مما يفكرون ويعملون بعيدين كل البعد عن معرفة النفسية المغربية ، وعن فهم العقلية المغربية ، وعن الاحساس بالاماني المغربية . ومع ذلك وكلت اليهم قوة الحديد والنار مصر شعب حر بأسره ، ومستقبل امة عزيزة باكملها ، فماذا يفعل هؤلاء الصعاليك والمغاليك وهم أعجز من العجز ، وابلد من البلادة ، وكل ما يعرفون انهم اقوياء ، فيجب ان يحكموا المغرب وانهم سادة فيجب ان يكون المغاربة لهم عبيدا .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنين هي التي قسمت المغرب الى اجزاء ثلاثة قسمة ضيزى ما انزل الله بها من سلطان ، ثم قسمت الجزء الواحد الى نواحي ومناطق ، ثم قسمت الناحية الواحدة والمنطقة البسيطة الى عشرات الاجزاء والوحدات ، فشئت شمل العرب وشردت المغاربة ، وفرقت ما جمع الله طبيعيا ودينيا واجتماعيا واقتصاديا فكانت الطامة الكبرى على المغرب والمغاربة ، واصبح الجزء الواحد من وطننا ميتا مشلولاً، والعضو الواحد من بلدنا مقطوعا مبتورا . الماء بجانبنا ونحن اليه عطاش لكننا لا نكرعه ، والخبز عن يميننا ونحن اليه جياع لكننا لا نطعمه والسهل امامنا ونحن اليه محتاجون ولكننا لا نزرعه ، والاخ الشقيق بجوارنا ونحن اليه مشتاقون ولكننا لا نستطيع الى زيارته سبيلا .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنين هي التي خلقت اول مشكلة دينية وسلالية وقضائية منذ عرف المغرب التاريخ . فقد كان المغاربة قبل الاسلام موحدين في عقيدتهم وسلالتهم واحكامهم لا يستطيع احد ان يفرقهم ولا ان يمزق وحدتهم ثم جاء الاسلام الطاهر فقوى الوحدة المغربية ، واعطاها غذاء روحيا جديدا ووضع لها اساسا اقوى من كل الاسس السابقة ، فلم يعرف المغاربة المسلمون خلال ثلاثة عشر قرنا سوى شيء واحد هو انهم مغاربة متحدون ديناً وجنساً وقضاء . تجمعهم كلمة الاسلام ، وتظلمهم جميعا راية المغرب ، حتى جاء الاستعمار واعلنت الحماية فظهر على المسرح شيء جديد لم يعرفه التاريخ ولم تؤيده الحقيقة ، ولم يرض به الشعب المغربي في قليل ولا كثير ذلك ان هناك مغربيا اصيلا ، ومغربيا دخيلا ، مغربيا مسلما او في حكم المسلم ، ومغربيا مسيحيا او في حكم المسيحي مغربيا يرضى بالتحاكم الى الشريعة المحمدية ومغربيا يرفضها ولا يرضى الا بالعادات الوثنية الجاهلية .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنين هي التي محت شخصية المغرب بين الدول وحطمت كيان المغاربة بين الامم ، وفرضت نفسها مهيمنة وحاكمة مشرعة ومنفذة ، يدير ابناءؤها الصغير والكبير والجليل والحقير من شؤوننا ويحاسبوننا على النقيير والقطمير ، فهم الحكام ونحن المحكومون وهم اصحاب البلد الاقربون ونحن الغرباء المنبوذون هم الاوائل في الحقوق كلها

ونحن الاوائل فى التكاليف كلها ، لهم الامر وعلينا الطاعة ، لهم الحياة ولنا الموت لهم النصر ولنا الهزيمة ، لهم العيش الغض وعلينا العمل الشاق ، لهم الغنى وعلينا الفقر .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون هى التى نشرت التجسس وحمت الخيانة ، وولقت البطالة وبثت الدعاية واقامت دعائم الاباحية بسكرها وقمارها وزناها السرى والعلنى وروجت فى السوق المغربية بضاعة النفاق والتلق والطمع وشجعت كل خسيس من الاخلاق والعادات ومكنت للباطيل والخرافات ، وولقت كثيرا من مجاهيل المشايخ والسادات ، اصحاب الاضرحة والمزارات لتضل بهم المغفلين والمغفلات من عامة الشعب المغربى المنكوب .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون جاءت بدعوى ترفيها فضايقتنا حتى فى الخبز والماء ، واصبحنا لا نجد لها الا لاما ، وجاعت بدعوى تحضيرنا فنقلت اليها اتبع ما عندها من مفاسد واخلاق وحاربت خير ما عندنا من عادات وتقاليد . وجاعت بدعوى تمريننا على الاقتصاد والحيلة بيننا وبين الاسراف فاعرقتنا فى بحر من الديون والقروض ، وبعد ما وجدتنا مدينين ببعض ملايين اصبحنا اليوم مدينين بمئات المليارات . وجاعت بدعوى انها ستقذنا من عوز ، وتغينا من فقر ، فكانت هى الدائنة والمدينة ، وهى صاحبة القرض والانتفاع منه ، اى انها الغنية والفقيرة والحامية والمحمية ، بحيث لم تترك للمغاربة المساكين من تلك الملايين والملايير الا فتات الموائد وعرق الجبن .

الحماية حماكم الله منها ايها المواطنون جاءت بدعوى انها ستقدمنا وترقينا وتعدنا لحكم انفسنا بانفسنا وتجعل منا فى وقت قريب امة حديثة تادى على السير وحدها فى معركة الحياة الجديدة ، ودولة عصرية كاملة الاجهزة تامة الادوات مستعدة لاحتلال مركزها بين الدول المتحضرة فى اول منصة دون اعتراض ولا جدل ، فبدلا من ان تهتم بتنظيم شؤوننا من اجلنا واجل مستقبلنا اهتمت بتنظيمها من اجلها هى واجل مستقبلها ، فمدفعا هو دفاع الامبراطورية ، وجيشنا هو جيشها ، ومواصلاتنا هى مواصلاتها،

وانتاجنا هو انتاجها وتعليمنا تعليم في صالحها ، وادارتنا ملحقة بادارتها، ووظائفها احتكار مقصور على شبابها ، وكلنا بدمائنا وجهودنا وأموالنا وكفاءتنا مع ما في اصلاص رجالنا وأرحام نساينا حتى احفادنا ملك خالص لسادتنا وحمائنا أبناء السلالة الغريبة الرفيعة ، فالمغرب لهم ولأبناء ابنائهم كما يهتف اطفالهم ويعلم كبارهم ، وللمغاربة العصا والحجر .

ايها المواطنون الاعزاء لقد ضقنا ذرعا بهذه الحماية البغيضة التي هي اكبر مسؤول عن كل ما اصابنا . لقد مللنا هذه الحياة الثقيلة الوضيعة التي نعامل فيها كالعبيد والحيوانات من قوم غريباء عنا دخلاء ليسوا منا وليسنا منهم في شيء . ان الدم ليحترق في قلوبنا ، وان حرارة انفسنا بلغت اعلى درجة في الارتفاع ، فلم نعد قادرين على العيش تحت ظل هذه الحماية المفروضة علينا الباطلة من يومها الاول ، وان الشعب المغربي من اقتصاه الى ادناه ليحتدم سخطا وحفقا على حمايته المنافقين ، وابنائهم العاقين وكأني اراه يستعد ليلا ونهارا لكسر جميع القيود والاغلال حتى يحطم الحماية ويعلم الاستقلال .

اخترنا هذه المقالة لانها تتناول موضوع الحماية بالذات ، وهو الموضوع الذي تكسرت فيه الاقلام . واثار من الجدل السياسي طوال نصف قرن واكثر ما يملأ المجلدات الضخام . وقد شرح كاتبها الحماية وحللها على ضوء الواقع وتجربة السنين فابدى عوارها وكشف سوانها وحكم عليها حكما عادلا لا معقب له بما اشاعت من فساد وشرعت من ظلم واحداثت من تفرقة بين عناصر الامة الواحدة ، وما تسببت فيه من عرقلة نهضة البلاد وتطور المجتمع ونمو المؤسسات الوطنية التي تعمل لرفق الشعب وتقدمه حتى تبقى مهيمنة على مقدرات المغرب مستقلة لجميع خيرات بلا مشارك ولا مزاحم . وقد جاءت لغة المقالة واضحة كل الوضوح لانها تخاطب جمهرة الشعب فلا بد ان تصطنع الكلمات الدالة والالفاظ المعبرة التي لا تحتاج الى تفسير او بيان . وجاءت لهجتها صريحة ، جهد ما تكون الصراحة ، لان سلطة الحماية كانت قد تغلظت في جميع المصالح والمنشآت ، ولم تترك للعنصر الوطني مجالا للتصرف في اي عمل من الاعمال . فتمتعين تحديها ومجابهتها بالانكار الصارخ والنقد اللاذع كي تقف عند حدها وتراجع قليلا عن استفزازها للشعور الوطني الصاخب النائر . . ولكنها كانت تزيد

في غلوائها وتركب رأسها لتعاقب الكاتب والصحيفة التي نشرت المقال بالفرامة والتوقيف . ويتضاعف سخط المواطنين ويلتهب شعورهم فينتجبه التفكير من جديد الى المقاومة المسلحة التي لم يستاصل هذا السرطان العفن في الاخير الا هي .

وكانت هذه هي الروح التي تتقمص المقالة السياسية في هذا العهد وان اختلفت طرق التعبير واساليب البيان التي يشتهجها اصحابها ، فانها تارة تعتمد الاسلوب الخطابى للتأثير في القارئ ، ويحث حماسه ، وتارة تسلك سبيل المنطق والحجة قصد توعية المواطن وامحام الخصم ، ولكنها ان اختلفت في هذا فان معاملة سلطات الحماية للكتاب والصحفيين الوطنيين لم تكن تختلف بحال عما ذكرناه ، لان الروح الوطنية الثائرة التي كانت تتجلى في كل مقال ايا كان اسلوبه وطريقة كتابه . لم يكن ارباب السلطة يستسيفونها او يتسع صدرهم لقبولها ، فلا يفتأون ينزلون العقوبات الصارمة بالكتاب واصحاب الصحف الذين لا يثنونهم عن خطتهم وعد ولا وعيد ، وان دل ذلك على شيء فأول ما يدل عليه هو القيمة الادبية للمقالة السياسية التي استطاعت ان تهزم الاستعمار بما يتوفر عليه من قوة مادية ومعنوية . وتنفضه فيطير وتطوح به وباعوانه الى جهنم وينس المصير ، وقد ادرك عبد الحميد الكاتب ما للكلمة البليغة من اثر في هذا الباب فقال حين وجه الى ابي مسلم الخراساني داعية بنى العباس عن مولاه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية كتابا يستميله فيه . قد كُتبت له كتابا متى قراه بطل تدبيره ، لكن الداهية الخراساني امر باحراق الكتاب ولم يقرأه ، ويقال ان هذا الكتاب كان لكبره يحمل على جمل ، ومن حسن الحظ ان خصومنا كانوا يقرأون مقالاتنا ، وان الشعب كان يقرأها ايضا ، وفي الوقت الذي كان سيف الرقابة مصلنا على الرؤوس وكانت الجرائد تصدر وغالب انهرها ببيضاء ، لان الرقيب قطع اوصالها وحذف منها ما رأى انه يمس بسياسته ، كانت الجماهير الشعبية ، تذهب كل مذهب في تقدير ذلك المحذوف وماذا عسى يكون مع انقائها على انه ما خز في نفس المستعمر والهب حقه . وبذلك تكون المقالة السياسية أدت وظيفتها ثابتة ومحذوفة وعبرت عن امانى الشعب المضطهد في حريته المغلوب على حقه ، وما نظن ان ذلك يتانى الا اذا كانت المقالة من حر النثر الذي يوجهه الحس المشترك

بين طبقات الامة نحو الاهداف القومية العليا . وهذا من الاتجاه الجديد في النثر العربى على العموم ، وليس النثر في المغرب يبدع من ذلك الاتجاه .

وهذا مثال من المقالة التى تعنى بشؤون الثقافة والفكر ، وتتجه اتجاها انسانيا عاما ، وهو مقالة لعبد الكريم غلاب بعنوان رثاء ضمير :

« من سطحية البشر انه لا يعتبر جديرا بالثناء الا الذين يراهم راي العين يسرون بين يديه ثم يفقدهم في لحظة عين فاذا بالرزء جسيما والمصيبة عظمى . واذا بالاكبد تتشقق والارض تميد ، فيعز الصبر ازاء عظيم المصاب ، وينطلق القلم رائيا مؤبنا نائرا او شاعرا ، وقد اعتاد البشر هذه السطحية فلا يحاولون النفاذ لما وراء جسم يتحرك ، ولا يحسون ان هناك ما هو اسمى من الجسم يموت في لحظات من زمن . فلا ينطلق الشعر ولا النثر يرثى ويتأسف ويصور اللوعة المحرقة والشوق المتاجع .

واجدنى اليوم امام ضمير مات او هي ضمائر ماتت ، واحسبني لا اسير في الاتجاه التقليدى ، فلا ارثى اصحابها الا اذا غارتوا هذه الحياة ، ولعنى ما كتبت لارثيهم لو حدث ذلك ، فسيذهبون بضمائرهم ، ولم اعند ان اثور على سنة الحياة فما رثيت احدا مات الا ان يكون رثاء دراسة او بحث عن نتاج .

ولكن لم اجد الصبر ولا السلوان امام الضمائر التى ماتت ، فالضمير في نظري اهم ما ينبض بالحياة في انسان ولو كان هذا الذى ينبض قلبا او شرايين طافحة بدم الحياة .

والرزء العظيم ان الضمير الذى مات ترك اجسادا تتحرك بلا ضمير ، وترك عقولا تفكر بلا ضمير ، وترك قلوبا تضى بلا ضمير ، وترك عواطف واحساسات تتحرك بلا ضمير ، وما ظنك باقوام يحاولون ان يسيروا الحياة بقلوبهم وعواطفهم وافكارهم ، ولكن لا ضمير لهم ؟ ان الرزء عظيم لا بالنسبة اليهم — فكم من شخص عاش بدون ضمير ومات بدون ضمير فلم يحس بوجوده او موته انسان لانه وقف في حياته حيث وقفت به ممكناته ، فلم يتعد خروجها ولم ينصب نفسه ليسير حياة الناس بضمير ميت ، ولكن الرزء

عظيم بالنسبة للذين حلا لهؤلاء ان يساهموا في تسير حياتهم فما كان لحياة
ان تستقيم ومسروها ماتت ضمائرهم فانطلقوا يشاركون في الحياة العامة
التي تهم الشعب ولكن بدون ضمير .

سألني مرة صديق عن رأيي الصريح في فلان ، قلت انه ذكي نشيط
مقتدر مثقف — ولكن — قال — وفي عينيه تساؤل — ولكن ماذا ؟ قلت ولكن
لا ضمير له . قال : وما يغني الضمير اذا كان يملك كل هذه المواهب ؟ قلت
الضمير هو روح كل هذه المواهب فهي اذن مواهب ميتة ، اذ كان يعوزها
ضمير حي .

تمثل هذه المقالة نزعة فكرية متحررة واسلوبا انشائيا جميلا يمكن
الباحث من تقدير مدى التقدم الذي حققته المقالة الادبية سواء في المادة
او الصياغة . ان الموضوع حي وطريف والظروف الموحية به انسانية وعامة
فهو قائم في كل زمان ومكان ، ولكن ، اثارته بهذه الطريقة اللبقة هي التي
تسترعى النظر فهي لم تبرزه للعيان فقط بل اكدت على كونه مشكلة اخلاقية
تستوجب التفكير الطويل والعلاج السريع ، وان لم يكن ذلك بصريح اللفظ
والعبارة ولا بأسلوب الوعظ والارشاد ، لان براعة الادب الملتزم او الهادف
وهذه المقالة منه في الصميم هي في ان يسلك الى اعماق النفوس من دروبها
الخفية ، وان يمارس عمليات الهدم والبناء بموحيات الكلمة لا بفعل الامر
ولا الناهية . والكاتب حين عنون مقالته برثاء ضمير وعبر عن تعلق الناس
برثاء الاشخاص دون المثل والقيم بأنه تعلق بالمعنى السطحي للرثاء ، انما
اراد ان ينبه القارئ الى أهمية الفكرة التي يعرضها في صورة ادبية معهودة
وهي الرثاء الى حيث لم يسبق لتلك الفكرة ان عرضت قط في هذه الصورة ،
ومن ثم اثار اهتمام القارئ وجعله يسلم حقا بان موت ضمير الشخص
لهو مصاب أعظم من موت الشخص نفسه وانه احق بالرثاء وان الامة
التي يسير امورها اناس ماتت ضمائرهم فهي امة على خطر عظيم ، ولن
تستقيم امورها بحال . ان هذا هو الايحاء ، والايحاء من الالتزام ، وهو
اتجاه جديد في ادب المقالة والادب بعامة .

وهذه مقالة نقدية بقلم محمد ابا حنيني تتناول رسالة الصداقة
والصديق لابي حيان التوحيدي :

« رسالة ابي حيان التوحيدى فى الصداقة والصديق من امتع آثارنا الادبية القديمة ، ولهذه الرسالة قبل كل شىء مزية كبيرة الا وهى موضوعها فان موضوع الصداقة والصديق تجمع الازواق على قبوله وترتاح اليه جميع النفوس ، لان مشكلة الصداقة والصديق تعترض الناس جميعهم فى سبيل حياتهم . والرسالة معرض لآراء شتى حول الصداقة لا تنساق فى سلك غير سلك الصداقة ولا يجمع بينهما الا جامعة هذه العاطفة التى ينتظم فكرها الكتاب من ابتدائه الى انتهائه .

ولم يخطر ويا للأسف لابي حيان أن يعرض علينا هذه العاطفة واحوالها واعرضها عرضا منظما ، ولا ساقها سياقا منطقيا . وياليتنى سبق ابن حزم فدرس اطوار الصداقة بذلك الاسلوب الذى درس به الاديب العالم الاتنلى الشهير عاطفة الحب فى نشوئها وارتقاؤها وضعفها وقوتها ، ولكن ابا حيان جمع فى رسالته هذه طائفة من الآراء صدرت عن كتاب عرب مسلمين ، ومن مفكرين اجانب وغير اجانب قدماء ومحدثين ، وبعثرها فى صفحات رسالته من غير أن يخضعها لترتيب قويم ونظام محكم ، ولم يخف هذا العيب على ابي حيان فقد لجأ الى احوال حياته وما كان يعانيه من الوان الكثر والاشمزاز من الدنيا عند ما كتب الرسالة واراد ان يبلغ منها صفرا .

ولم يقتصر كاتبنا على الآراء التى اعرب عنها اصحابها نفرا ، وانما جمع فى رسالته بين الشواهد المقتبسة من الصناعتين معا فجاءت الرسالة معرضا ازدهمت فيه الآراء مختلفة ابدا ، موجزة تارة ، ومستفيضه اخرى ، مشيدة بذكر الصداقة المتينة او منددة بالوداد المدخول والصفاء المزعوم . وكثرت فيها الكتب التى تصدر عن صديق وتبلغ الى صديق والتى تحض على حفظ الوداد او تؤكد البقاء على العهد ، او تتقاضى حقوق اللفة القديمة والاخاء الثابت .

والرسالة من اجل هذا كله بالرغم عما يشينها من العيوب الشكلية التى اشرنا اليها ، ممتعة جدا امتاع سائر ما يصنفه او يرويه ابو حيان فان فيها شاهدا عظيما على ان العرب المسلمين عنوا بعاطفة الصداقة عناية كبيرة حتى اوحى اليهم بشىء كثير من جميل الشعر ومحكم النثر .

على أن الرسالة لم تتضمن جميع ما قاله العرب في هذا الباب ، وأبو حيان يعترف لنا بذلك ولولا خوفه من التطويل لكانت رسالته أضفى ونفسه فيها أشد امتدادا . وما كان لأبي حيان الذي قضى نحبه في مستهل القرن الخامس أن يضم إلى رسالته ما أوحى به موضوع الصداقة والصديق إلى شعرائنا وكتابنا خلال القرن الخامس بنوع خاص من حر المنظوم ورائق المنثور .

وقد جنى خوف أبي حيان من الاسهاب على قارئ الرسالة جناية أخرى إذ حرمه قصصا لو استرسل فيه الكاتب لكانت الرسالة انفس وأغلى . غير أن أبا حيان أن ضن علينا بشيء كثير من محفوظه واستأثر دوننا بنصيب جزيل من قصصه ، فقد سمح لنا بالتطلع إلى سريرة نفسه والوقوف على تبرمه بالدنيا إذ أصبح في نظره لفظ الصداقة بلا معنى وعفت رسوم اللفة بين الناس ونضب معين الوداد ، وما كنا لنزهد في هذه الصورة القاتمة ، ونرغب عن هذا الشعور الكتيب ولو تضمنت الرسالة من أقوال غيره صنوفا من الاحساسات والمشاعر . والعلة في ذلك أن كاتبها كاهي حيان نضعه في ذروة البيان العربي لخليق أن نحصى انفاسه ويبدل في اقتناص خواطره جهد جهيد .

ولأبي حيان قوة خاصة على الاعراب عما حصل له من الخيبة بعد الأمل ومن الأشمئزاز بعد الاستبشار ، ولا نسوق من الشواهد على ذلك إلا هذه الكلمات التي وردت في طليعة الرسالة وذلك حيث يقول : « ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والاسف والحسرة والغيط والكمد والومد . وكأني بفرك إذا قراها تقبضت نفسه عنها وأمر نقده عليها وانكر على التطويل والتهويل بها ، وإنما أشرت بهذا إلى غيرك لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك وذلك لعلمك بحالي وإطلاعك على دخلتي واستمراري على هذا الانتباض والعوز اللذين قد نقضا قوتي ونكثا مرتي وأفسدا حياتي وقرناني بالاسى وحجباتي على الاسى لاني لمقدت كل مؤنس وصاحب ومرلق ومشفق . والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق لميقال أو عطار أو نذاف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جنبى اسدرنى بصفائه أو اسكرنى بنته ، فقد أمسيت غريب النحلة غريب الخلق مستانسا بالوحشة قانعا

بالوحدة معتادا للصمت ملازما للحيرة محتملا للاذى باثنا بجميع
من ترى متوقعا لما لا بد من حلوله فشمس الوجود على شفا وماء الحياة
الى نضوب ونجم العيش الى افول وظل التلبث الى قلووس .

ولا بدع ان يجيل كاتبنا نظره حوله ويلقيه على جبرته واقاربه ويصيح
صيحة من افترت دنياه من الاصفياء والاصدقاء لانه كان يضع الصداقة
بمكان اسمى من ان يلحقه عموم الناس . والدليل على هذا اننا نراه يفوه
بنوع من الصداقة عزيز المنال اذ يقول : (قلت لابي سليمان محمد بن
طاهر السجستاني : انى ارى بينك وبين ابن سيار القاضى مازجة نفسية
وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية ومواتاة خلقية فمن اين هذا وكيف هو ؟
فقال يابنى اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان
على الدهر ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب
مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة حتى انا نلتقى كثيرا فى الارادات والاختيارات
والشهوات والطلبات وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد ما افترقنا
فاجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الاوان حتى كأنها قسائم بينى وبينه ،
او كأنى هو فيها او هو انا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأخنها فنراها
فى ذلك الوقت او قبله بقليل او بعده بقليل . فقلت هل تجد عليه فى شيء
او يجد عليك فى شيء ؟ قال . وجدى به فى الاول حجبنى عن موجدتى عليه
فى الثانى . على انه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة واكتفى
انا ايضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض
على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين ويكون لنا فى ذلك
مقنع واليه مفرع . وقلما نجتمع الا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن
ضميرى الى شفتى ولا ندت عن صدرى الى لفظى ، وذلك للصفاء الذى
نتقاسمه والباطن الذى نتفق عليه ، والظاهر الذى نرجع اليه والاصلى
فيه والفرع الذى تشبثنا به . والله ما يسرنى بصداقته حمر النعم) .

ومعذور من يطمح الى هذا المثل الاعلى اذا استصفر كل صداقة
لا تسمو الى هذه الذورة وساء ظنه بمن لا يستطيعون التفانى فى حب
الصديق .

هذا نموذج وسط من مقالات النقد الادبي لا هو بالطويل الممل ولا بالقصير المخل ، ومع ذلك فانه ينبىء عن نظرة فاحصة تجوس خلال الاثر المنقود وتنفذ الى اعماقه فتصفه وتحلله وترز مواطن القوة والضعف فيه ، ولا تكتفى بذلك بل تربط بين معطياته ، وما تعرفه عن صاحبه وهو شيء كثير فتستخلص من ذلك احكاما وقضايا لها فائدة جلى في تقييم الاثر ومعرفة نفسية مبدعة . ولا يتطلب من المقالة النقدية اكثر من هذا . اما عن اسلوب المقالة ولغتها فانها من قبيل ما يسمى بالسهل الممتنع ، والنقد يتطلب التركيز والوضوح فلا مجال فيه للخيال والتفصح ، وهذا من الفوارق الجوهرية بين المقالة الادبية الخالصة والمقالة النقدية .

وهذه مقالة بعنوان الفنون والحضارة لعبد السلام العلوى وهى الى التعريف اقرب منها الى النقد والادب الخالص : « يكاد الجيل الجديد ، جبل الطاقة الذرية والطائرات الصاروخية ان تشتبه عليه المصالح ، وتضطرب في نفسه الاوضاع . فيكرر بقوانين الكون ، تلك القوانين التى سارت على ضوئها الاجيال السابقة فابدعت لنا ما ننعم به من مدنية ودين وعقائد ، ليتوجه بفكره ويتطلع بقلبه الى هذه الحضارة المادية الآلية التى تكاد في يوم من الايام اذا لم تغير سيرها وسرعتها واتجاهها ان تعصف بها الارض عصفاً فاذا هى هباء في الفضاء .

لم يعد الناس وخاصة الشباب يتحدثون عن الكون ونواميسه والدين واسراره والمجتمع وحالاته ، وانما ظلوا يرتبون تلك القوى الكامنة في النار والحديد وما هو من قبيلهما كان شيطان الهدم الذى سيطر على العالم في هاتين الحربين الاخيرتين تدملك عليهم مشاعرهم فلم يعودوا يفكرون في شيء سواه .

فكيف بعد هذا لا نحمل القراء على الضحك والسخرية اذا ما طبعنا في حمل خيالهم الشارد الجموع الى الشاطئ الآخر ، ذلك الشاطئ الهادى لنحدثهم عن الفن والفنانين واثريهم في الحضارة ، تلك الحضارة المهددة في كل حين بالانقراض والفناء . فليحسبوا اذن هذا المقال حديث خرافة ، وليتفضلوا بالاطلاع عليه ، فما اكثر ما تسرى الخرافات عن الحائرين وان لم تحمل اليهم شيئاً جديداً .

نحن بالرغم من هذا لا نظن انه يوجد في العالم المائج المضطرب رجال
أسعد من الفنان الذي يقضى بياض يومه وسواد ليله في ابداع الجمال على
اختلاف ألوانه ، وصوره ، ولهذه السعادة اسباب عدة أهمها ان الكاتب
الذي يجهد فكره ليزيد في ثروة اللغة معنى جميلا وخيالا رائعا ، والرسم
الذي يقضى نهاره أمام لوحته وألوانه ليخرج الى الناس صورة بديعة ،
والموسيقى الذي ينفق عمره بين عودده وبيانته ليأتى بلحن رقيق شجي ،
كل هؤلاء وأشباهم يجدون لذة ومتعة لا تساويها أية لذة في هذا الوجود .

والسر في ذلك ان في أعماقنا ميلا شديدا الى الإيجاد ، وطموحا عظيما
الى الإبداع ، فمتى بلغنا الى اختراع شيء من الأشياء وكان هذا الاختراع
جميلا ظفرتنا بمثل ذلك السرور الذي لا تشعر به إلا الأم حينما تزيد نسمة
حياة في هذا العالم . والغريب ان هذا السرور لا يشعر به الفنانون المبدعون
وحدهم بل يعكسونه على كل من يقرأ كتابتهم او ينظر الواحدهم او يسمع
الحانهم ، ولما كان السرور الداخلي واللذة الروحية أعلى ما يطلبه الناس
كانت للفنون قيمة لا تعادلها قيمة ، وربما قيل بأن لذة الفن لا يكاد يشعر
بها إلا أفراد قلائل ، اذ ليس كل انسان فنانا بل وليس كل انسان قادرا على
فهم الأعمال الفنية حتى تحصل له هذه القدرة المقصودة وهذا السرور
المنتظر . نعم لكن غايتنا وغاية الحياة العالية ان يصير كل فرد فنانا فيما
يعمل لانه متى بلغ المرء الى هذه الدرجة انقرضت بالنسبة اليه كل اسباب
الحزن والشقاء في هذه الحياة ولم يبق إلا السرور والفرح وذلك شيء لا
يستهان به ومن لم تنقرض في هذه الحياة كل الصعوبات والمشاق ولا يبقى
في العيش ما يثقل على القلب والروح فيقذف بالانسان في مهواة الإلحاد
والتمرد على الخالق او يلتقي به في ظلام اليأس القاتل حتى يمد يديه الى
روحه فيزهقها ، وكيف يتخيل الانسان أمة ليس فيها إلا الفنانون ؟

فالفن اذا نافع في حياة الانسان وان ظهر بعكس ذلك لأول وهلة ،
لانه ينبوع اللذات المسامية المهدبة ، ولا تقف انفعالاته في الانراح الروحية
والمعتلية وحدها بل تتمدها الى ما وراءها بكثير اذ يكاد الفن يلقي في كل
آن درسا على الناس يريهم الحياة الحقيقية حياة الروح التي وجدوا لها
في هذا العالم والتي يجب ان يعملوا لها بكل ما لهم من حول وقوة ، كما انه

يريهم معنى الحياة الفاضل الذى يرون به فلا يبصرونه ولا يفهمونه ،
ويهديهم بعد ذلك الى الصراط السوى والنهج الاثوم .

فالفنانون هم الذن يصنعون عقلية الامم التى يعيشون فيها ويكونون
شخصيتها ويمطونها مظهرا تتجلى به بين الامم . فاذا ذكرت عصر الموحدين
او المرينيين بالمغرب فكرت اول ما تفكر فى صومعة حسان والكتيبة ومدرسة
القطارين ومدرسة ابي عنان وما الى ذلك من الآثار ، لان هذه المبدعات
الفنية هى التى تختصر لنا عقلية تلك الاجيال الماضية وتعبّر عنها تعبيرا
سويا جامعا فى وسع كل انسان ان يفهمه على قدر عقله وثقافته . فالفنانون
اذن او آثارهم تعمل عمل الكاتب والمؤرخ بل ربما ماتته اذ تزيد على منفعة
الاخبار لذة الجمال ومتعة السرور .

والفنان كيفما كان شأنه يناول مادته من اهلان حياة شعبه وامته
لهو ولا شك مخلد لهما ولشخصيتهما فى عصر معين ، غير انه حينما يزيد
فى هذه المادة من نفسه المبدعة الخالقة يزيدها وضوحا وقوة وروعة تضمن
لها الخلود او على الاقل البقاء الطويل . والفنانون بذلك يزدون فى ثروة
الشعب المعنوية ، ويضاعفون قوته الداخلية ويكونون تاريخه ومثله العليا
وغلياته السامية فى العيش . ومن هنا يتجلى لكل اريب ان الامة التى لا
تملك فنانيين يعبرون من شعورها واحساسها ويخلدون آثارها ويختصرون
نفسيتها بطريقة خفية رقيقة تضم اللذة والمنفعة ، انما هى امة غارقة فى
بحور التوحش مدلجة فى ظلام المادة ، وان قلنا ان عيشها اقرب الى عيش
العجاوات منه الى حياة الانسان المتقدم لم نبعد فى ذلك من الصواب .

واين توجد امة جديدة بهذا الاسم لا تفكر الا فى الاكل والشرب وما فى
مخاضها مما تقوم به معيشتها المادية ثم تهمل الجانب الروحي اهمالا كليا
فلا تغنى ولا ترقص ولا تتزين . انها والله غير موجودة ، فزئوج افريقيا
واستراليا — وهم اكثر الناس توحشا — نراهم يقضون جل اوقاتهم فى الغناء
والرقص والالعب وكل ما يجلب لهم السرور ويدخل عليهم الفرح . كما اننا
نرى نساءهم يتزين بالودع والمخار ويتحلين بالاسورة والخلخل متى وجدن
الى ذلك سبيلا ، ومن هنا ندرك ان الفنانين ليسوا باشخاص غير عاديين
كما يزعم بعض الافراد بل هم اكثر الناس تيقظا واتقانا ، ولئن اتوا فى

ابداعهم بها لا يرضى بعد المفرطين في المادة فانما يعبرون عن حاجة ماسة بالامة اجمعها وهى الشعور بالجمال اذ هم وحدهم يستطيعون الانصاح عنها فهم اذن السفة الشعب وصوت الامة التى يعيشون فيها وينتسبون اليها ومتى فقدهم اى مجتمع كان اخرس ينادى فلا يسمع له نداء ويحاول ان يفضى بها في نفسه فلا يستطيع .

والفنانون كالسياسيين كل منهم موجد مبدع غير ان السياسيين القادة لا يبدعون الا في الناحية الزمانية وقليل منهم من يتعداها . اما الفنانون فهم وان كانوا مخصوصين بالجانب الروحى والجانب العقلى فائدهم يتعدى هذا النطاق فيشمل في الغالب ما هو من قبل الجانب الآخر وانت اذا دقت النظر اكثر من هذا وجدت السياسيين يستخدمون القوة والارهاب في الامتثال لاوامرهم والخضوع لارادتهم اما الفنانون فهم يسخرون وسائل اخرى تفوق الاولى رقة ولباقة اد يتناولون الناس من الجانب المعنوى فيأخذونهم بالجمال والسرور واللذة وكلما حسنت الاسباب حسنت النتائج .

وكل من يولى الفنون شيئا من دقة النظر وحسن التمييز يجدها تلقى علينا دروسا دائمة في التربية والاخلاق ، وتبين لنا حقيقة الحياة التى يجب ان نعمل لها . فالكتاب يهذبون عقولنا واذواقنا بما يزيدون في ثروة اللغة والادب من حيث الاخيلة الرائعة ، والافكار الصائبة والنصيرات العجيبة التى توجهننا احسن توجيه في حياتنا ، وتفتح لنا المجال لحياة روحية سامية ننسى فيها اتعابنا واحزاننا وجميع ما يحيط بنا من شقاء في هذا العالم القاسى لنتمتع بالجمال المطلق ولو حيننا من الزمان ، ونشعر باللذة الفنية بعد ما فقدناها . والرسام يهذب بصرنا بما يظهر لنا من الصور البديعة الاخاذة . والموسيقى يرقى سمعنا بما يقدم اليه من الانغام العذبة الساحرة ، والنحات والمهندس كلاهما يعطينا بيانا شافيا عن فكرة النوازن والانسجام وهلم جرا . وكل فكرة دارت في خلد الانسان وكان شأنها ان ترفع الشعب والامة في سلم الحضارة والرقى ولم يستطع ان يعبر عنها بجلاء ووضوح الا والفنون الجميلة تعبر عنها وتظهرها الى الناس مجسمة ملموسة على كثير من حواسهم الروحية والمادية .

ومن مزايا الفنانين التى تظهر عظمتهم وتزيد سموهم ان الناس قلبا

يحفلون بهم في حياتهم اذ يقضون اعمارهم غالبا في المحنة والشقاء فاذا ماتوا وانقرضوا انهار الناس على آثارهم بالتعظيم والاكبار ، فما هو النفع المادى الذى فاز به المتنسى في حياته ؟ وما هو الاجلال الذى لقيه لامرئين في اواخر عمره ؟ وما هى الحفاوة التى تمتع بها روسو بين معاصريه ؟ فالفنانون اذن ينشرون بيننا مزية من اسمى المزايا الا وهى النزاهة والنظر الى الدنيا بعين ملؤها غاياتها السامية ومثلها العليا .

ولم يغفل الرافعى اذ قال (الفنان نرى هذه الديانة الرقيقة التى من شريعته اصلاح الناس بالجمال والخير)

وعظمة اية امة لا تقاس الا بمقدار ما انجبت من الفنانين والآثار الفنية . لا مقدار ما اخرجت الى العالم من ابطال يشنون الحروب بين الناس بدل ان ينشروا السلم ، ويشهرون العداة والبغض عوض ان يشهروا الوئام والمحبة ، فالفنانون بما يقدمون الى الانسانية من آثارهم الجميلة الراقية يرفعونها درجات فوق المادة وما يتصل بالمادة ليفكر الشخص ولو حيننا من الزمن في حياة علوية جديرة بروحه فينسى معها آلامه واتراحه ليتفرغ بمجموعه الى التمتع بالجمال المطلق واللذات السماوية ، ولولا الفن والفنانون لكانت حياة الانسان كحياة العجاوات او اقرب اليها اذ قلما تتعدى حدود الاكل والشرب وملذات الجسد . ومن منا يفكر تأثير قطعة موسيقية راقية على اعصابه او يكابر في نسيان الاتراح والسهو عن كل ما يحيط بالمرء من مظاهر الحياة القاسية حينما يحضر تمثيل رواية حميلة ؟ وها نحن نرى ان للمنون تأثيرا محسوسا على كل ما لا يمكن ان يتوصل اليه الانسان فيؤثر فيه تأثيرا محسوسا مباشرا فالمنون اداة التأثير على الناحية الروحية والعقلية منا ، اداة التأثير على كل ما يتمرّد على القوات الخارجية كيفما كان شأنها

وتاريخ الامم بمعناه الصحيح انها هو تاريخ فنانيها من كتاب وشعراء وموسيقين وغيرهم . اما حروبها وانتصاراتها وهزائمها فهى من ناحية انسانية محضة ، فى درجة ثانية اذ قليل من الناس من حارب لنشر غايات سامية ومثل عليا كما حارب اجدادنا المسلمون من قبل . وانما يحارب الناس لنشر افكار او نزعات كلها انسانية واغراض والضمير الانسانى والتاريخ العادل لا يبحثان عما كان صالحا لامة دون امة ولعصر دون عصر

بل ينتبان دائما عما كان فيه الخير والنفع للانسانية جمعاء بصرف النظر
عن الجنسية والوسط والعائد .

ولقد اصاب ابن خلدون في قوله : (ان الدولة لها اعمار طبيعية كما
للأشخاص) ونظريته الصائبة في سير اعمار الدول هي ايضا مع كل العجب
نظرية العلم الحديث في الفنون . فسمو الفن يرافق سمو الدولة وانحطاطها
ويتأثر بقوتها وضعفها ، فتاريخ أمة من الأمم يمكنه ان يرسم بخط اعرف
تدل اعلى نقطه فيه على سمو الفنون فيها وبلوغها الغاية القصوى .

وهناك قانون من قوانين الكون يشمل كل مخلوق في هذا العالم
يقضى بأن تكون للفنون طفولة وشباب وهرم وموت . واعظم الدول هي التي
طال فيها شباب الفنون وامتد فانتجب كتابها وشعراؤها ونحاتوها ومهندسوها
رمصوروها اعمالا جليلة خليقة بهذا الشباب الريان . ومن اكبر هذه الدول
دولة اليونان ، فلقد بلغت فيها الفنون شبابها حوالى القرن الخامس قبل
الميلاد قرن بيركليس ، فابعد فنانوها ما لا يغنى على تعاقب الازمان
وهذا الشباب القوى المبدع هو الذى لا يزال يضمن لها البقاء بل الخلود .
وان كانت قد انقرضت منذ عشرات القرون ولولا ذلك الماضى الفنى المجيد لما
وجدت من يذكر الاغريق بما يذكرون به اليوم .

واعظم جريمة ، يرتكبها شعب من الشعوب هي عدوله عن تراث
اجداده الفنى واستخفافه بهذا التراث كيما كان شأنه ، ثم العمل بكل ما في
وسمه لان يحيى حياة ميكانيكية عصرية ترتكر في جميع نواحيها على
المادة والآلات .

وانه ليس به ان يكون بين دورة الفن في العالم وبين دوران الشمس
صلة متينة لم ينتبه اليها احد حتى الآن فلقد ازدهرت الفنون في الصين والهند
طيلة قرون عديدة قبل الميلاد ، ثم خبا اوارها نبيهما ، وطلع كوكبها واضاء
في البلاد اليونانية والرومانية ، ثم اشرق في الاندلس بعد ما مر من طريق
المغرب ومنها تالق في اوربا الغربية ثم جاوز المحيط للمع في الربوع الامريكية .
غير انه ظهر في مظهر غريب ان لم نقل مخيف . وربما انعكست الاسباب
فأتى ذلك الشعاع يقصد الشاطئ الآخر ليعبد الينا عصر الموحدين والمرينيين

بما كان فيهما للمغرب من عظمة انسانية وسمو فنى ومن يدري ؟ .. »

لعل هذه المقالة المتعة في غنى عن التعليق لما فيها من احاطة وشمول للموضوع الذى تناولته ، ولقد برهن كاتبها على ثقافته الفنية واطلاعه الواسع بما لا مزيد عليه . وهى على طولها في الجملة تتزاحم فيها الافكار الجميلة ، وتفيض بالشعور المذهب ، لم تترك وجها من وجوه الاشادة بالعلم وبيان اثره في نهضة الامم الا ابدته ولم تدع طريقا من الاعجاب بالفنون المختلفة وتحبيبها الى النفوس الا سلكته ، وهى مقالة يواكب فيها الخيال الحقيقة ، وتقرن الموضوعية بالذاتية ، تقتبس من الشرق والغرب والقديم والحديث ، وتؤلف بين عناصر الموضوع على تباين مصادرها بلباقة وحسن تأت حتى ليحسب القارئ انها جميعا من منبع واحد . وذلك كله في عبارة طليقة واسلوب اخاذ مما يمكن معه القول بانها نموذج للمقالة الادبية النسي استوفت شروط الكمال او كريت تستوفيها .

واخيرا هذا لون آخر من المقالة الادبية يختلف عن الالوان السابقة في المادة والعرض ، هو في مادته من خالص الادب الذى يعبر عن الشعور الذاتى للكاتب وانفعاله النفسى ازاء الاحداث والاكوان ، وهو في عرضه لهذه المادة يصطنع اسلوبا رمزيا رثيقا يكاد يختص به الاديب محمد الصباغ من بين ادباء المغرب . ومنه ما كتبه عن فصل الخريف :

« وشى وشى بالغمام يا ريثة الفضاء سمائى ، وهبى يا رياح وحاصرى الاغصان والاعشاب ، وارقصى مع الاشجار وانسجى يا شمس على الحقول كفنفا ، ودعى القمر يكتب على ضريحها : ماتت شهيدة الجمال وضحية الربيع ومن يمت فداء للربيع يولد كل ربيع

وانت يا امطار قد طالعت عطلتك في المصايف على الشواطىء وفي قمم الجبال فهلا عدت الى غدرانك وانهارك وسواطيك تحلين لها اورتارها ونضارة شجوها وهلا خلعت من نفسك حلة السراب التى كنت تكسسين بها في هجير الصيف وتقيظه ، ورجعت الى بذورك وجذورك واعشاش تراك ؟ انسيت وقد كان رشائك على موعد مع سقوط الاوراق ؟ ها هي الاشجار تذهب الحقول وتوشى شاسعات الربى والمزارع بمناديل اوراقها

اوراق واوراق واكداس اوراق ، ولا ارى الا الاوراق منتشرة مبعثرة
على بساط الارض . ولا اسمع كذلك الا خشخشة الاوراق ، وكان الوجود ،
وكل ما يتوفر عليه الوجود شجرة تهزها عاتية الرياح فتسقط اوراقها على
الارض هامة ثم تحملها الى قبرها المولود .

هبي هبي يا رياح ، وثورى وولولى ، واعصنى فى لحمى ودمى
وعروقى وافكارى وخيالى ، فانا كذلك شجرة من اشجار الخريف نابئة فى
ملاعبك ومفانيك الهائجة .

هزى بأنامك الثائرة جذعى واغصانى ، تساقط على الارض اوراقى
التي افسدتها الانانية الجامحة والنيات الفاسدة ، والافكار والمطامع الجشعة ،
وانزلها الغرور والعدو وراء الشهرة والمال وحب الظهور .

اعصنى يا رياح ولا تتركنى فى اغصانى ورقة واحدة من اوراقى التى
اذبلتها الشهوات والنزعات السود تنافرى عنى يا اوراق الحقد والبغض
والكراهية والخطايا والآنم ، وعرينى كذلك من اوراق النفاق والبهتان
والذل والخضوع والمين والعبودية والخوف ودعبنى هكذا : جذورا نابئة
صامدة فى جوف الارض غير سميئة ولا هريلة ولا متعفنة . وجذعا قويما
صحيحا واغصانا ندية مثمرة ناضجة تطعم وتروى الجبال والاعالى والنجوم
بحانية وسخاء ، وتوزع النسيم الطيبة فى الاصباح والامساء على ساكنى
السهول والوداء ومجنحاتها .

هذا هو فصل الخريف فصل الرياح المطهرة ورذاذ الامطار المحيية
والنسيمات الرقيقات اللطيمات . اخرجوا من مساكنكم ايها الناس ، وافتحوا
ابوابها ونوافذها لهوج الرياح لتعصف بأوراق نقوشها وزخرفتها الكاذبة
ومراياها الخداعة ، واسرتها ومخدراتها ذات النيات المبيتة والشهوات
الزائفة ، وموائدها المرتفعة بالجشع والنهم . افتحوها على مصراعيها
للرياح لتصدم بأوراقها الزائفة ، وتجنح بها مع اوراق الخريف الى غير
رجعة ، اخرجوا وسارعوا الى مطهر للرياح وافتحوا لها صدوركم . واعرضوا
عليها اجسامكم كيما تسقط اوراقكم الذابلة . اخرجوا ولا تتأخروا ليلا يدخل
عليكم فصل الشتاء واجسامكم ما زالت تحمل اوراقها المريضة الصفراء »

ومنه ما كتبه عن مصطفى كرامة :

« يا كاف يمر بالذهب فيكتسى الخيال بالنلج ، وتاء تكتب فينزلق القلم
في الملاعب والمنحدرات . والف يصور فيعشوشب بالظل ، واما الميم والتاء
نموجة ومجذاف يقلعان بك الى مرائىء الازل وشرماته .

يا كاتمة اسرار البحار في اغصان ثلجك ، وبائحة بها في صدر التراب
من منابذك ، وناقشة نجوى الخصرة على سكينة نسيمك في نجوة من
الرياح والقلق ، وفي اعتناق ابدى مع السلام والفرح .

على جذور ارزك يقبس الهواء طوله فيجده قصيرا ، وقصيرا جدا
كنظرة البنفسج ، وفي جذورها يتغلغل الابد ، فيتيه فيضيع فيغرق في رمال
الظلام . وعلى اغصانك يغفو النسيم كجدائل من اريج ، فيحلم بصديقاته
الفراشات تهدده. وتداعبه وتوشى اظفاره وشفاهه بالوانها .

واخطو وكأني عن القطن اخطر ، او في اراجيح من السكينة اطيئش ،
حبالها علقت في اقراط النجوم وخلفى وامامى وعن يمينى وشمالى مظاهر
ومظاهرات من اشجار الارز ، من صبايا وصبيان ، عمرهم سبعة او عشرة
اغصان ، من فتيات وفتيان ، من شيوخ وكهول يمشون وعلى ظلالهم
الشائبة يتكئون . مظاهرات هنا وهناك ، وكلها تمشى صامئة وتقف صامئة ،
وتصبح صامئة ، وفي صمتها الاخضر اليانع الطويل ، نداء السلام
والامل والجمال .

كلما وقع اصبعى على حجر او صخر او تراب الا وتفجر الماء من حوالى
ينابيع من ذوب النهر والبرنقال والاعناب حتى احسبني وقد ارتويت ، قصبة
سكر ، وكلما جال بصرى وتخطى نائحات المدى وتسلق في شفافية الصفاء
الساوى الا ورايت من خلاله منابت الكون ومهود الوجود ، فصول تحبو ،
وبحار ترضع ، وجبال تتكور ، واودية تنشق ، وسهول تنبسط ، وكواكب
ونجوم تشتعل فتتالق ، وامم وشعوب تتنفس فتولد .

ويعود بصرى من سمائك المنفوشة مبلا بدمع الجلال والخشوع ،

غأرى الخرفان والحملان على وجه سهلك وكأنها وشبات من الباف ، ترعى
وتتضم اعشاب الثلج آونة ، وآونة أخرى تعطو الى اغصان ارزك لثرتوى
من معين النجوم فتغدو طيوراً من فضة وحرير .

من عمر الشوق وبياض الفجوى واحمرار الهوى كونت ، فكان للجمال
فيك تكبيرة الصلاة »

ان هذا اللون من المقالة يمثل اتجاهاً جديداً في النثر العربى اطلاقاً ،
وقد كان ميلاده اولاً على يد الادباء السوريين واللبنانيين المهاجرين الى
أمريكا ، فيما بعد الحرب العالمية الاولى ، ولا يقتصر على النثر بل يشمل
الشعر أيضاً ، ومن ثم أطلق على الادب الذى ينزع هذا المنزع الادب
المهجري ، وكان اول من اخذ بطريقته عندنا الكاتب محمد الحداد ، فقد دأب
على نشر مقالات تحمل طابع الابداع فى الخيال والوصف لمجالى الطبيعة
والتعبير الذاتى عن المشاعر الانسانية الحزينة اى ما يسمونه بالرومانسية،
وكان ذلك فيما قبل سنة 1930 ثم تعاطى الصباغ الكتابة على هذه الطريقة
فبرع فيها ، وزاد فأضفى ظلالاً من الرمزية تتمثل فى هذه المجازات المبتدعة،
والاستعارات المنتزعة من المعقول للمحسوس والمتخيل للمنظور ، فزواج
بين المذهبين كما يفعل بعض اقطاب الادب المهجري ، لان الرمزية عندهم
ليست موضوعية بمعنى انها لا تنتمى روح العمل الادبى ، وانما هى
اسلوب من اساليب الاداء للموضوع المعين بعنوان كامل فى كلمتى صاحبنا
المعنونتين بالخريف وكتامة وبذلك جاءت كل منهما رومانسية فى موضوعها
رمزية فى اسلوبها ويكثر الصباغ من المزج بين الالوان والنملى بالطعوم والطيوب
والانغام حتى يجعلك وانت تقرا له كأنك جالس الى مائدة حافلة بأنواع
الماكولات والمشروبات ومباخر النذ والعود والصندل تفعم الجو بالروائح
الذكية ، والموسيقى تشنف سمعك بالحنان الشجية ، وهذه هى رمزيته
المحببة التى ينقل اليك بواسطتها فكرته الاساسية ويشركك فى تجربته
الشعورية فلا تجد صعوبة فى تفهمه مهما غالى فى الرمز ، وكثيراً ما يفعل
ذلك ، لان الموضوع معين كما قلنا ، والزهور والطيور والجمال والادوية
والبحار والانهار والنجوم والكواكب وكل مظاهر الطبيعة لها فى كتابة
الصباغ صور بديعة وتمائيل عجيبة تكاد تبوح بسر الوجود ، وتنطق بنمجد

الخالق ، فهو بجمالها مفتون وسحرها مأخوذ يقف أمامها وكأنه عابد
في محرابه ، ألم يختم كلمته عن كتابة بتكبرية الصلاة ؟ وبالجمله نادب الصباغ
نثرا وشعرا ، ويجدر بنا ان ننبه على ان له شعرا منثورا ، هو من الادب
الذي ذهب مع التيار الجديد المتمثل في ادب المهجر بكل اندفاع .

القصة والمسرحية

ومن أشكال النثر أو الفنون التى حدثت فيه لهذا العهد ، القصة والمسرحية . ونعنى بالقصة ما يشمل الحكاية الصغيرة والكبيرة المعبر عن اولاهما احيانا بالاقصوصة ، وعن الثانية بالرواية . اما المسرحية فالمراد بها الرواية التمثيلية سواء كانت كبيرة او صغيرة . ولا حاجة الى القول ان هذين الصليين الادبيين بصفتها الفنية المصطلح عليها عند الغربيين ، لم يكن لهما وجود فى الادب العربى قبل النهضة الحديثة . وقد بدأت المحاولات الاولى لمعالجتهما فى الشرق منذ وقت مبكر فى القرن الماضى ، وكان الاعتماد اولا على الترجمة للآثار الغربية المشهورة فى هذا الصدد ، او على الاقتباس منها ولم يظهر اى عمل شخصى متكامل فى القصة او المسرحية الا بعد الحرب العالمية الاولى . اما فى المغرب فان تلك المحاولات لم تبدأ الا بعد هذه الحرب ، وكان الباعث عليها فى القصة قراءة بعض المترجمات منها او الاطلاع عليها فى لغتها الاصلية بالنسبة لمن يحسنون لغة اجنبية . وفى المسرحية مشاهدة بعض التمثيليات التى شخصتها فرق مصرية وتونسية قدمت للمغرب فى ذلك العهد ، فاثارت انتباه الشباب المتعلم لتأسيس فرق وطنية عملت هى ايضا على الاقتباس من الروايات الغربية المشهورة او وضع تمثيليات تعالج احوال المجتمع على قدر الاستعداد الفنى الذى كان لها ولم تظهر تجارب ناجحة فى الميدانين الا على يد الخاصة من ادباء الجيل الجديد الذى نتحدث عنه ، اى فيما بعد سنة 1930 .

ومن اوائل الرواد فى هذا الباب الشاعر محمد القزى (ت 1356) . ان هذا الاديب وهب حياته للفن واتصل بالفرق الوطنية الناشئة ، فكان يمدّها بارشاداته ، ويسبك الروايات التى تقتبسها ، ويضع لها الحوار والانشيد المناسبة . والف عدة روايات منها اليتيم المهمل التى مثلت على مسارح المغرب غير ما مرة ، ولولا استشهادة فى اوائل هذا العهد لآتى منه

كاتب مسرحي أصيل .

وهناك رواد آخرون في الترجمة خاصة عن مولير واضرابه من الادباء الفرنسيين كالمهدي المنيمي وعبد الواحد الشاوي ومحمد بن الشيخ ، ولكن تلك الجذوة خمدت بعد قليل فذهبت آثارها ضياعا . وكان بإمكانها ان تؤثر تأثيرا ايجابيا في اتجاه كتابة القصة والمسرحية اتجاها صحيحا لو انها احتفظت بحرارتها الى حين . وجاء عقب ذلك الجيل الذي قدر له ان ينهض بالمهمة بعد ان يتخذ لها عدتها من ثقافة انسانية عميقة واستعداد فني كامل . فبدات اعماله تظهر للوجود ، وكان غالبها مما يحظى بالنجاح او بقاريه . وكثر الانتاج في هذا الباب كثرة نسبية فاصبحت القصة الصغيرة تكاد لا تخلو منها جريدة او مجلة . ولخرج بعض الكتاب مجموعات قصصية مثل وادي الدماء لعبد المجيد بن جلون وقصص من المغرب لاحمد البقالي وصور من حياتنا الاجتماعية لمحمد الخضر الريسوني . على ان القصة الكبيرة لم تعد من يعالجها وان كان النجاح فيها قليلا . وممن لهم فيها مزية ظاهرة عبد المجيد بن جلون : فان قصته (في الطفولة) نالت اعجاب النقاد وبرهنت على مقدرته الفنية وبراعته في تصوير المناظر والاشياء وتحليل المواقف والمشاعر ، ولئن كانت في الواقع انما هي حكاية لنشاته الاولى وتنقله في صباه ما بين انكلترا والمغرب فان ما اسبغه عليها من ظلال سحرية وما رسمه فيها من انطباعات فطرية جعلها تفيض بالحياة وتبلغ حد الابداع . وبذلك طارت شهرته كقصصى ممتاز فقلبت على ما له من مواهب اخرى في الشعر والنثر .

والواقع انه بتملكه لناصية الفن القصصى ونجاح تجاربه سواء فى القصة الصغيرة او الكبيرة أصبح هو القاص الاول في المغرب ان لم يرحزحه عن مكانه هذه كتاب آخرون سناوت حظوظهم في النجاح ، ولكنهم لم يقفوا عن الانتاج كما وقف هو منذ زمن

وظاهرة الانقطاع عن كتابة القصة تكاد تكون عامة بين الذين زاولوها واجادوا فيها ، مثل احمد بناني وعبد الرحمن الفاسي وعبد الله ابراهيم وسواهم . ولعلمهم انما كانوا يعطون الامثلة على استناعتهم ان بلجوا في كل باب من ابواب الانتاج الادبي حتى اضيقها مسلكا . ولم يكونوا جادين

في اختيار الفن القصصى وسيلة للتعبير عن افكارهم ، ولا ان يصبحوا في يوم من الايام مختصين بكتابة القصة . وعلى كل حال فان محاولاتهم الناجحة مما اضاف الى الحصيلة القصصية في المغرب ذخائر لا تنكر .

وبصفة عامة فان جهود الادباء تتوزع بين النظم والنثر والقصة والمقالة وغير ذلك من ضروب الانتاج الادبى ، ولا نجد ادبيا انتطع الى كتابة القصة خاصة او كان اهتمامه بها اكثر من اهتمامه بالالوان الاخرى من الادب ، فهذا عبد العزيز بن عبد الله يكتب المقالة والبحث ويؤلف قصة طويلة مثل عادة اصيلا . والحاج محمد بنونة يحرر المقالة والبحث وينظم الشعر وهو صاحب مسرحية عيشة قنديشة وغيرها ، وعبد الخالق الطريس الذى كتب مسرحية انتصار الحق بالباطل يشتغل بالسياسة كما هو معلوم ، وقاسم الزهرى ومحمد العربى الخطابى واحمد زياد كل منهم بعد صاحبها وناثدا وكتاب قصة . وابو بكر الممتونى يتعاطى قول الشعر وكتابة القصة . ومثله عبد الكريم بن ثابت واحمد البقالى . وعبد القادر المقدم له تمثيلات متنوعة وهو يعد من الشعراء . وعبد القادر السميحى وهو كاتب وجدانى له كذلك تمثيلات مشربة بروح الرمزية . وهكذا لا نستطيع ان نعد كتابا تمارس بالقصة او المسرحية الا وهو بصرف من طاقاته الفكرية في مناح اخرى ما لو خصصه او اكثره باحد العملين لتفوق في ذلك ايما تفوق ولتامت قواعد الفنين على اساس من التجربة الصادقة والمعاناة المنتجة . ولهذا فالواقع هو ان كلا من القصة والمسرحية في ادبنا ما يزال في طور التكوين . واذا كانت هناك محاولات ناجحة فليس معناها ان الطريق قد طويت وان الامر قد استقر في نصابه بالنسبة الى هذين الفنين من النثر . وكل ما هنالك ان البداية حسنة وانها تدل على مستقبل زاهر في هذا المجال ، يتوافق وما حققناه من تقدم في المجالات الاخرى .

ولعله مما يكون سابقا لاوانه الحكم على هذه الاعمال والقول بان اصحابها ينتمون لهذا الانحاء او ذاك فالحقيقة ان الاتجاهات متعددة وان كانت النزعة الواقعية اكثر ما تكون بروزا من بينها . ولكن ما دامت قواعد الفن كما قلنا لم ترس على اساس بمعنى ان المحاولات الجادة لادبائنا في هذا الميدان ، ما زالت تنعثر بهتلك العوائق ، فان من المستحسن تأخير الحكم

حتى تتوفر دلالة ، والاكتفاء بالإشارة الى ما يكون في العمل من نزعة ظاهرة او خفية ربما لا تكون أصيلة في نفس الاديب ، وانما اوجت بها طبيعة العمل ، وبهذا لا نجازف بتقديم نتائج مقدماتها غير صحيحة .

ونعطي الآن بعض النماذج من القصة الصغيرة تثبت مشاركة كتابنا في هذا اللون من الادب ، واستيعاب النثر المغربي في تطوره ، لجميع الاشكال المستحدثة في النثر العربي ، سيما مع قافلة التجديد في وطن العرب الكبير . وليكن النموذج الاول هو قصة وادي الدماء لعبد المجيد بن جلون :

« اتينا خناغا على مرتفع في الحقول ، وكانت الزروع الخضراء تحيط بنا في كل اتجاه الى ان تغيب خلف الأفق البعيد ، فيخيل لنا والنساء تميس بها اننا نقيم في جزيرة تتراقص حولها امواج ناعمة صغيرة خضراء وكان كل شيء يدل على ان الاقدار سوف تنقسم في تلك السنة لهذه البلاد التي يرتبط تاريخها بنسبة ما سقط فيها من الامطار وانه ليخيل اليك ان في استطاعتها ان تسقط دولة .

وتفتحت ثلونا الصغيرة للربيع ، وكانت الطبيعة تقدم لنا اعز ما نقدناه في المدينة ، وهو الحرية ، كانت تتمثل لنا في السماء والارض وفي كل كبيرة وصغيرة بينهما ، وكانت الحياة جديدة بالنسبة لنا ، ولذلك كنا نتأمل باغتياط كل شيء نراه : نجمة في السماء ، سنبلة بين السنابل بل طائرا فوق غصن ، كل شيء نراه كان يسترعى انتباهنا .

ولم يكدر علينا هذا الصفاء الا قدوم جباة الضرائب الفرنسيين ، فما كادوا يصلون حتى نادوا بجمع كل الملاحين والرعاة ليستخدموهم في اقامة معسكرهم ، وفي شق الطريق لهم بين الزروع . والحقيقة انهم لم يكونوا في حاجة الى كل هذا لانهم كانوا يقدرون الضرائب بنظرة من النظرات . ولو سمعت الحياة يتحدثون اليهم لحسنتهم اصحاب الاراضي يتحدثون الى العمال والمستخدمين . كانوا صخاين جبارين قاهرين . ولكن رئيسهم كان يفوقهم في ذلك فقد كنا نسلل الى قريب من معسكرهم لننصلي بالنظر اليه وهو يصبح ويلعن ، ويضرب الهواء بيده والارض برجله ولا يرى الا غاضبا مزمجرا

لم يكن من الغريب في المغرب أن تستقر شمس الربيع خلف ربائب
بيضاء فأبريل ظليل كما يقول الناس هناك بل أن في ذلك ما يزيد الربيع
بهجة وجمالا . ولكن حدث ما أنسا جياة الضرائب وصخبهم فقد تلاحقت
السحب بالسماء الى أن أصبحت دكناء كثيفة ، وأندرت الأرض البانعة
الخصبة بالثلف والبوار . وبين عشية وضحاها غارت أنوار الربيع المتألقة
خلف سحب قاتمة كأنها قطع من الظلام ، وساد الحقل سميت رهيب
كما لو كانت تشعر بأن كارثة توشك أن تنزل بها وتلف أثمارها ، وجلس
الفلاحون والرعاة ينظرون بعين الرعب الى طلائع العاصفة . وهبت فجأة
ريح صرصر عاتية ، وازداد الجو ظلما ، ثم تساقط رذاذ ما لبث أن انقلب
الى مطر غزير ثم انطلقت العاصفة من عقاليها ترعد وتبرق وتمطر ،
فملا ذلك قلوبنا حسرة وأسى ، فان ساعة واحدة من الأمطار كافية
لاتلاف محصول السنة كلها .

عللنا النفس بانها عاصفة عابرة ، ولكننا بتنا نسمع هديرها الى
الصباح ، واستمرت طول اليوم التالي ، وأخيرا عرفنا اننا انقطعنا عن
المدينة . وانه قد أصبح من المستحيل علينا عبور الطريق الزراعية راجلين
أو راكبين لكثرة ما تكدر فيها من الأحوال ، وصمد خاؤنا للعاصفة سبعة
أيام كاملة ، ثم بدأت المياه تتسلسل اليه ، ولما نفذ زادنا وذهب احد الرعاة
لباتينا بغيره من قرية تبعد عنا بمسافة نصف ساعة ، غاب عنا حوالى
عشر ساعات . والحقيقة اننا وجدنا بعض اللذة في ذلك ، ولكن الامر طال
فتسرب الرعب الى نفوسنا ، فداننا نشعر باننا مهددون بخطر مسيطر
وماذا يكون لو انهار ما بقى من خبائنا . على أن الشيء الذى خفف عنا
بلوانا قليلا هو أن جياة الضرائب وقعوا فيما وقعنا فيه . فكانوا يتسلون
بالنظر الينا كما نتسلى بالنظر اليهم وربما تبادلنا بعض الاشارات التى
لا معنى لها .

لم يعد في استطاعتنا أن ننام بعد الليلة العاشرة اذ ابتل كل شيء في
الخباء ، فجلسنا نتحدث ساهرين . كانت الليلة تبدو لنا اشد هولا من
الليالى الماضية ، ولم تكن العيون تدرك وسط الدياجى سوى ضوء خافت
في اتجاه خباء جياة الضرائب . وكنا نقفز في احاديثنا من موضوع الى

موضوع ، شأن من تحدثوا عشرة ايام ، بيد ان اعرابيا من الرعاة استطاع ان ينقلنا بموضوع جديد واى موضوع . قال لنا وهو يشير بيده في ضوء البرق : انظروا هل ترون ذلك الوادى . سأحدثكم عنه ، انه وادى الدماء .

كان كل شيء ، حولنا يبعث الرعب في النفوس ، ولذلك حمل هذا الاسم الى قلوبنا معنى رهيبا . كان يتحدث والسماء تبرق ، وكنا نرى على ضوء البرق ذلك الوادى البعيد وكأننا لم نره من قبل ، وهو انحدار هائل يقع عند سفح جبل قديم محطم ، وقد امتلا بالصخور الكبيرة المبعثرة . وسألنا الاعرابى بصوت واحد ، وادى الدماء . فقال نعم ، وادى الدماء . كانت تقوم هنا في الزمن القديم قرية يحكمها حاكم ظالم حياته تمعج بالدماء والفضائح والسرقات وكان هذا الوادى هو المجرى الذى يذبح فيها ضحاياه ، فتكونت نتيجة لذلك في اعماقه بركة من الدماء ، وبلغ من تهتك ذلك الحاكم الطاغية انه اقام حول هذه البركة القصور والبساتين ، وجعل منها مرتعا لاهوائه الجامحة وكان يمد البركة دائما بالجدول من دماء الضحايا ولكن ذات ليلة بينما كان الحاكم في احدى السهرات على حافة بركته الحمراء يشرب الخمر ويغازل النساء ، قام مترنحا لينظر الى وجهه في صفحة البركة على ضوء القمر ولكن يا لهول ما حدث ، فما كاد يصل الى حافتها حتى امتدت اليه آلاف الايدي من اعماق الوادى ، هي ايدي ضحاياه وجذته وهو بصرخ الى الاعماق حيث اختفى الحاكم الى الابد . وما زال الوادى محفوقا بالاسرار منذ ذلك الزمان فما يوجد احد يستطيع ان يقترب منه . ذلك انه يستدرج اليه الظالمين دائما حتى اذا اقتربوا منه اختطفهم تلك الايدي وجذبتهم الى الاعماق .

وارتفع صوت الرعد ليضعف هلعنا ، ولكن عيوننا المرعوبة كانت مثبتة في الوادى لكى نراه كلما اضاء البرق السماوات . يا للفجيعة ! لم يكن الاعرابى يتحدث عن خرافات الاولين . اننا جميعا نرى اعماق الوادى ، وليست هناك صخور ولا فراغ ، بل انه يطفح بذلك السائل الاحمر المروع ، نراه كلما ابرقت السماء يغلى بالدماء ، فاصابتنا رعشة اخربت السفتنا .

وانطلق الرعد مدويا صاحبنا كما لو كان قد اهاجته قصة الاعرابى ،

وانحدرت اصداؤه تتدحرج الى الارض لتتردد في اعماق الوادى رهيبه
مفزعة ، كما لو كان قد اجتمعت فيه ثلة من العمالقة اغرقوا في ضحك
ساخر مهول ثم انطلق الرعد مرة اخرى فرد عليه الوادى في ضوء البرق
ردا آخر مفزعا ، ولم تنجل عنه نوبة الفزع الا بعد أن هذا الرعد قليلا .

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد فقد سمعنا في الصمت الذي اعتب
الرعد صياحا مزعجا وكان من الواضح انه صوت انسان يصرخ وما زال
يقتررب ويقتررب الى أن بدأنا نميز ما يقول : تبا لك يا بلاد العواصف
والرعود ! ويل لك منى غدا ! لامزقنك اربا ، واذروك في الرياح ! آه ،
انى جننت هل تسمعين ايتها الرعود ؟ انا مجنون انا مجنون .

ثم تعالى الرعد مرة اخرى فاعقبه الصوت بضحك متواصل اليم ،
ثم بدا ان صاحب الصوت قد اقترب منا وفعلنا راينا على ضوء البرق
انسانا يزحف الينا وجفطنا حين اقتحم علينا الخباء ملطخا بالاووال متفوش
الشعر محمر العينين منتفخ الوداج نعرمناه . انه هو ، رئيس جبة
الضرائب وفي اللحظة عينها وصل اعوانه واثاروا اليها ان يعقله خلا ،
فلا داعى لمقاومته او الرد عليه ، بينما كان هو يصيح في وجوهنا ، انا لا
تخيفنى رعودكم بل اننى احتقر عواصفكم ولا اسمح لها بأن تحاصرنى ،
لاقتحمنا الاووال والبرك الى الطريق المعبدة دون ان اشارككم مصيركم
المخجل . موتوا انتم هنا ليجدوكم بعد العاصفة جثثا ملطخة بالاووال يتعثر
فيها عابروا السبيل هل انتم فاهمون ؟ لن يقال غدا ان عاصفة مراكشية
اردت لغنى من فتيان فرنسا . ثم رفع يده مهددا ، فتاخرنا خطوة الى الوراء
وقد اندكت نفوسنا لهذه الاووال التى احاطت بنا .

حاول اعوانه ان يمسكوا به ولكنه وكزهم وقتل من بينهم الى الاووال
فساروا في اثره وهناك تنفسنا الصعداء وحاولنا ان نضحك لكى نقتنع
انفسنا بان الازمة النفسية التى كنا فيها قد انقشعت ، ولكن احدنا التفت
على ضوء البرق وقد راى رئيس الجبة يزحف في طريق الوادى واثار
اليها صامتا مرأينا وتبادلنا النظرات . ولكن الاعرابى الذى امزعنا بقصته
المزعجة لم يستطع ان يكتم شعوره فصاح الم اقل لكم ان تصمى
آبائنا صحيحة دائما . ان الوادى المنتقم يجذب الظالم اليه ، لن يجبى

ضرائب بعد اليوم ، سوف يصل الى حافة البركة الحمراء فتخطفه ايدي ضحاياه الذين افقرهم وشردهم وأذلهم . سوف تتخطفه كما نخطفت الحاكم الظالم من قبل ، وكما ستتخطف كل ظالم عات في المستقبل ، بل ان الجباة جميعا سائرون نحو الوادي ليلحقوا بضحاياهم ، سوف تتقاضى منهم تلك الايدي المخيفة ثمن الزروع التي افسدوها والتي سرقوها والتي اغتصبوها .

ونظرنا فاذا بهم يسرون خطوة خطوة وسط الاوحال نحو الوادي الرهيب ، الوادي الذي يعلى بدماء الضحايا ودموع العذارى وصراخ الاطفال واثنين الامهات وعويل الشيوخ . وكان الرعد يخف والمطر ينحسر كلما اقتربوا . ولم يبق بعد ذلك من العاصفة سوى برق صامت ينير لهم الطريق الى وادي الدماء .

هذه اول قصة في مجموعة وادي الدماء للكاتب وهي كتيبة بان ترشدنا الى معالم فنه ، وتصور لنا احساسه ازاء الاحداث وانعكاس هذا الاحساس على العمل الادبي الذي يقدمه الينا مفرغا فيه كل ما يملكه من طاقة وقدرة على الابداع والانتقان . ولعل تصوير الواقع او الفزعة الواقعية عند الكاتب مما لا يحتاج الى تدليل . ان الاستعمار اى استيلاء امة قوية على امة ضعيفة واستغلالها واستغلالها هو اكبر مصيبة تصاب بها امة في حياتها، انه يدوس كبرياءها ويحرمها من الاستمتاع بخيراتها ويعوقها عن النهوض والتقدم ، والامة المستعمرة بما تحسه من غضاضة وما تراه في كل مكان من آثار للمستعمر تتحدى شعورها بالكرامة الانسانية والحرية الطبيعية، لا تفكر الا في وسائل الخلاص من هذا الشر المستطير والداء الوبيل ، ولا تفتأ تقلب قضية الحرية على جميع وجوها وتعلق بما يمكنها من قهر عدوها واسترجاع سيادتها ولو كان وهما من الاوهام او حلما يراه النائم في الخيال وقد كان هذا هو واقع الامة المغربية ايام الحماية ، فالكبر والصغر والمتعلم والجاهل وساكن المدينة او البادية كلهم كانوا يعيشون هذا الواقع المرير ويتجرعون غصصه ولا تطيب لهم حياة ولا ينعمون بصفو كلما اصبحوا وامسوا وهم يرون الاجنبى الدخيل يحكم بامرهم ويسيطر على بلاد الابهاء والاجداد .

وذلك هو ما عبر عنه عبد المجيد بن جلون في مجموعة قصص وادی الدماء وفي هذه القصة بالخصوص احسن تعبير . ان هؤلاء فتية في سن الشباب والمرح واللامبالاة . وقد خرجوا الى البادية في نزهة ربيعية ، قصد التمتع بجمال الطبيعة ومناظر الحقول الزاهية ، ولكن الوجود الاستعماري يلاحظهم فينقص عليهم صفو نزهتهم ، ولا تلبث النزهة ان تنقلب الى اجتماع وطني يتضامن فيه ابناء الحاضرة مع ابناء البادية ويتبادلون الراي في هؤلاء المستعمرين الطفلة وسبيل التخلص من سيطرتهم الظالمة .

ويصف ابن جلون عجرة جياة الضرائب الفرنسيين واستخدامهم للاهالي استخدام العبيد وتهور رئيسهم وحركاته الطائشة بما يعلمه كل مواطن شاهد الفرنسيين وثافتهم ايام حكمهم للبلاد وتمكن قدمهم فيها . ويمر ريشته الفنية على المناظر والاجواء ويهوى القاريء لاستقبال الاحداث والوقائع الموهلة التي حدثت اثر الثورة النفسية العارمة التي اضرمتها في صدور اولئك الشبان ورفقتهم البدو ، تصرفات المستعمرين واعمالهم الجائرة ويعمل الخيال الواسع عمله في لباس الاوهام لباس الحقائق فيجعل الطبيعة تثور ثورة مدمرة ، كأنها تتجاوب مع نفوس اصحابنا المتلظية بالفيظ والالم ، ومن خلال البروق والرعود والامطار الطوفانية يرى الجماعة وادی الدماء الذي حدثهم عنه احد البدو وحكى لهم قصته ، فاغرا فاه لابتلاع الظلمة والمجرمين ملوحا بآلاف الايدي ، ايدي الضحايا والمعذبين من سكانه ، لاختطاف المستعمرين والمستغلين . وهنا يصل العمل الفني الى الذروة في الملاعة بين الواقع بما فيه من مرارة وثورة وحسرة ، والخيال الذي يحقق الاحلام وشفى غلة النفوس الظالمة الى التشفى والانتقام . وتنحل العقدة وتنتهي القصة نهاية رائعة .

ونسلا عن هذه الحبكة الفنية المتقنة فان في القصة ملامح من رمزية معبرة تمثل في اسم وادی الدماء الذي يراد به ارض المغرب ، والحاكم الظالم الذي يعنى هؤلاء الاجانب المسيطرين من رومان وبيزانطيين وغيرهم ، فقد هووا جميعا في وادی الدماء هذا الى القعر ، ولقوا مصيرهم الذي هو مصير كل ظالم متعدي ، فما بكتهم السماء ولا الارض بل هدات ثورة الطبيعة وسكنت العاصفة ولم يبق منها (سوى برق ضامت ينير لهم الطريق الى وادی الدماء) ومما لا شك فيه ان الكاتب يرمز بهبوب العاصفة الى

ثورة الشعب ، وأن وقوع ذلك في البادية اشارة الى ممكن الثورة ، حيث ينوقع الخلاص على يد رجال القبائل الاشداء مساعير الحروب وابطال المعارك ، وقد حقت الكلمة وانتفض ابناء المغرب الاحرار ، حاضرين وبادين انتفاضتهم التاريخية التي امسكوا فيها بخناق الاستعمار حتى لفظ انفاسه وذهب الى غير رجعة .

تلك هي قصة وادي الدماء ، وذلك هو عمل عبد المجيد بن جلون فيها . فلا غرو ان كانت هي اول قصة في المجموعة القصصية التي تحمل اسمها ، فالكتاب يقرأ من العنوان كما يقولون . على ان بقية قصص المجموعة وهي عشر تحمل كلها هذا الطابع ، ولولا ضيق المقام واردة التنويع لما اكتفينا منها بهذا المثال فعلينا ان ننظر في عمل آخر لغيره من باب القصة الصغيرة ايضا . وليكن هو قصة خابية لا تمتلىء لاحمد بناني .

« قرب طول فصل السواح واخذ تجار البضائع القديمة بسوقهم المعروفة بفاس يعدون عدتهم وينشرون كل صباح بضائعهم المختلفة على ابواب دكاكنهم وينسقونها نفسيا بديما محتفظين بما كساها من غبار ووسخ وصدا ، لتستلفت انظار السواح المنتظرين . وذات صباح بينما هم منهمكون في عملهم هذا ، اذا بالشارع تذف بأجنبي غريب البزة غريب المنظر تدل قامته الطويلة على انه من بلاد ناطحات السحاب ، يمشي الهوينا ويمعن النظر يمينا وشمالا تحسبه يطوف بمتحف عجائب الدنيا ، يلقي نظرات الاستعجاب والاستطلاع على الاشياء البسيطة العادية كانه في عالم لا قبل له به مما يدل على ان هذه رحلته الاولى في البلاد الشرقية التي يتخيلها الاوروبيون والامريكيون كلها اسرار وعجائب غرائب . فمثل هذا السائح ينتظره التجار بفارغ الصبر اذ مثله من يبذل الثمن الغالي في اقتناء البضائع البسيطة اذا قيل له ان مهدها يرجع الى قرون او انها تتصل بحادثة تاريخية او بحياة احد سلاطين المشرق . فما ان وقع بصر التجار عليه حتى صار كل واحد يستدعيه لزيارة دكانه ويستهو به ويخاطبه بلغة تكاد تكون انجليزية . ويلبى الاميركاني دعوة الجميع فيدخل الى الدكاكين ويرى ما يعرضه عليه اصحابها من زرابي رثة واوانى من نحاس بالية واخرى من خرف مشقوق وبضائع من الجلد غريبة الشكل ناصعة الالوان ، فيبتسم

ابتناسمة الاستحسان ثم يخرج دفترًا من جيبه ويكتب ما يكتب ويقوم منصرفًا

ويأتى كل يوم فيزور الدكاكين ويقيّد في دفتره ، والتجار مستثمرون خيرا بذلك ، اذ لا محالة انه يقيّد البضائع التى استهوتته ويقيّد اثمانها حتى اذا استقر رايه وذوقه ، وقابل بين الاثمان واوشك على الرحيل اخذ البضائع وترك الدولار المنشود .

وتتوالى زيارته ولا يشتري شيئا ، فيخاف التجار ان يغادر المدينة قبل ان يبتاع منهم شيئا : فأي بضاعة يا ترى تستهويه ؟ ربما لا تستهويه الا الاشياء النادرة العتيقة التى لبس لها ند ولا نظير ، وهل ذلك عسير على نجارنا الماهرين ؟ فما هذا الامريكاني اول سائح استعصى عليهم امره واستغلق عليهم لفزه .

جاء يوما الامريكاني كمعاده فدعاه احد التجار للجلوس وقال له عندي خاتم ليس بخاتم الحكمة ولكنه لا يقل عنه قيمة فله قصة لو علمتها وعلمت طرافتها لندلت المال في سماعها قبل ان تبذله لاقتناء الخاتم نفسه . ان هذا الخاتم كان لا يفارق اصبع السلطان الشهير المنصور السعدى ، ثم انتقل الى اصبع اعز جواريه ولهذا قصة غريبة . واغرب منها المغامرات التى ارتكبتها للحصول عليه ، وذلك .. فبينت الامريكى الى القصة وبينسم ثم يقول ثانكيو وينصرف .

ويلاحظ احد التجار ان هذا الامريكى لا يحمل دليل الطرق ولا آلة التصوير كمعاده السواح بل هو يتأبط دائما كتبًا وأوراقا . فربما كان مهتما بالشؤون الفكرية واخبار العلم والعلماء اكثر من اى شيء آخر فيستدعيه للجلوس ويقول له اريد ان اتوجك لا بتاج الامراء والملوك . ولكن بتاج العلم والعرفان ؟ هات راسك لاجعل عليه هذه القلنسوة ، انها ثقيلة انها وسخة ولكن لو علمت اى راس كانت تقيه لحمدت الله على هذه السعادة التى لم تتح لغيرك . انها قلنسوة كانت لا تفارق راس المؤرخ الشهير ابن خلدون ، فبلى الامريكى نظره على مرآة امامه فيرى كيف صار منظره مشوها غريبا فيبتسم ، وينزع القلنسوة المباركة من راسه ويردها لصاحبها ثم يقول ثانكيو وينصرف .

ولا يخرج الأمريكي من الدكان حتى يناديه تاجر آخر فيجاذبه اطراف الحديث ثم يقول له سمعت ولا شك بالخليفة هارون الرشيد ، اذ لا يذكر الشرق عندكم الا مقرونا باسمه ، فيهرز الأمريكي راسه ويستمر التاجر في حديثه — ترى كل هذه البضائع التى يفص بها دكانى ؟ انها لا تعدل قيمة هذه الجبة . ويجعل المفتاح فى صندوق كبير ويخرج منه جبة من الطيلسان ويقول نعم هذه جبة كان يرتديها ذلك الخليفة العباسى . فيلمسها الأمريكى ويبدى حركة استحسان ثم يقول ثانكىو وينصرف .

وتمر أيام ويلتجىء التجار الى وسائل آخر ربما يكون لها التأثير القوى على الأمريكى فتندى يده بالدولار فيدخله أحد التجار الى قعر دكانه ويسر له فى اذنه انى ساذهب بك الى مكان ترى فيه ما لا عين رأت . ولكن لا أريد أن يراك الناس معى فاعرض نفسى للتهلكة فاتبعنى عن بعد . فيقبل الأمريكى ويخرجان فيقطعان الاسواق والشوارع ثم يصلان الى درب ضيق مظلم لا يسمع فيه الا هدير الماء ولا يراءى فيه الا لمعان اعين هرة سمعت بخطاهما فالتجأت الى زاوية « ويفتح التاجر بابا ويدخلان ثم يغلقه ويجتازان دهليزا فاذا هما بصحن فيفتح التاجر بيضا ثم يجعل المفتاح فى صندوق ويقول لو علم اهل الحى انى اتيت بك الى هنا لقتلوني وتتلوك معى . ان ما ستراه اعز نراث ورثته عن اجدادى الكرام وهو انفس ما يدخره مسلم . انظر ماذا ترى فى الصندوق ؟ لا ، لا تمسه ؟ لا تلوثه بيدك انه شىء مقدس . فيمعن الأمريكى النظر طويلا ثم يرفع راسه واذا بالقرب منه سيف طويل علاه الصدا ، جعل فى اطار من زجاج يحوطه اروقة فاخرة . فيقف الأمريكى منتصبا برهة من الزمان ، والتاجر بجانبه لا ينبسان ببنت شفة ثم يقول التاجر الآن علمت انك تقدر الاشياء النفيسة حق قدرها لو كنت تحسن العربية لقرأت ما هو منقوش على هذا السيف . وانكشف لك الامر فى الحين . فينظر الأمريكى ويمعن النظر فيما يحوط به ويتناول القلم ويكتب فى دفتره ثم يقول ثانكىو وينصرف .

ان شان هذا الأمريكى لغريب . فمن عادة الأمريكانيين ان يبذلوا عن سخاء لاقتناء سقط المتاع وابخس البضائع البلدية ، وهو يرى الاشياء العربية النفيسة النادرة فلا يمد يده الى جيبه ، لقد عرض عليه تاجر

مفاتيح غريبة ما رآها ولا سمع بها أحد ، وهى مفاتيح دار اجسادهم بالاندلس . فلفتت نظره وامعن فيها البصر وفحصها فحفا دقبقا ثم قبذ ما تيد فى دفتره ولكن لم يزد على ان ابتسم وقال ثانىكو .

وصباح يوم اشترى احد اولئك التجار جريدة سيارة ليرى هل تشر بقرب مجىء باخرة سواح . واذا به يقرأ ويمعن فى القراءه ويضحك ويسفرق فى الضحك ثم ينادى زملاءه فيلتفون حوله ويقول لهم اريحوا انفسكم اذ يستطيع كل واحد منا ان يخترع ويضيف اغرب الاشياء وابعدها عن الحقيقه لتستهوى السواح ولكن لا نستطيع ولو اجتمعنا كلنا ان نخترع او نضيف ما يسعى اليه صاحبنا الامريكى اذ هذه الجريدة تقول انه يبحث عن جزيرة ، نعم جزيرة انظروا فيتناولون الجريدة فاذا هى مصدرة بمقال طويل منوح بصورة ذلك السائح العريب ، جاء فيه ان هذا الامريكى هو العالم المشهور طوماس العضو للمجمع العلمى بامريكا . قدم للمغرب معونا من قبل جمعية الابحاث التاريخية والاجتماعية المتعلقة بعصور البشرية الاولى ليقوم بالبحث عن الانلنطيد وهى الجزيرة التى يعدها العلماء والفلاسفة فردوسا مفقودا . والى الآن لم يهتد احد الى تحقيق موقعها . وغاية علمهم عنها ان الحكيم افلاطون ذكرها فى احد كتبه ووصفها بما توصف به جنات الآخرة من هناء وسعادة وبذخ ونعيم . مع تحقيقات جغرافية وتاريخية مما يدل على ان هذه الجزيرة ليست من وحى الخيال بل كان لها وجود ثابت لا شك فى ذلك ولا مرأى الا ان الارض طونها او غمرها البحر ، فجزيرة مثل هذه نشأق اليها نفوس العلماء والفلاسفة وبودون لو يهتدون الى موقعها لا ليتسرعوا بنعيمها اذ هى ولا شك غنيتها ابدى الايام ولكن ليوقنوا انه كان قبل هذه المدنيات المعروفة مدنية اخرى فيفتح لهم المحال لباحث علمية قد يكون لها الشأن الخطير فى تاريخ الفكر البشرى ولذلك فمىذ ذكرها افلاطون وهى موضع اهتمام العلماء والباحثين والمتقنين والسعراء حتى علماء السحر والروحانيات ، ونيفت الكتب التى الفت حولها على المين ولكن بدون جدوى ، وفى كل عصر من العصور يكثر الكلام حول هذه الجزيرة ويظن الناس ان المشكلة كادت تنحل .

وفى المدة الاخيرة حظيت هذه المساله بعناية خاصة من المجمع العلمى

الامريكي اذ حاضروا أحد أعضاء هذا المجمع رصفاءه يبحث كان له رنين في الاوساط العلمية ذكر فيه ان الاتلنطيد يمكن الاهتداء اليها بوسيلة غير مباشرة ربما كانت اجدى وانفع من ابحاث الجغرافيين والمؤرخين . وذلك ان سكان الاتلنطيد كان من عادتهم ان يجعلوا الحمقى بمارستات يظلون سحابة اليوم كله يملأون خواصي مثقوبة فكلما وضعوا فيها الماء من اعلى سالت من اسفل ، فيظلون يملأونها وهي لا تمتلئ فيكون لهم في ذلك ما يشغلهم عن ارتكاب افعال الحمقى ، ثم ذكر المحاضر ان علماء الاخلاق والعادات كانوا يظنون ان هذه العادة انقضت لانهم ما وقعوا عليها عند امة من الامم او سمعوا عنها في قطر من الاقطار : ولقد وقف هو عليها اخيرا في كتاب الف عن المغرب حديثا ذكر صاحبه ان بمارستان سيدي فرج بفاس خابية مثقوبة يلزم الحمقى بملئها دوما واستمرارا من دون ان يهتدوا الى الخرق الذي بها ومن اهتدى الى ذلك يوما واشتكى ، استدلوا به على انه عاد الى رشده فيطلق سراحه ، وختم العضو حديثه ملفتا نظره زملائه الى اهمية هذا الاكتشاف البسيط في حد ذاته العظيم لما ربما سينتج عنه ، لا سيما وبين الاحتمالات القوية ان بقايا الاتلنطيد هي الجزر الخالدات التي على مقربة من شواطئ المغرب .

وقد كان لهذا الحديث وقع عظيم في نفوس أعضاء المجمع ولاحق لهم بارقة امل فاشرقت وجوههم المتجمعة ، فتداولوا بينهم طويلا ثم اجمعوا رأيهم على ان يكلف صاحب البحث بشد الرحلة للمغرب ، هذا البلد الغريب الذي لا زال به حمقى يملأون الخابية التي لا تمتلئ كما كان يفعل ذلك حمقى سكان الاتلنطيد منذ عدة قرون

كان هذا سبب مجيء العالم طوماس لفايس مكان كما راينا يمر كل يوم بسوق البضائع القديمة في طريقه الى المارستان . يظل سحابة اليوم يبحث وينقب ويغابل بين ما هو مسطر في المؤلفات التي يحملها معه وبين ما هو معد للحمقى من سلاسل وعصى من كلخ وخوابي مثقوبة . ويقف الساعات الطويلة مفكرا مثنوفا امام الخابية التي لا تمتلئ ينكب عليها طويلا ثم ينتصب واقفا وينظر اليها تارة من قريب وتارة من بعيد . ويلقى عليها تارة نظرة الفنان المستوحى الهامه وتارة نظرة الفيلسوف الهائم في

عالم التدقيق والتحليل والمقابلة والاستنتاج وقد لا تكفيه رؤية العين
المجردة فيتوج انفه بنظارات ضخمة تكسبه غطرية العلم وطغيان
العرفان .

وقد كان مقدم المارستان يصده عن الاقتراب من الحمقى خوفا من
ان يلحقه سوء منهم ولكن الحمقى مع مرور الايام الفوه والفهم فصار يظل
بينهم آمنا مطمئنا . وكان طوماس اذا رجع الى الفندق الذى يابى اليه
سهر الليالى يسود الصحف ليواصل المجمع العلمى الأمريكى بذكرات
تلغرافية يحررها فى لغة رمزية حتى لا يفهم احد غير اعضاء المجمع هذه
الابحاث القيمة التى ترمى الى اكتشاف الجزيرة الضائعة .

وفى كل يوم كانت ترد على طوماس البرقيات والرسائل العديدة
من الجرائد الكبرى ودور السينما بأمريكا يلتمس منه اصحابها ان يوترهم
ببأكورة اكتشافه ذاكرين انهم رهن اشارته ليرسلوا اليه مبعوثا خاصا
من أمريكا ليتلقى منه نصريحا او يلتقط صور الناحية التى كان اهل
الائتنطيد يعيشون فيها . والى ذلك فان الجرائد بأمريكا كانت تشعر
من حين لآخر ان العالم يتمخض عن اكتشاف خطير مشيرة بذلك الى نتيجة
البحث الذى يقوم به طوماس .

ومرت ايام فاذا مذكرات طوماس تنقطع عن المجمع فينتظر الاعضاء
ويطول انتظارهم فيبرقون لطوماس فلا يجيب . ثم يبرقون لأمريكى شهر
بالمغرب يلتمسون منه ان يخبرهم عن طوماس فيبحث عنه فى الفندق وفى
الاسواق فلا يجده . فيذهب الى المارستان ومنه يتوجه توا الى مكتب
البريد فيرسل للمجمع العلمى الأمريكى البرقية الآتية : بحثت عن العالم
طوماس بمارستان سيدى فرح نفاس فألفيته منهما بين الحمقى يملأ
الخابية التى لا تمتلئ .

فى هذه القصة تتبين مقدرة احمد بنانى على الوصف والحكاية ،
فهو يستوعب الشادة والفاذة مما يتع تحت البصر او يخطر بالبال ، فى
رسم لوحانه والتحدث عن اشخاصه . وينظر ويمعن النظر — على حد
تعبيره — حتى لا يبتى محل للملاحظة او ما يستدعى الاهتمام . فالميزة

الاولى لفنه هي هذه الحاسة المتيقظة التى يتعاون فيها عمق الشمور ودقة التسجيل ، على اعطائنا صورة متكاملة لما يعرضه من نماذج بشرية وعوالم محيطة بها . ومن ثم فهو يستهدف أن يرضى الفن أكثر من أى شئ آخر . فلا تبحث في أدبه عن التزام ، ولا تتأثر خطاه ناشدا تجربة واقعية أو حدثا ملهما . انه ينظر للحياة من زاوية أخرى ، حيث يستكشف ما فيها من عبث أو سخرية وتظاهر كاذب بالجد وامعان في النفاق . فلا يفكر أن يصلح الفساد أو يقيم الانحراف ، وانما يكون همه أن يصدق التعبير عما رآه ولو بتجسيم الوقائع لتبدو كما تصورها هو ، وان ينقل قارئه الى الجو الذى عاش فيه التجربة ليمتعه ولو برهة من الزمن بما رأى وما سمع ، ضاربا في ابعاد الرؤية والسمع الى الحدود التى تنتهى اليه عنده . واذا لم يكفه التصوير ليؤدى كل ما يحسه لانه يعمد الى استغلال المواقف واستنطاق الاحداث ، حاضرة وماضية . وفي المعطيات الفنية التى يستخلصها منها ما يجعل عمله يبلغ مدى التأثير والاعجاب .

واحمد بنانى بنظرته الخاصة للحياة يكسو فنه نسيج رقيق من السخرية والاستخفاف بكثير من المواضع الاجتماعية . فهو من هذه الناحية يعتبر ناقدا للمجتمع ، ولكنه كما قلنا لا يهمله أن يراجع المجتمع اخطاءه بل لعله يبررها ويلتمس لها المخرج والعلل . الا تراه يقابل ما بين البيئة المغربية ، وخاصة في فاس العاصمة العلمية للمغرب ، ممثلة في طبقة تجار العاديات منها ، والبيئة في أوروبا وأمريكا مبعث الاشعاع الحضارى والتقدم العلمى ممثلة في طبقات السياح ، وما ينطوى عليه كل فريق من نقائص وعيوب ؟ فهو يقول بلسان الحال ان هذه هي الحياة، وهؤلاء هم البشر ، والتدجيل كثير ، وليس من دجل بمهنة كمن دجل بعلم .

والعقدة عند أحمد بنانى انما تأتى في المقام الثانى من الاعتبار ، بعد الحبكة الفنية . ولذلك فانا نراها قلقة في يده تهم بالانفلات منه ولكنه يداريها جهد ما تكون الإدارة ، حتى يضل القارئ ثم يحطها فجأة من حيث لا يكون الحل متوتعا . وهذا امر واضح في هذه القصة . وفي قصص أخرى له يكاد لا يستمسك له امرها فتخرج القصة في شكل صورة ، هي وان لم تفقد عنصر التشويق فانها لم تستكمل شروط القصة على أن من الوصف

الذى هو عمدة اعماله انما ينبثق من ناحية الفكر والملاحظة لا من جهة البيان واسلوب التعبير ، ولذلك فان سحر الكلمة بل وصحتها ينقصانه احيانا .

ولنورد الآن مثالا للمسرحية تكميها للبحث ، ويضطرنا ضيق المقام للاقتصار على نموذج واحد ، وهو لعبد القادر المقدم بعنوان دقات الساعة . ويتضمن حوارا بين فتاة واخيها فى حديقة منزلهما ذات صباح باكرا ، وساعة كبيرة فى المنزل تسمع حركتها :

هى — الا تزال تعترزم تلبية الدعوة ؟

هو — (يفكر قليلا ثم يجيب) لا مانع من ذلك .

هى — ولكنى اراك فى هذا الصباح على خلاف العادة التى عهدتك عليها فى سائر الايام .

هو — (متسائلا) اى عادة ؟

هى — ان تبادر الى حماماتك تنثر لها نصيبا من الحبوب فتتطاير من حواليك ترتل تحيات الصباح فى وداعتها المحبوبة ، حتى اذا ما اذنت لها فى التحليق حومت فوق اشجار الحديقة ثم سبجت فى فضاء الرياض المجاورة لضيعتنا . وكم يحلو لى ان اترقب هذه الساعة المبكرة لاشهد هذا المنظر الرائع الذى يسوده جو من الانسجام والتفاهم بين انسان رفيق وطيور مجنحة بشوشة عطوفة .

هو — آه .. لا تتغير عادة المرء الا اذا طرا عليها امر ذو بال و .

هى — (تقاطعه) وهل حدث لك مثل هذا وانت لم تغادر المنزل بعد ؟

هو — (يتوقف عن الجواب لحظة ثم يقول) على كل حال لست خالى البال كما عهدتنى قبل اليوم .

هى — وهل الامر من الخطورة بحيث تحتفظ بسرك ؟

هو — هو كذلك .

هى — ولو كنت شقيقتك المخلصة .

هو — ليست المسألة مسألة اخلاص أو ..

هى — (تقاطعه) أو خيانة .

هو — (فى صلابه) لا ، لا .

هى — انت وما بدا لك .

هو — ومن اللائق ان لا تنساقى مع الظنون ، غير انى استطيع
ان اطمئنك بانى لن اقدم على مغامرة حرصا على سلامتى .

هى — وحمائمك ؟

هو — ما شأنها ؟

هى — هل تعتزم مقاطعتها منذ اليوم ؟

هو — سأحاول تلقينها عادة جديدة .

هى — وكيف ذلك ؟

هو — اذا دقت ساعة اللقاء ولم يتم فانها ستحلق وتحلق ثم تنطلق
سابعة حرة طليقة . وبهذا تكتسب عادة جديدة .

هى — (تتوقف عن الكلام لحظة ثم تصيح) ها هى ، ها هى تحوم
حول المكان باحثة عنك ، انظر اليها (تصفق الحمامات
بأجنحتها وهى تهدل هديلا) .

هو — ولكنى آخذ فى تنفيذ ما قررت .

هى — انها فى انتظار دقائق الساعة ، فى انتظار لحظة اللقاء ، فهى
على ما يظهر تفهم معنى الزمان وتحافظ على الموعد .

هو — جربى منذ اليوم ان تحولى دون سماعها دقائق الساعة .

هى — لا يستطيع مخلوق ان يوقف سير الزمان .

هو — انت محقة فيما نقولين . انا شخصا اشعر بدسبب الزمان
يتمشى في كياني ، واكون احيانا في غمرات الانشراح واشعر
بعقرب الزمان تلتهم ساعتى الهنيئة . فلا البث ان اشرف
على نهايتها وهى سريعة الانقضاء .

هى — ان دقائق الساعة تهدد كل شئ بالانتهاء . واشد الناس
اشفاقا منها على ما اظن اولئك الذين يحسبون للزمان
حسابه ويقدرّون العواقب حق قدرها .

هو — اخشى ان تدق الساعة قبل ان اتاهب للموعد المقرب .

هى — ومتى هو .

هو — قريب ، قريب جدا .

هى — الا تلبس بذلتك الجديدة اذا كان لذلك موجب ؟

هو — ارجو ان تعدى لى الحقيقة واجعلى فيها البذلة وبعض
الاقمصه وما يليق بها من اربطة الرقبة واحرصى على ان
تستمر حالة البيت طبيعية من غير ان يطرا عليها ما
يشوش بآلى .

هى — اذن انت على اهبة السفر ؟

هو — ان شاء الله .

هى — لم تحسن مفاجاتى في هذه المرة .

هو — يبدو انك تمانعين في سفرى . وهذا ما توقعته سلفا ولا
احسبك الا مشجعتى على تلبية الدعوة . اليس كذلك ؟

هى — بلى ، انى فاعلة ذلك اذا كان للدعوة موجب ، وقد بهون
على الامر اذا كان هذا الموجب مشرفا والا كان عبثا واغفر
لى هذا التدخل فانما اريد تبصرتك بالعاقبة وليس من اللياقة
ان القنك مبادئ الجبن ولكن الوقت يتطلب من المرء ان
يتزن في خطاه والا يبرم ما يعسر نقضه عند اللزوم .

هو — قبيل دقائق الساعة اعلن لك سرى ، واود ان اوصيك خيرا
بنفسك أولا ثم بالبيت ثانيا . ابذلى قصارى جهديك فى ان
تعطى لحمايتنا فرصة كى تكسب عادة التحليق فى الفضاء،
ولا تدخرى وسعا فى ان تحولى دون سماعها دقائق الساعة
فانها تذكرها لحظة اللقاء حتى لا ترسل هديلها حنينا
والتبعا .

هى — وهل تلومها اذا فعلت ؟

هو — اخشى ان يتسرب الى قلبى ذلك فتخور عزيمتى فيما انا
ماض اليه ، وانت ادرى بعواقب الخور فى ميدان الواجب .

هى — اذا ابيت الا ان افعل فما يمنعنى شئ واحد وهو عجزى
عن ايقاف عجلة الزمان عن المضى فى سبيلها . فهمت . . ؟

هو — نعم ، نعم ، (فى حنان) شجيمنى ما استطعت الى ذلك سبيلا

هى — وهل ترى ان واجبى يقف عند هذا الحد .

هو — كل له واجب ينتظره ، فليتريث حتى تدق ساعته كما
ستسمين عما قريب دقائق ساعة واجبى انا .

هى — (تضع يدها على قلبها متأثرة من الموقف) لم اعتد قبل
قبل اليوم ان اجزع لدقائق الساعة . قلبى يخفق خفقانا .
انها لحظة رهيبه . ولعل للحديث الذى دار بيننا فى موضوع
الزمان والساعة اثرا فى هذا الجزع . ولكن لا مناص من
التشجيع .

هو — وهذا قلبى بدوره يختلج فى صدرى اختلاجا شديدا ، ارجوك
الا تستمرى فى الحديث عن الساعة (فترة صمت — تسمع
حركة عقرب الساعة) .

هى — انها تقترب (فى تأثر) الا تبوح لى بسرّك قبيل الساعة ؟
الى اين ، الى اين ؟

هو — الى تلبية الواجب . . الواجب المشرف — الى التمهئة

العامة .. الى نصره الحق (دقات الساعة) .

هما معا — دقت الساعة ، دقت الساعة (الحمام يرغرف بأجنحته
ويرسل هديلا مؤثرا مشجيا) .

هى — الى اللقاء يا ماحى (اسم الفتى) الى اللقاء هنا او هناك !
هو — الى اللقاء يازكية ، الى اللقاء القريب ان شاء الله (محرك
السيارة) .

في هذا النموذج الصغير اكثر من دلالة على اتجاه المسرح المغربى
والادب الذى ينشأ في ظلاله فالروح العامة التى تهيم عليه هى البساطة
في الاخراج والاداء . ولم يكن بد لمسرح ناشئ غير ذى تقاليد معروفة ان
يتجنب الاساليب المعقدة والدروب الملتوية للظهور بالمظهر الباءث على
الاحترام واللائق بالرسالة المقدسة التى يحملها وليس المراد بالبساطة
هنا السطحية بل عدم التكلف . فالمنظر كما في النموذج عادى . منزل يقع
وسط حديقة وبجانبه حظيرة حمام . والحوار يجرى بكيفية طبيعية بين
شاب تعرب اقواله عن حاله الذى كان الى العبث اقرب منه الى الجد ،
ولكنه بدا يفكر في واجبه كمواطن صالح ، وبين شقيقة له تحيطه بعطفها
وتتمنى له النجاح في مستقبله الزاهر ، انما هذا الحوار تتخلله افكار
ومعان فيها لمحات فلسفية وانسانية وهو على هدوئه يعبر عن صراع في
نفس الشاب بين الحق والباطل انتهى بالاستجابة لنداء الضمير والاقصر
عن سلوك سبيل الغي . فلم يخل من تأمل يبعد به عن السطحية ويجعله
يتعمق فهم الحياة ولو بلمسات خفيفة .

ثم الغاية من كل ذلك هى التجنيد ، تجنيد الادب ولا سيما المسرحى
منه لخدمة الاهداف القومية . فالمسرح المغربى أصلا لم ينشأ الا لهذه
الغاية ، والادب الذى ينجز من أجله لا بد ان يسير في طريقه ، ولذلك
نرى المسرحية مجندة للدعوة الى التعبئة العامة . انما مسرحية صغيرة
من فصل واحد قصير ولكنها مع ذلك تحتوى على من وترمى الى هدف . وما

احسن ما وقع التعبير عن عبث الشاب في اول المسرحية باشتغاله بتطهير الحمام ، وتحويل ذلك التعبير نفسه في آخرها بحيث صار رمزا الى سلام الاسرة واستقبال حياة جديدة ملؤها الجد والنشاط .

ونظن اننا لسنا في حاجة الى التنويه بلغة الحوار وسلامتها من المآخذ بل هي لختها مما زاد في قيمة هذه المسرحية الصغيرة الحلوة .

الشعر واتجاهاته الجديدة

لعل الشعر ، وهو اشد الفنون الادبية تقيدا بالمأثورات والمساطر ، اكثرها خضوعا للتجديد والتطور . وذلك من اجل انه كلما ثقلت شروط العمل ، اى عمل كان ، كلما حاول العاملون التخفيف منها . ويصدق ذلك فى الاعمال الادبية كما يصدق فى الاعمال المادية ، وفى الشعر بالذات كان التحول الذى طرأ على المادة الشعرية اعنى الافكار والموضوعات لاول ما ظهر الاسلام ، عاما شاملا بحيث انه ما اظل العصر العباسى حتى صرنا نرى شاعرا مثل ابي نواس يقول فى مطلع احدى قصائده مستخفا بادب القدماء . (صفة الطلول بلاغة القدم . .) .

وكان اختراع الموشحات فى الاندلس مظهرا آخر من مظاهر التجديد والتطور للشعر ، استهدف تحويله من ناحية الشكل والبناء ، فالفى شرط التزام القافية الواحدة فى القصيدة التى اصبحت تسمى موشحا ، وجوز ان يلتقى فيها بحران من بحور الشعر بدون ان يدل ذلك على عجز او تلفيق ، بل انه كان اكثر انسجاما مع الطبيعة الغنائية للشعر ، لاستجابته للانغام الموسيقية التى تتبدل بحسب مقتضيات الفن آونة بعد اخرى

وقامت النهضة الحديثة مهزت الشعر هذا عتيفا تناول بنيانه من القاعدة ، فكان الشعر الحر والشعر المنثور فضلا عن اندفاع الشعراء فى العمل بمنتهى الحرية طبق المخطط الذى وضعه الاندلسيون من نظم قصائدهم على أكثر من بحر وبمختلف القوافى . هذا فى القالب ، وفى المحتوى ظهرت فنون من القول وصور من البيان لم يكن للشعر العربى بها عهد كالشعر القصصى والتمثيلى ، وامتد النفس فى وصف الطبيعة والتعبير عن ادق المشاعر الانسانية والعواطف القلبية ، واختفت الموضوعات الشعرية القديمة او كادت وما بقى منها لاقتضاء المناسبات

الاجتماعية بقاءه ، صار وسيلة لبث الافكار الاصلاحية وبعث الروح الوطنية . ومن ثم وجد هذا الباب الجديد من الشعر القومى او الوطنى الذى خلف باب الحماسة فى الشعر العربى القديم والذى قلنا عنه سابقا انه طغى على جميع الاغراض الشعرية فى هذا الجيل حتى كاد يكون هو الشعر كله .

ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بمشرق او مغرب بل انها وسائر الظواهر التى قبلها مما برز بروزا واضحا فى شعر المشاركة والمقاربة على السواء . فلننظر فى حظ الشعر المغربى منها جميعا اذ كان هو الذى يهمننا فى هذه الاحاديث .

ونبدا بما تفتقت عنه القريحة المغربية اولا من الشعر الوطنى ، وهو هذه الاناشيد التى كانت تغذى الفكرة الوطنية عند التلميذ فى المدرسة ، والشاب فى العمل والمتجر والحقل ، والمواطنين عموما على اختلاف طبقاتهم ومهنهم فنجدهم يرددونها فى كل مكان وفى كل احتفال ولو انه احتفال عائلى بانغام موسيقية حماسية كأنهم الجند يتأهبون لخوض معركة حربية . ولعل اول نشيد من هذا القبيل هو نشيد للمكى الفاصري يقول فيه :

فؤادى الى وطنى قد صبا تعشقت له منذ طور الصبا
ودينى فى حبه رغبا فبما وطنى منك لن أرغبا
ويا وطنى لا تخف انسى امين واخلف وعذك انى امين
كتيل بنيل منك ضمين ..

ثم نشيد لعلال الفاسى يحيى فيه الملك والعرش وهو :

يا امليك المغرب	يا ابن عدنان الابى
نحن جند للهدا	نحمى هذا الملك
عرش مجيد خالد	ماجد عن ماجد
قد بناه الاولون	فى سموخ الفلك .. الخ

انهما نشيدان يعبران عن الاتجاه الذى سار فيه الشعر الوطنى منذ

ظهوره بالمغرب ، وهو التفتى بحب الوطن والدعوة الى خدمة قضيتيه
ورفع شأنه بين البلاد ، مع تمجيد العرش والجالس عليه والاعتزاز بهما
باعتبارهما مظهر السيادة الوطنية ورمز الوحدة المغربية . وللسيد علال
في هذا الصدد ، كما لغيره ، اناشيد عديدة جرت على كل لسان . فمنها له
نشيد يقول في اوله :

كلنا من عربى	خالص او بربرى
قد تعلقنا بعرش علوى	واعتصمنا بلوائيه
كلنا في سره او جهره	هاتف يحيا
من عطفه نرجو	رفعة المغرب
من اجله ندعو	ايها السلطان

عش

ومنها نشيد طويل للحاج محمد بنونة اوله :

ايها الشعب تقدم	للعلى خلف الامام
لخرنا تاج المصالي	عزنا شبل الكرام

وآخر لمحمد بن الرضى منه :

يا صاحب الصولة والصولجان	تبل بالملك وعش في امان
محصنا من عاديات الزمان	في ظل خفاقين ، احمر قان
وقلب شعب دائم الخفقان	من حبه المشفوع بالتوقان

لصاحب الصولة والصولجان

ان التجاوب بين الشعب والعرش وتضامن الملك مع الوطنية كانا
اساس العمل لتحرير البلاد من قبضة الاستعمار وذلك هو سر نجاح القضية
المغربية ذلك النجاح الباهر الذى قضى على كل امل للمستعمر الماكر في
استغلال وسائل الدس العديدة التى اتخذها للتفرقة بين الامة وعاهلها
الكريم ، ولذلك كثر الضرب على هذا الوتر في هذه الاناشيد ، كما ان محاولة
المستعمر للتفرقة بين العنصرين البربرى والعربى جعلت من وكد الوطنية
العمل على توحيدهما والتقريب بينهما وهى ظاهرة تشبه ما وقع في الشرق

العربى من التأليف بين المسلمين والمسيحيين والقضاء على جميع اسباب
الخلافا بينهما لمواجهة العدو الدخيل بكلمة موحدة وصفوف مترابطة ،
ولهذا نرى كلمة عربى وبربرى تردد فى بعض الاناشيد كنشيد (كلنا من
عربى خالص او بربرى) المار آنفا لعلال الفاسى وهكذا النشيد الآخر
له ايضا :

صوت ينادى المغربى	من مازغ ليعرب
يحدو شباب المغرب	للذود عن حوض الوطن
لبيك يا صوت الجدود	انا لشعبنا جنود
كل يرى حفظ العهد	والموت من دون الوطن
انا شباب الامة	منا حراس الوحدة
نحمى كيان الملة	من كيد اعداء الوطن
لا نرتضى بالتفرقه	ولو علونا المشنقه
ولو غدت ممزقة	اشلاؤنا فدا الوطن

والانشيد كثيرة يطول تتبعها لا سيما وقد اصبح لكل هيئة سياسية
ومنظمة طلابية او رياضية نشيد يخصها وكلها تدور فى هذا الفلك ، فلنكتف
بما ذكرناه منها ولنستعرض بعض النماذج الاخرى من الشعر الوطنى
غير الاناشيد انه اذا كان الشعر ديوان العرب فى القديم ، فان هذا اللون
منه احرى ان يكون اليوم ديوان الحركات التحريرية التى نشأت فى العالم
العربى منذ النهضة الحديثة فهو يمثل تطورها من شعور بالفضاضة
لمسيطرة الاجنسى وتحكمه فى البلاد والعباد ، الى دعوة للمقاومة والتسلح
المادى والمعنوى لاهياء المجد الدائر ، ومجاراة الامم الناهضة فى الاخذ
باسباب الرقى والتقدم ، الى الثورة الدامية التى تحقق للشعب مطامحه
العليا فى الحرية والاستقلال من الطريق الطبيعى الذى لا يتوصل الى تلك
المطامح الا منه ، وبين هذه المراحل مقامات للذكرى والاعتبار والاشادة
بجهود العاملين وتسجيل الخطوات التى قطعتها الحركة الوطنية فى مجالات
الكفاح من اجل غاياتها النبيلة ، كان الشعر الوطنى يبدى فيها ويعيد ،
ويقىم الدنيا ويتعدها بما له من تأثير على النفوس وبكيفية للمشاعر وفق
رغبات الامة وضد تصرفات المستعمر الدخيل والادب العربى ان كان

قد سجل في تاريخه الحفيل صرخات شوقى وحافظ ومطران والرصاف
والزهاوى وشكيب ارسلان واضرابهم من رواد الشعر الوطنى فى القطاع
الشرقى للوطن العربى فقد بقى عليه أن يسجل الصرخات المماثلة التى
اطلقها زملاؤهم فى القطاع الغربى . وبعضها هو ما نثبته هنا خاصا
بأدباء المغرب .

يقول المهدي الحجوى معلنا ثورته على حياة الذل والاستعباد :
حرام على الحر الخضوع الى الرق حرام وارض الله واسعة الطرق
حرام على نفس الابى مذلة وفى الذل موت للشهامة والخلق

ويقول محمد الجندى يصف ما فعله العدو المغير بالبلاد :

عن يمينى وعن شمالى قيود	وامامى جيل معنى شريد
يتلاشى مع الزمان ويفنى	ويعانى ما لا يعانى العبيد
ضرب السد حوله ورماه	بسهم الردى رقيب عتيد
فكان البنين سرب ضحايا	والفراعين للوجود تعود
وكان المغير امضى عقودا	مع هذا الزمان ليست تبعد
وكان الشباب منا هباء	ونفوس الاحرار شئ زهيد
وكان الحياة حق لقوم	دون قوم والعيش عبث رغيد

ويقول المختار السوسى مشفقا من سوء المصير الذى آل اليه الشعب
بعد ماضيه المجيد :

حتى متى شعبى يعبد الجهل	كان لم يكن قطب السيادة من قبل
كان لم يكن بين الشعوب محكما	اذا قال يحنى الرأس من راسه يعلو
كان لم يكن فينا الم رابطى الذى	به تم الاستملاء للشعب والطول
وابناء عبد المؤمن الطالعون فى	سما الارك شوسا لا ينهضهم صول
وابناء يعقوب المرىنى من بنوا	لنا واشادوا ما به يمحي الجهل
كان لم يكن فينا اقتدار ونظرة	مسددة ترمى الصعاب فتتحل
واى نفوذ فى اختراع تمدين	يدعوه الدين المطهر والمعدل
وحزم وعزم واقتحام معامع	يمهدا للذن المثقف والنصل

أجل ، اننا كنا وكنا وهكذا	يقول لسان العلم من قوله الفصل
ولكن اذا القيت يومك نظيرة	فكم لوعة تذكو وكم زفرة تعلو
تشاهد ما يرفض قلبك حسرة	عليه ويستدري الدموع فتنهل
لنستقط على الارض السماوات لتقم	قيامة شعبي فالحلاك ولا الذل
فقد ضاق بالشعب الجهول خناته	وقد ساء محياه وقد طفح الكيل
فهلك يريح البال أولى من ان ترى	ملايين سبعا لا شعور ولا عقل

والصرخات من هذا القبيل كثيرة ، وكلها تفيض لوعة واسى وتتحرق حزنا وجوى على عثرة الجد بالبلاد وخيانة الحظ لها بعد حياة المجد والعظمة التي عرفتھا زمانا طويلا ، ولكن الشعر الوطنى لم يقتصر على هذا الموقف السلبي من البكاء والرثاء وانما جند نفسه بالدعوة الى العمل لانتشال الامة من وهدة السقوط واحلالها محل العزة والكرامة اللائق بها ، وكذلك نلتقى معه في صور اخرى من الغيرة الفعلية والحماس البناء . فهذا المهدي الحجوى يقول مغريا بأسباب النهضة :

الى متى نترك التعليم مهجورا	ونحسب العلم في الافرنج محصورا
الى متى نستلذ النوم واحزننى	وغيرنا يطلب الدستور والشورى
متى نفيق وعين الدهر شاخصة	تقضى على كل من قديبات مقررورا
هبو الى المجد يا ابناء من رفعوا	للمجد صرحا بعلم كان منشورا
هبو الى المجد يا ابناء من حكموا	اقصى البلاد بسيف كان منصورا

ويقول المكي الناصري مهيبا بشباب الامة للعمل الجدى والسمى المفيد :

حق البلاد على بنيتها	حق يقدرسه الاله
حتى متى وبنو البلاد	على قداستها جناه
مجد تهدم هل له	من بينكم قوم بناه
عز تحطم هل له	فيكم مفاوير اباه
داء تفاقم هل له	منكم اطباء اساه
الخطب جل وليس غـ	ير بنى البلاد لها حماه
احيوا البلاد وعلـموا	شبانها كيف الحياه
هذا الشباب ذخيرة	بل ليس من فخر سواه
كم كان يمشى مسرعا	لو لم يحل سيل الطفاه

مدوا الشباب بفوا به	لا خوف ان يرسم وراء
يا ايها الشبان —	سيروا انكم جند النجاه
سيروا امام الشعب حثـ	سى تبلغوه ذرى علاه
ضحسوا بكل جهودكم	حتى يرى فيكم مناه
لا تياسوا او تنسريـ	سحوا واذكروا ابدا رجاء
لا تحسبوا شعبا يمو	ت اذا غفا فيه انتباه
ان النفوس كمينه	فيها جراثيم الحياه

ويقول عبد الكريم مكرج منددا بحياة التواكل والخمول :

ما بال قومي لم ينهض بهم عمل	والناس كلهم بالعلم قد عملوا
تقاعدوا من فنون نال غيرهم	تحصيلها وهم عن نفعها غفلوا
لكن رايتهم وفي نحورهم	كم سبحة وهم بسردها اشتعلوا
هذا له خلوة وذا بجلوته	وذا بزوايه اخرى له خول
ما في الزوايا خبايا بينهم وجدت	بل في الزوايا رزايا عند من عقلوا
تكاثر في نواحي القطر وانتشرت	على اختلاف شيوخ عندهم وصلوا
من كل ضامن اسرار لتابعه	وكل فتح وانوار لها انتحلوا
لا، لا اوضح ما سنوا وما افترضوا	من بعدما اتضحت بالمصطفى السبل
فليتهم شيدوا مدارساً بدلا	من الزوايا وقالوا علموا وسلوا
فالعلم اجمل وصف الشخص في زمن	به تبصر دون قومي الدول

انها نداءات منبعثة من ضمائر حية وقلوب واعية تهاشد الشعب ان يهب من سبانه الطويل وينبذ الخمول والكسل ولا ينتاد للمشعوذين والمظلمين الذين يهمهم ان يبقى على ما هو عليه من الذل والخنوع ، لبقاء استغلالهم له وتسخيرهم لمنافعهم الشخصية وتدعوه لمؤازرة شبابه الناهض والعمل معه يدا في يد لاسترداد مجد البلاد الضائع والسير بها في طريق النجاح والتقدم حتى تلحق بركب الحضارة وتقف في مصاف الشعوب الراقية . وان كانت هذه الطريقة طويلة وشاقة عند من يريد طي المراحل ويستعجل الظفر بالنتيجة المرغوبة من حصول الامة على حريتها واستقلالها وتقريرها بنفسها امر مصيرها فنراه يدمو الى الثورة الدامية والوقوف في وجه المستعمر الفاشم وتحدى سلطته والاستخفاف بقوته ، وهو لون آخر من الشعر الوطني كان مما اذكى عزيمة الشعب وبعث حميته حتى خاض

مشارك الفداء وحرب التحرير . ومن صورته قول عبد القادر حسن :

لکم ان ظلمتم ان تسروا وتکتبوا	رویدکم یا فنیة الشعب لا اری
عظیما فان الصبر للذل اعظم	لئن كان امر السجن والنفي فیکم
امر من الضغط الذی یتوهم	وان حیاة المرء فی غیر عزة
وعسف، ومن ذا یرتضی الذل منکم	وکل ضیاع للحقوق مذلة
فان فاز عاش الدهر وهو مکرم	وما المرء الا نفسه فلیعزها
ولا ضم ما منه قد اشتق معجم	بنی الشعب لا عاش الجبان بارضنا
ولا تسمعوا للخائرين فتندموا	بنی الشعب قوموا طالبین حقوقکم
من القوم ویلات فهلا سمعتم	بنی الشعب هذا شعبکم باتیشکتی
ولکن آمالی علی ان تتمموا	بنی الشعب ما اسدیتم لستفاسیا
فاجدر من یحیی حمی الشعب انتم	فکونوا حماة الشعب من کل حادث

وقول عبد الکبر الزمرانی :

جموعا للاجابة لا مرادی	اذا وطن الایاة دعا تعادوا
اذا رکبوا لمقصدهم جیادا	ینال الناس ما تصدوا ولكن
بروح الذین قادتهم شدادا	وکان الدین قائدهم وکانت

وقول الحاج محمد بنونة :

رباه کی تبقى عرايین الاسود	بلا زعيم ؟
وشعبنا یرسف ظلما فی القيود	ولا رحيم ؟
ومجدنا بین السیوف والبنود	مجد قديم ؟

ومن المظاهرات الکبری التي کان للشعر الوطنی فیها جولات عظيمة ، عيد العرش الذی اصطلح علی الاحتفال به يوم جلوس الملك الراحل محمد الخامس طیب الله ثراه وهو يوم 18 نونبر ، وقد سبقت الاشارة الى ما کان لهذا العيد من اهمية باعتباره اعلانا عن استمرار الدولة المغربية وتدعیمها للکیان السیاسی للبلاد . وقد کان الشعراء یتنافسون فیہ ومن لم یقل شعرا طوال العام لا بد ان یقوله بهذه المناسبة ولو لاجل التنفیس عن مشامره المکبوتة . وحدثت جوائز للمتفوقین من الشعراء الذین یتبارون

فيه كانت تسلم اليهم في احتفال شيق . وهكذا انقلب الشعر الذي مهما قيل فيه ، لا يعدو أن يكون من قبيل المدح المعهود للملوك ، الى شعر اجتماعي يعبر عن عاطفة شعبية وفكرة قومية ويمارس تجربته الادباء اصحاب المبادئ والافكار اكثر مما يمارسها الشعراء المداخون وطلاب المنافع والجوائز . وكان مما يتضمنه هذا الشعر الاشادة بمواقف الملك من النهضة وتشجيع الحركة الوطنية وما قطعه المغرب في ايامه من مراحل نحو التقدم والازدهار في جميع الميادين ، وبذلك يكون سجلا من سجلات التاريخ القومي والنهضة الحديثة لا سيما وقد كان طابع هذا الشعر هو الصدق الذي تتفاعل فيه العواطف مع الواقع فيجسم التأثير الذي تحدثه مبادرات الملك واعماله في نفوس الافراد والجماعات من مختلف طبقات الشعب بدون ان يكون مغاليا في ذلك ولا مجاملا كما هو المعهود في امداح الملوك وشعر المناسبات . والامثلة التي نسوقها من هذا الشعر تعطينا اكثر من دليل على قيمته هذه . فاليك منه ما يقوله محمد الحلوى في احدى قصائده الكثيرة في هذا الصدد :

سليل الملوك الفاتحين تحية	من الملا الاعلى يرتلها الشعر
تطيف بها الاملاك في ملكوتها	وتشدوبها الدنيا ويزهو بها العمر
ويحملها العيد السعيد عرائسا	غلائلها نور وهالتها نور
وترسلها الانواء في كل مسمع	زغاريد تشفى كل اذن بها وفر

* * *

ابا النصر هذا يومك الخالد الذي	نرجى به يوما يفك به الاسر
فمن لى بان ارتاد في عرصاته	فتمتع الحاظى ازاهره الخضر
وكيف ارضى النفس وهي مشوقة	اذا عشقت زهرا تملكها زهر
اذا قلت هذى زهرة علوية	مبللة الاعطاف اعراقها نضر
فتنت باخرى مطر الجو نشرها	وانسى صريع الكاس ما تفعل الخمر
وما حاجة الفواص بالبحر مزيدا	اذا كان لماعا على الشاطئ الدر
تبارى رجال القول فيك فابعدوا	وابدعهم قولا تملكه الحصر
وكانوا كمغتر راى النهر جدولا	فلما استقل الماء الجمه النهر
شمائك الازهار نواحة الشذا	ووجهك وجه الروض يغيره البشر
عصامية في نعمة من نبوة	وعزة ملك ملو ابرادها الفخر

وتجلوه صباحا كلما ابتسم النفر
 رأيك فسامي عنده الخبر الخبر
 حللت به فارتاح وانشرح الصدر
 فاعجبها ان لا يهون ابنها البكر
 وقد دب في الآفاق واندلع الشر
 ونافذ عزم لا يقاومه الصخر
 وأوجههم صفر وأيديهم صفر
 لنيل منى أحلى مناهلها مر
 اليك فالقيت الهدى بطل السحر
 مججلة في الخافقين لها زار
 وفي ذمة التاريخ ما فعلت مصر
 على المفرق الوضاء يكلاه الدهر
 ومن ذمم مخفورة ضمها الصدر
 قلوب وما سالت دماء له حمر
 يصول بلا جيش لم يطلبه النصر

واشراقة يعلو محياك نورها
 وكم سامع قد مارت الاذن عينه
 وصدر امات الحقد والغم ربه
 عركت العوادي وهي جامحة الهوى
 وصارعتها والجو اسود قائم
 بثاقب فكر تستضيء به الدجى
 فولت فلول الشر يقتلها الاسى
 وكم فتلوا جبل المكائد بينهم
 ولما ارادوها والقوا حبالهم
 وارسلها الشرق المعذب صيحة
 ففى الله ايام تدانت على النوى
 فاقسمت بالعرش المهيب وتاجه
 بما فى الحنايا من تباريح حبكم
 وبالا مل الغالى وما خفقت له
 يمينا لانت القائد الملهم الذى

لفوزك الا قاب قوسين او شبر
 وأرهقتها الحامى واثقلها الامر
 وتطلب حقا ليس عن نيله صبر
 قواها فان عزت فارواحها مهر
 وان تذكها نارا ففيتها لها جمر
 تقاذفها فى سمرها المد والجزر
 دليل ونجواه المعونة والازر

ايا النصر تم ما بدأت فما بقى
 فحقق امانى امة ضاق ذرعها
 تريد حياة تحت تاجك حرة
 ستبذل فى آمالها كل ما اجتنت
 فان تبغها سلما فللمسلم سعيها
 فقدتها الى الشط الامين سفينة
 وخضها فعين الله يقظى ونوره

لعلنا لا نحتاج ان نشير الى ما تتضمنه هذه القصيدة من مدح موجه ،
 ومن تسجيل للمواقف التى وقفها الملك دفاعا عن حرية شعبه وحقه فى
 الحياة الكريمة وربط ذلك بجهد المواطنين وتضامن الشعوب العربية
 والاسلامية مع تنويع اساليب القول فى ذلك واختيار احسن الكلمات
 المعبرة ، مما جعلها كالخطبة الرائعة ، تثير مكانم الوجدان فى النفوس ،
 وتضرب على الوتر الحساس فى قلب كل وطنى غيور ، وبذلك كان هذا

اللون من الشعر احد الوان الشعر الوطنى الذى يعبر عن شعور الجماهير
وان ظهر بمظهر ذاتى ، لان ذاتيته ذابت فى الاحساس العام المشترك الذى
جمع بين الملك والشعب والشاعر . ومنه ما يقول محمد العثمانى :

لولاك يا ملك القلوب واهلها	ضل السبيل الى القلوب رجاء
مرت علينا فترة حجبت بها	عنا الرجاء سحابة سوداء
حتى جلاها نور رايتك فانجلت	والمشكلات شمسها الآراء
اضفيت منه على البلاد اشعة	يمشى بها العميان والبصراء
فكانه يجرى القضاء وفاقبه	وتبين قبل وجودها الاشياء
سعدت بلاد امرها يعنى به	قبل الامور ملوكها الحكماء

* * *

يا من تبوا بالجدارة والحجى	عرشا عليه من الجلال لواء
جنباته شرع الكتاب وهديه	وحلاه وحدة امة واخاء
ملكته باسم الحق لما شيدت	اركانه الاجداد والاباء
وبنت قوائمه على اسس الهدى	بالمشرفى بناته البسلاء
الفاتحون الارض وهى معاقل	والناشرون الامن وهو وطاء
والمنجبون بناة مجد ناطحت	قرن السها ثمراته الشماء
ملك بنوه على الجحافل والقنا	وحمت ذراه الفارة الشعواء
والنصر ينزل والسيوف رسوله	والحق تتلى آيه الفراء
للحق آى لا ترى الا اذا	كثبت ككائب والمداد دماء
فاذا مراكزه رقاب اباته	واذا بنود شعاره حمراء
ما اكثر العشاق فى طلب العلا	لكن قليل طالب اتاء

وما يقوله الصديق العلوى :

طف بالاركة واقض ما	يقضى الولاء من الشعائر
وانظم قصائد من شذا الا	خلاص او نفح الازاهر
عرش على أنواره	مذ كان هذا الشعب سائر
مجد تقنع بعد امما	عيل والدنيا مصائر
قد كان جرار الجيو	ش وكان للنزوات قاهر
قد كان للاقصى ملا	ذا منذ قام وكلن ناصر

جارت عليه يد القضا ولم يكن في الحق جائر
وكذا يباح حمى الاسو د اذا تظمت الاظافر

* * *

وظلعت نورا يقتفى آثار ابناء اكابر
بسم الزمان على جبينك للبلاد وكان كائس
وافيت فانجاب الظلام ولاح نورك في البصائر
ضنت بك الايام قبل ولحت فانتشرت بشائر
واتى اليك الشعب فى اثباله جذلان ظافر
قد اعلنوا لك عن ولاء العرش فى شتى المظاهر
النائثون يشع حبهم وحسب النشء طاهر
والطامحون لجدهم عقدوا عليك له الخناصر
هذا الهتاف صدى شعور رهم بمالك من مآثر

فما نحن اولاء نرى هذه القصائد ، وكأنها ترجمة لما يجول فى نفوس المواطنين من معانى الايمان بالذات والثقة فى المستقبل ، ممثلة فى العرش والجالس عليه لا مدح مجرد لشعراء متكسبين فى ملك من الملوك ، ولهذا جعلناها من الشعر الوطنى اذ كانت به امس واليه اقرب . والحقيقة انه لا حد لمشمولات هذا الباب من الشعر ، ففى معركة الحرية ودعم الكيان القومى كان كل عمل يرمى الى النهوض بالبلاد فى منحى من المناحى الاجتماعية والثقافية يجد صدها فى الشعر باعتراره عملا وطنيا يحق التنويه به وتشجيع القائمين عليه ، حتى قيام نخبة من الشبيبة الوطنية بتمثيل بعض الروايات التاريخية على المسرح استحق تحية الشعر ونظم القصائد التى سارت على الالسنه زمنا طويلا . . فمن قول علال الفاسى فى ذلك :

كسل صعب على الشباب يهون هكذا همه الرجال تكون

* * *

يا شباب البلاد احييتونا فلنا فيكم رجاء مثنين
ولنا فى الشباب خير ظنون حققت فى الشباب تلك الظنون
اخبروا القوم اعلموهم باننا قد حيننا واننا سنكون

سيركم واعملوا ولا تستكبروا
فهو روح الحياة والاكسجين
كل ما تبتغونه يستبين
رضى الشعب عنهم والدين
وانا بالنجاح بعد ضمين

تد ملكتكم اعجابنا فادبوا
واحفظوا ما ورثتم من لسان
لغة العرب اتقنوها فمنها
ما يضر الشباب شيء اذا ما
املوا واقدموا ولا تتوانوا

ومن قول المختار السوسي :

ليحى المجد والحسب العريق
وما يرقى البلاد وما يروق
تثور به الشرايين والعروق
ويذكرون والذكرى تشوق
لراية مجدهم فيها خفوق
ووجه الشعب حولهم طليق
كانهم تميد بهم رحيق
هو النشا الطموح المستبق
ثبات النشا اول ما يفوق
يفل يد الشبية او يعوق
من ان يرتد نشأ يستبق
نبوغ المغرب الاقصى يفوق

ثباب المغرب الاقصى يفوق
اراهم يطمحون الى المعالى
ويجربون في دماهم شعور
فيشتاقون للمجد المولى
رموا بالنظرة العليا عصورا
فقاموا يرسمون لنا حلاها
وفاس واهلها جذل وبشر
يقوم بذلك التمثيل نشأ
بجاش ثابت والكل يدري
وعزم لا يفل واى شيء
ورد السيل عن مجراه أدنى
ففاقوا ما يظن ومن يقده

ونهضة الفتاة وتعليمها مما كان له في الشعر الوطني اصداء ، فقد
ادرك الجميع من اول وهلة ان المرأة لا بد ان تسير الرجل في حركة البعث
والتجديد ، وان تخلفها عن الميدان اذعان بالهزيمة ، فانها الام المربية
والاخت المواسية والزوجة المشاركة في السراء والضراء ، ولا يمكن للحركة
ان تنمر وتسير في طريق النجاح بدون مساعدتها ومعاضدتها وبالفعل فقد
كان للمرأة المغربية دور مهم في جميع مظاهر النشاط الوطني حتى انها
شاركت في اعمال المقاومة والفداء واصيبت بما اصيب به الرجل من اذى
السجن والتعذيب ، فلا غرو ان يهتم الشعر الوطني في البدء بتطورها
وتحررها من قيد الجمود والخمول فمن صرخاته في ذاك قول عبد الكريم
مكيبرج :

ما للفتاة تغيرت احوالها
فكانها شعرت بهضم حقوقها
فبكت وقالت ليس لى من غير
ما لابنة الغرب التفوق وهى من
لو يعنى قومى بتربيتى ارتقت
او بالجهالة ظن قومى عفتى
ان التى لم تحتفل بتأديب
واذا المعارف هذبت اخلاقها
من موقظ الأبناء من غفلاتهم
اب الفتاة اذا ابنت رقيها
هى بنت صلبك ان تصلبها على
ماضر لو علمتها ما ينبغى
وتكون عندك زهرة الدنيا التى

وقول علال الفاسى :

نهضت تمد الى المعالى سلما
سئمت حياة الجاهلات وساءها
فأنت الى الميدان تطلب حظها
لكنها لما تصادف موردا
ودعت الى ارشادها لمرادها
حملوا عليها حملة جبارة
يا قوم ما هاتى الجهالة منكم
ربوا الفتاة على المعالى انها
انا سئمتا عبثة مبتورة
لا تحسبوا ان الفتاة كمتعة
لكها شطر الحياة فان تدم
كم سجل التاريخ مجدا ساميا
فى العلم والعرفان فى حذق اللغى
فى كل ناحية ضربين باسم
لا ينبغى ان نمنع الاوطان من

وتضاعفت مع ضعفها احوالها
لما تصدر فى العلا امثالها
ان لم افق من كان دونى حالها
جنسى ولكن اصلحت احوالها
رتبى واخلاقى يتم كمالها
والناس اقرب للخنا جهالها
ولو انها صينت تسوء فعالها
اعطى لها ما تستحق رجالها
لتقر منهم اعينا انجالها
يوما ستأتى ما به اذلها
جذع الهوان اهنت حين تنالها
ليتم بعد جلالها اجلالها
كملت وقد سلب العقول جمالها

وتود كالفتيان ان تتعلما
ان لا تنال من المصارف مغنا
من ذلك الحق الذى لن يهضم
صفوا ولا شخصا بها متهم
غابى عليها القوم ان تفكما
اضحت بها لا تستطيع نظما
انى ارى سيل التعصب مفعما
ان هذبت تنح السبيل الاتوما
ما ان نطبق بها نظاما محكما
خلقت لنا كيما نلذ وننعم
فى الجهل كانت شطرها المتجهما
لنساننا ومواقفنا ما اعظما
فى الدين والاخلاق فى حفظ الحمى
وظهرن فى كل المعانى انجما
مجهودهن مدى الحياة ونحرما

وقول عبد القادر حسن وهي تصيدة صاغها في شكل حوار بين فتى
وفتاة . قال :

واضربى فى الحياة خير مثال
واطلبى فى الحياة غر الفحال
كلنا من ضروب الاستبسال
فانفرى أن ترى بوجه مزال
وانظمية نظاما عزيز المنال
واجعليه يسر نحو الكمال
فخليه غاية فى الجمال
امانى الحياة فى اقبال
عنه مسا قد يحسه من ملال
فلتكونى كذاك فى كل حال
فى رفع مستوى الاجيال
يدفع النشء للعلا والنضال
ذا وكونى له الصديق المثالى
لحياة مليئة بالجلال
فيه نفسا كثيرة الامال
وادفعيه نحو الملا والكمال
صادق القول صادق الافعال
ثم وبائى خصائص الانزال
ل وعيش المجون والانحلال
كلف الحق من عنا ونضال
س وبائى شمائل الابطال
ب فى كل غاية وكمال

حققى السبق فى مجال الكمال
واسلكى فى الوجود نهجا سديدا
واطلبى الخلق والطهارة مهما
واذا ما دعيت للسوء يوما
واغمرى البيت بهجة وسرورا
واحفظيه بحكمة واقتصاد
بهجة البيت بسمه منك تعلو
واجعلى زوجك العزيز يرى فيك
واغتندى ملء قلبه وازيلسى
انت للزوج فى الحياة شريك
يا فتاة العلا لانت عماد الشعب
انت للطفل معهد لا يضاهى
فلتكونى للطفل اما واسنا
هذيبه وكونى فيه حبا
عوديه على النظام وربى
واغرسى فيه كل خلق كريم
عوديه صدق الحديث لينشا
حذريه النفاق والجبن والوه
نغريه من الدناءة والذ
علميه الثبات فى الحق مهما
علميه الالباء والمزم والباء
يا فتاة العلا لانت عماد الشعب

قالت :

اتحرى رضاى فى افعالى
كل مجد لها وكل جلال
بضلال يفت فى افعالى
تخذوا الجهل رائد العمال

يا فتى المجد اننى طوع شعبي
اخلى الود للبلاد وارجو
غير انى انوء منذ بعيد
كيف اسمو وكيف يسمو اناس

<p>ان يروها ترضى ميول الرجال فهى سلواه من عنا الاثغال اى عطف منه ولا اجلال ج يسمو بها من الابتذال من معانى التقديس اى مثال سوف اُسَمو متى ارادوا كمالى فى الملا والطموح خير مثال</p>	<p>وقصارى امر الفتاة لديهم ورآها الكثير الة لهو وهى فى البيت خادم لا يلاقى وهى زوج واى معنى راوا للزو وهى ام وليس للام فيها يا فتى المجد قل لتومى انى علمونى وهذبونى ترونى</p>
--	--

والى هنا لم نورد الا نماذج من الشعر الوطنى او ما هو منه بسبيل .
واننا اذ نكفى من ذلك بهذا القدر نحب ان نلفت النظر بمزيد من التاكيد
الى ما فى تلك النماذج من جديد ، سواء فى اصل الموضوع الذى تناولته او
فى الافكار التى تضمنتها ، فالدعوة الى تحرير المرأة ومساواتها للرجل فى
الحقوق موضوع جديد على الشعر لم يسبق ان خاض فيه البتة ، ومدح
الملوك على الطريقة التى راينا فى قصائد العرش من ربط فكرة القومية
بالدولة وتمثل الدولة فى العرش والجالس عليه ، أسلوب جديد ايضا نحى
بهذا الباب من الشعر ، وهو باب المدح الذى يعد من اوسع ابوابه ،
منحى شعبيا عاما خرج به من دائرة الفرد التى كان يتعثر فيها بين المجاملة
والنفاق الى دائرة الجماعة التى تجعله فى خدمة الصالح العام ، وهكذا
باقى النماذج الاخرى فانها جميعا ذات اتجاه جديد لم يكن للشعر المغربى
او قل العربى مساس بها من قبل ، فاصبحت من اهم اغراضه واعظم
مقاصده .

وننظر فى ابواب اخرى من الشعر الوجدانى كالوصف وما اليه لتبين
الاتجاهات الجديدة التى اخذ شعراؤنا بها انفسهم فى وصف ما يرون من
مشاهد ، وتصوير ما يحسون من مواجد ، وخلق الاجواء الشعرية التى
يخلقون فيها بخيالهم ، ويرددونها فى احلامهم ، هيما برية الشعر التى لا
تلمح الا فى جمال الطبيعة ، ولا تزور الا مع طيف الخيال . فمن ذلك قول
عبد المجيد بن جلون يجتلى محاسن الطبيعة ويود لو يفنى فيها :

<p>من لى بكوخ فى الخماثل ناء بيئى وبين العصر بون شاسع</p>	<p>وسط الطبيعة امننا الحسناء انا فى الخماثل وهو فى الصحراء</p>
---	--

وايهم الوادى لاغسل عنده
وتكون احضان الطبيعة ملجئى
الفجر تنضح مهجتى انداؤه
ان الفضيلة فى النفوس وانما
والشمس تسكب فى فؤادى نورها
انا والحبیب نظل طول حياتنا
نجرى ونفتح للطبيعة اذرعنا
وعلى ضفاف النهر نجلس ساعة
ونردد الالحان فى اجوائها
اما الثقافة فهى سفر خالد
فاذا اطل البدر سحرى السنا
وتخطرت فى الجو ارواح مر
وطوى الهدوء العالمين فليست نس
هو هبة الاناء فى جوف الدجى
نمنا على الاعشاب كالافراخ فى

ما قد تعلق بى من الاحياء
من عالم الاقسام والاجزاء
حتى تعود شريفة الالهواء
هى زهرة نحتاج للانداء
فيعود مثل الشمس فى اللاء
نحسب معا فى هذه الافياء
مشتاقه لربوعها الخضراء
لنرى مثال وجودنا فى الماء
فتهافت الاطيوار للاصفاء
مجلوة فى القبة الزرقاء
وبدت نجوم الليل فى العلياء
فرقة على الازهار فى الظلماء
مع فى الطبيعة غير صوت ناء
من عالم الاجداث والاثلاء
اعشاشها ملتفة الاعضاء

انها الطبيعة الام فى روعتها وجلالها ، وفى الخمائل الملتفة والوادى
المعيق ، فى انداء الفجر واشعة الشمس ، فى الظلال والافياء ، فى القبة
الزرقاء ، فى القمر والنجوم ، فى هدوء الليل ، فى نفع الازهار ، فى صوت
الابد يسمع من بعيد ، فى كل مجالها المنظورة والمتخيلة بهيم الشاعر حتى
يجتوى عالم الاقسام والاجزاء ، ويؤم الوادى ليفسل ما تعلق به من اوضار
الناس ، انه يتأمل الفضيلة زهرة ندية ، وهى مفروسة فى النفوس لكن
البعد عن حياة الطبيعة يذبلها ويذويها ويرى الثقافة هى ما بقرا منشورا
فى سفر الطبيعة من بدائع السماوات والارض فما به. من حاجة الى ثقافة
العصر الذى اصبح اهله يعيشون فى صحراء . وشتان بين عيشه فى الخمائل
وعيشهم فى الصحراء .

ان الشعر العربى لم يكن يحتفل بالطبيعة هذا الاحتفال ، وهو ان
كان قد وصف جوانب شتى من محاسنها ولا سيما الربيع والازهار ، فقد
بقى عليه ان يجلوها وحدة كاملة وكلا لا يتجزأ ، وهذا ما فعله الشعر

المعاصر ، وكان من السابقين الاولين الى ذلك امر الشعراء المرحوم احمد شوقي الذي وصف الطبيعة في الاستانة بقصيدته المشهورة التى يقول فى اولها :

تلك الطبيعة قف بنا يا سار حتى اريك بديع صنع البارى

وقصيدة شاعرنا ابن جلون من هذا القبيل . ومثلها قصيدة لعبد الملك البلغيشى يقول فيها :

يا سائلى عن شرابى اين يعصر لى وعن دنائى وقينائى ومتكئى اذ لا يرى شاعر الا له مدد هون عليك فما خمرى ولا سكبى وانما الكون جلى لى طبيعته ساجلتها نظرات الحب فانبعثت امعنت فيها ولا هجر يطاردننى اظل فى معرض منها يساجلنى الفتها ولها فى كل آونة لا كالمليحات ان غيرن من خلق ارى الطبيعة نشوى لا تفرنى يا ليتنى عينها فى الكون مبصرة لو امتزجنا فهمنا بعضنا فغدا	وعن نديمى وللخلصان فقيدان كأننى وعقاد اللهو صنوان للشعر من ذاك انى عنه غنيان ؟ ماء الكروم ولا مرد ونسوان فهمت فى حسننها والعشق اديان وللطبيعة فى عينى انسان فأينما ملت مالت وهى بستان بكل مفتتن والحسن عريان تبدل فيه للمشغوف سلوان فانما هو للمعمود عصيان بى ما بها فكلا القلبين هيمان او سمعها وبهذا الخلق نقصان للشعر من بيننا جيل وبنيان
--	--

تصرت عن فهم ما تطويه لهجتها ولم ازل اتلقى من مناظرها لجات للطير اذ غنى فقلت له الفت اغصان هذا الدوح من زمن وللجداول والحصباء معتبة والليل ساج ونور النجم يوقظه فهل سمعت حديثا دار بينهما	ومعجم الكون لم يدرسه انسان ما فيه للشعر فرقان وتبيان يا من له بين هذا الجو خلصان وللنسيم بها وجد وتحسان ولللراش بزهر الروض وجدان يظنه نائما والليل يقظان ماذا طوى منه اعلان وكتمان
--	--

فقال تسال عن اشياء يجهلها مكرم الجن في الدنيا سليمان
وليس يعلم ما كنت سرانرها الا عليم بسر الكون رحمان

والطبيعة في المغرب من اجمل ما خلق الله . انها لوحة لا تستطيع
ريشة اعظم غنان في العالم ان ترسم مثالا لها . غير ان الشعراء من الجيل
الجديد حاولوا ان يحكوا في شعرهم الوصفى بعض مظاهرها . ومن ذلك
قول محمد الحلوى يصف جبال الاطلس وقد جللها الثلج :

ابا الهول لا تشمخ بأنفك انما فظنك اقوام الها مجسدا حياءك لا تشمخ وحولك اطلس تعال كأمواج المحيط هضابه متوجة بالشمس والثلج هامها يصوغ لها وثنى الربيع مطارفا هضاب بنت اوتادها يد صانع ظلله اهرام الثلوج مشعة عرانس بيضاء الغلال حسنها اذا ما رآها الشيخ في ميعه الضحى فعاشر بمرآى الثلج والشمس ساعة ولله غيد رائعات على الربى وجوه غذاها الثلج فهي وضيفة زهت بالجمال الاطلسى وترفعت مفائن لم تحلم بها ارض عبقر ابا الثلج حدث طالما انت ناطق وانت الصدى الحاكى وان بعد المدى اثابت نواصيك الخطوب وخضبت ربى اقممت ان لا تذلل جباهها اذا ركبوا كانوا ربى تمتطى ربى تولفهم والفاتحين شمائل	اقامتك ايد ناحات مواهر وارجف اقوام بانك ساحر رفيع الذرى للهول والموت قاهر وعزت روابيه على من يناظر واعظم تاج لم تزله الاكاسر ربيعه تهفو اليها المشاعر صناع وارساها على العزماهر يدهدها فيض من النور غامر وضىء ورياهها المحبب عاطر تجلت لعينيه الليالى الزواهر يراجع فيها عمره ويذاكر رقيقات ما ضمت عليه الخواصر وهامت بها الانسام فهي نواصر عن البرقع الخداع فهي سواصر وجنات حور لم تلدها الحواضر بليغ ولقنسى فائى شاعر ورمز لماض توجهه المفاخر رباك دمء اثبتتها الازاهر لطاغية ما عاش فيها برابر وان طربوا فالحلم والجود غامر وتربطهم والمسلمين اواصر
--	--

وحديث الحلوى عن الاواصر التى تربط بين المسلمين في سياق هذا
الوصف الرائع للاطلس الجبار ، كانه اعتذار عن حديثه اولا على سبيل

الزراية بأعجوبة ابي الهول ، وكم في اعماق النفس العربية من معان تفىء
الفرد العربى الى أخيه مهما ند احدهما عن الآخر ، لذلك كان هذا الادب
هو التعبير الصادق عن شعور الوحدة الذى يجمع بين أبناء العروبة ويؤلف
اقطارها تأليفا .

ومنه قول محمد مكوار يصف الطبيعة في مصيف موزار
من تصيدة :

وارشف رضاب ثغورها اعلا لا
تعطى العوالم بهجة وكمالا
ذهبا على ظهر الثرى يتللا
فكسته من انوارها سربالا
نورا يموج على الثرى سيالا
رقصاتها وتر نحت ادلالا
فأجاد توقيعا وابسدى قالا
لحن الطبيعة ما يسام ملالا
فكانه البلور ذاب فسالالا
أرايت قط من الجباد دلالا
جيشا يقارع دونه الإبطالالا
لمع الاسنة يمنة وشمالا
يجرى مرقق مائلها سلسالا
بلغى الطبيعة للفصون مقالا
فاستسلمت لتنيله الامالا
فمها وهذى تحتسى جريالا
بلغت ذكاء بها السمو زوالالا
وتخذت ديباج الفصون ظلالا
من حيث يقصر عن مداه كلالالا
ونككت عن تفكيرى الاغلالالا
أبرح مكان تريمى ، اميالالا
بالنور او صفرا الردا معطالا
تغدو وترحل نحوها ترحالا

طف بالحقول على الازاهر غدوة
واستقبلن غزالة الكون التى
انظر لها بسطت نسيج شعاعها
بزغت على وجه الغدير مشعة
وتمازجت بمعينه فحسبته
رقصت على نغمات صوت خريره
فكانه الفنان وقع لحنه
انى ليطربنى الخريز اذا شدا
أعذب بمورده وفرط صفائه
ان حل سهلا سار فيه تهاديا
او حل وهذا خلته متصيبا
تتطاير القطرات منه كأنها
تساب منه على الحقول جداول
كتب النسيم على صفاء بياضها
أدى به لهف الغدير للثمها
لتمازج الثفران هذا لاشم
يا ساعة يمت فيها ربوة
فجعلت سندس أرضها متريعا
وهناك اتسع المجال لناظرى
وأجلت طرفى فى البطاح فسحبة
فقطعت من أبعادها القصوى ولم
ما بين خضراء الازار غنية
أضحت لقطعان الخراف مراعي

ومسارحها تبدى فنون نشاطها
ويهزنى طربا ثغاء نعاجها
تلهو وتركض حرة فى السهل ان
احب بموزار ولطف هوائه
يقضى النهار ترفها وتمتعها
ومن العجائب ان ترى ينسايرا
يحتل من غشت مقر جلاله

فى مأمن لا تعرف الاجبالا
تدعو لرضع نديها الانسالا
شاعت وحينما تعلى الاجبالا
لمن ابتغاه للاصطياف مجالا
بمناظر تنسى الضرب الا
فى الصيف يسحب ذيله مرفالا
ويذل جند لهيبه اذ لا لا

ونتجاوز نطاق وصف الطبيعة لنتلقى مع شعرائنا فى وصف اشياء
اخرى من مظاهر الحياة الجديدة كشاطئ السباحة فى الصيف الذى يقول
فيه محمد الحلى :

ابن من عينى هاتيك الللىالى
غانيات عن مباهاة الحلى
يتهافتن فرائشات على
ويدهدن شعورا حجبت
يتبارين كاسراب القطا
وكان البحر مما فوقه
مزيدا يحمل فى موكبه
ابن من عينى دمبات الصا
يتحاصرن بحدى الحمى
لابسات زردا يستر ما
خفت الارواح منهن لما
خشع الرمل سوى خده
فبدت اثارها مطبوعة
غابت الشمس فالقت جسمها
ثم ذابت من لظى اشواقه
يا عشايا البحر والناس على
من مناد او مناج ضارع
او موار جسمه فى نفق
او من يتلقى لحنه
لشفاء الغير فيها سكرة

خاطرات فى سرود من دلال ؟
بحلى السحر واسرار الجمال
شج الموج كعقد من لال
زرقة الماء بأمواج عوال
خافقات هدهدا رحب المجال
ضاق ذرعا غارتمى فوق الرمال
تيصرات الحسن عذبات الوصال
طاغرات حولنا طفر الغزال
ثم يهجمن علينا بالنبال
ضمه الصدر كابطال النزال
تلمس الايدى سوى جسم خيال
موطئا يلثم اقدام الجمال
قبلا تشرق من غير اتصال
بين احضان محب فى اقتبال
فبدت تبرا مذايا فى جلال
الشاطئ الافيع صرعى فى اختبال
او سبوح لاعب (بالفوتبال)
يتقى غارة اسراب الجمال
من بنات البحر او بنت الشمال
صحوها سكر بمحتوق الدوالى

عبقريا يشتهى نجوى الظلال	سرت النشوة في الجسو شذى
بلغ الحب بها اسمى مقال	عييت اللسن الا اعيينا
تشبع الروح بأحلام الوصال	رنق النوم عليهما فغفت
بيد الافق طواها باحتيال	وخيوط الشمس تبدو شبكا
حرقرة الحب واعراض الدلال	وسجا البحر وفي احشائه
وهوى يصمى وسلم في قتال	منعمة تصبى وكون حالم

ان هذا الوصف الحى لمتعة الشاطئ لفى غنى عن التلويح بما فيه من جدة ، فالموضوع من اصله جديد في الادب العربى ، وقد تناولوه شعراء مجددون من أشهرهم الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد في قصيدته خليج استانلى وغيرها ، وشاعرنا الحلوى لم يقتصر فيه عن اجادة ولا سيما هذه الحركة التى نقلها عن الشاطئ الى قصيدته فتمثلت في البحر الذى نظمها عليه ، وهو بحر الرمل المضطرب المتوئب ، وفي الصور التى عرض بها معانيه من فرائشات واسراب قطا ، ودمى حية تطفر طفر الغزلان وغير ذلك ، انها حركة أضفت على الوصف حيوية جعلته بمثابة معرض للجمال فى شتى معانيه واشكاله ، ويسرف الحلوى في التجديد حتى يستعمل لفظ الفوتبال الاجنبى للتعبير عن كرة القدم ان لم تكن القافية هى التى الجاته اليه .

وهذا وصف للعبة كرة القدم لعبه الملك البلغيشى وهو أيضا من الموضوعات الجديدة كما لا يخفى :

يا ابنة الريح والادم	سلوة العرب والمجم
لك فى كل اسرة	من ملوك الى خدم
نشوة لا تقل عن	نشوة الخمر والنغم
كم تحييك رؤس	ثم بالرجل تستلم
انت فى حلبة الرها	ن بك الجمع ينتظم
والصراع الشديد انت	له الخصم والحكم
اثبعوا جسمك الاليم	من الضرب واللكم
تلقاك ارجل	جلم بعدده جلم
فاذا انت بينهم	فى انقلاب وفى صدم
قسموا الفوز بينهم	ثم خصوك بالالم
نظرت صوبك العيو	ن وفى لحظها نهم

وسحرك الدائم دواء مجروح
عد للفتى الظمان يا خمرة الروح

وقول محمد البوعناني :

كفى مقتى اختلاس النظر ورد السلام بكل حذر
ولقيتنا والرتيب بعيد ندير عتاب الهوى مختصر
فان عتاب العشيقين قد يواسي الجروح ويقضى الوطر
ونزع النقاب ولثم الثياب ولمس الاكف وشم الشعر
وخفق الفؤاد وطلق الخيال وعند التنهّد غص البصر
وبسمة بكر وسكة عذر ونظرة ذعر لشيء ظهر
اراك بجنبى وكلى عفاف كانى نبى ولست بشر
وذلك ما عودتنى تقاك وقد كنت اجهله بالفكر
فلست انا حاضرا فى ذراك ولكن ضميرى الذى قد حضر
سلى كيف كنت قبيل هواك فقد كنت فردا كثير الصور
وها صورتى اليوم واحدة لانك واحدة كالقمر

ومن الشعر الوجدانى ما يهيم صاحبه فى اودية الخيال ويتعلق باللامنظور من عالم الماورائيات حيث ينشد سعادة النفس وطمانينة القلب، وهو شعر الذين غلبت عليهم النزعة الفلسفية فلم يفصل بينه وبين النظر الفلسفى الا خيط رفيع من النسيج الفنى الذى اكسبه صفة العمل الادبى وادناه من رحاب الشعر ، ومنه قول علال بن الهاشمى الفيلالى :

ليتنى كنت فى الحياة صلاة اتسامى فى الغيب لله نجوى
كيف احبى ؟ ومن انا ؟ ولماذا جئت للكون اسكب الدمع شجوا ؟
هل انا زهرة على شط نهر تسكب العطر فى الاثر وتذوى ؟
ان اكن منك يا تراب ، فروحى كمالك لا ترتضى الارض مثوى
رب سامح غوايتى يوم انزو فى قبود الحياة ياسا وبلوى
يوم احبى كما يشاعون منى لا كما تلهم الغيوب وتهوى
يوم يجنى على حياتى جناة بيدى يوم احسب العمر لهوا
يوم نهسر الحياة بضم روحى وهى ظمأى تاتى السراب لتروى
يوم نفسى فى هيك الحب تغزو مبدا الفرد وهى بالذات نشوى
يوم ربح الغيوم تنسل ريشى وهى ثوحى : رغرغ الى الجوسلوى

لست أدري سر الحياة ولكن
في دمي واقع الحياة احاطوا
في يدي ارغن الخلود اماتوا
فتهاوت الهة الشعر صرعى
من خيالي صفت الجنان فقالوا
في فمي كلمة الوجود سيحكيها
رغزني يا صلاة روحى الى الله
واطلقى الروح من تقاليد كون

كيف اشكو من عالم الناس شكوى
• بحلم وكان لى الحلم مهوى
• وقد كان يوسع الكون شدوا
من صدى الروح ضاع في غير جدوى
شاعر شاء للتقاليد محوا
زمانى من صرخة الكون ادوى
وتيهى في وهلة الغيب زهوا
انت من عالم الطلاس اقوى

ومنه قصيدة لعبد الكريم بن ثابت بعنوان خلود ، يقول فيها :

كان ليل والدجى يحضنتنا
نحن كنا سبعة لا نلتقى
قد سرينا نقطع الليل وما
ربطتفنا وحدة الروح ومن
وسرينا وسرى غمى نشوة
قلت للصحب ترى يا فتية
فانبىرى يسخر منى بعضهم
نحن قوم كتب الله لهم
نحن نرجو الحب والخلد ومن
صحت ذا ربائنا يخطب في
ارشدوه اين ياوى انه
وتعالت في الدجى اصواتهم
فلتدع ربائنا يسرى بنا
وصمتنا نسمع اللحن الذى
ما سمعنا مذ خلقنا مثله
بعد ما انهى لنا اللحن الذى
ترك المركب يجرى وحده
وانزوى في الركن ينفى نشوة
تمت للمجداف ابغى نجوة
فرنت لى (منيتى) قائلة
لا تسلنا عن امائنا ولا

ولقد هامت بنا احلامنا
حيثما الاحلام لا تجمعنا
احد يسأل ما غابتنا
يفصم الروح التى تربطنا
زورق مؤتلق يحملنا
اين مرسانا وما مطحننا
قائلا كيف اذا تسألننا
ان يسروا بوركت سيرتنا
يرتجى غيرهما يتركنا
عشوة الليل وقد يفرقنا
قطعة من جسمنا تصحبنا
ايها العاقل لم تنصحننا
هو ادري بالذى ينفعنا
بات يزجيه لنا ربائنا
كان لحنا مشرقا يسكرنا
كان لونا رائعا يظلمنا
دون مجداف مئذارت نفسنا
ضاحكا منا عسى يرهبننا
حيث قد مال بنا زورقنا
انت يا صاح اذا مرشدنا
اين نسرى لا ، وما ينفعنا لا

قد مللنا الارض والناس وما
سر الى النور السماوى وسر
فالهوى والنور والسحر وما
ثم فوق الارض ما يفرحنا
عل خلدا دائما يثلنا
ينطوى الفن عليه تصدنا ..

وتم الوان اخرى من الشعر الجديد كالشعر السياسى الذى يقال على
مستوى الاحداث العالمية وبالاخص احداث العالم العربى . والشعر
الاصلاحى الذى يتناول بالنقد انحلال المجتمع وفساد الاخلاق نتيجة الغزو
الاستعمارى والانغماس فى مساوىء الحضارة الغربية . فمن الاول قول
عبد الرحمن الدكالى بقرر ان فكرة منع الحرب لا تتحقق الا باعطاء الشعوب
حرياتها :

ان عهد استعباد شعب لشعب
كرة الارض حرة فليغادر
ساسة السلم فى الورى قد سعينم
انه العدل بين كل قوى
انه نصره الذليل اذا ما
ليس اسطولكم على كل بحر
يمنع الحرب ان تشن ولكن
يمنع الحرب ان تنال حقوق
يمنع الحرب ان يرى كل شعب
لا ضعيف مستعبد لا قوى
حرروا هذه الشعوب وهاكم
قام ييكى مؤبنا غريانه
كرة الارض من يريد اهائه
لسلام ، فهل ملكتم عنايه ؟
وضعيف قد بثكم احزانه
جاء يشكو اليكم اثجائه
وسلاح شكلتم الوائيه
يمنع الحرب عدله سبعله
يمنع الحرب ان تداس الخيانه
مستقلا يسعى ليصلح شأنه
مستبد لا اثره لا استكانه
لانتشار السلام الف ضمائه

ومنه قول محمد العربى الاسفى يستنكر قرار الامم المتحدة بتقسيم
فلسطين :

امه العرب حان وقت العراك
نحن جند يهوى الفداء ويهوى
سوف تدرى وسوف يدرى اناس
اننا المعضب فى يدك وفاء
اننا النار والدماء لقوم
نحن قوم نرى المسات بمر
فى سبيل الوفا وصون حماك
موتة العز فى ظلال ربك
عاضدوا الظلم فى سبيل شقاك
لعهود مقطسوعة لعلاك
خذلوا الحق رغبة فى رداك
خير فخر نحوزه وملاك

دول الغرب اسمى صوت شعب
مجلس الامن ان حكك جور
هياة العالم الموحد سرى
ان حكما امضاه اهلك زورا
اسخط الحق فهو منه شرار
خلق الياس في الضمائر ما قد
فمن العار ان تقولى كلاما
ومن العار ان تقومى بفعل
هل تظنين ان سيفك امر
لا تظنى ان التحامل امر
لا تظنى ان المدافع تغريب
نحن لا نرهب المدافع لكن

عربى قد طال منه التشاكسى
وضلال ومبعث للمعراك
واجعلى العدل من اساس بناك
ونفاقا لمصدر لغناك
مستطير يثور ضد بقاءك
سجلت في رضا اليهود يدك
يبعث البشر ثم يرمى وراك
ينقض القول في زمان صباك
يبعث الرعب في قلوب سواك
سوف نمضيه عن رضا للاقاك
نا على الصمت خشية من لقاك
نرهب الحق وحده لا قواك

ومن الثانى قول المدنى الحمراوى مخاطبا الشباب المنحرف :

يا شباب البلاد مهلا فانى
لا ارى نجحكم اذا لم تصونوا
قد راينا جموعكم تنهاوى
فاستطابت من الهوى كل لون
واستحلت من الفجور صنونا
كم راينا على الطريق شبابا
فاذا ليم قال حرا ارانى
انما الحر من يصون عفافا
انما الحر من تحرر حقا
فاعد ايها الشباب صوابا
وتعلم من الحياة دروسا
انما هذه الحياة صراع
ويح من غمره الشباب فامسى
يرشف السم من شفاه مراض
فاذا ادبر الشباب توالى

قد رايت الشباب فى استهتار
شرف النفس من فسوق وعار
فى حياض الخنا بدون استتار
يتنافى مع الحيا والوقار
حرمتها شرائع الكفار
قتل العرض جهرة فى نهار
ابن فحش من عفة الاحرار
ويجافى مخازى الفجار
قلبه من قبائح الاوزار
كاد يلفى فى غمرة التيار
تنذر المرء ان لها باندجار
لا يرى الفوز فيها غير الخبار
يتلف العمر بين حان و (بار)
ويضيع الرشاد حول القمار
غمه بين علة وافتقار

* * *

يا شباب البلاد مهلا فهاذى ادمع الشعب كالسيول الغزار

كالحياء البكر في احشاء حامل

تلتهب

علموه بعدها اى يقين

وشكوك سبحت من فوق الواح الظنون

منذ نوح ، منذ آلاف السنين

منذ ان كانت حياة ونجاة في السفين

علموه ان من ينهض يصلب

فوق اغصان من الزيتون ينصب

ثم يعلوه من الشوك المذهب

الف اكليل وترعاه النجوم

في وجوم

باسمات مثل عرجون قديم

لا يريم ، والنسيم

اذ يهب

* * *

واتى صبح تمطى في كسل

وملل

بعد ليل انهكته الشهوات

والقبيل

نتذكرت وما كدت شبابى ، لماذا بى

لسم ازل

ذلك الطحلب لفته الفلاة

واذا اعجاز نخل خاويات ، والحياة

هيك قامت عليه العائسات

كالظلال

في ابتمال

كالنصب

وهذا نموذج آخر لمصطفى المداوى (ت 1381) وهو من الشعر

الوجدانى :

يا ايها الطيف المرفرف فوق اهداب الخيمة
يا نسمة العطر المروج في ابتسامات الجميلة
يا طيف سعد عابر
هلا مررت بخاطري
لى فى حماك قصيدة
غذيتها بمشاعرى

* * *

يا ايها الطيف المروج من بعيد
يا سائرا عبر الفضاء الواسع
ما زالت الذكرى معى
تهفو فتفسج من ضياك لناظرى
صورا جميلة
صور الزمان العابر
فى فجرها الموثب
ما زلت احمل ظلها
فى ناظرى شعاع امسية بعيدة
كانت لنا حبا واحلاما سعيدة

* * *

يا ايها الطيف الملوح كالشعاع
يا بركة فضية الشيطان فى الشراع
ترى حان الوداع
هلا وقفت هنيهة حتى اراك
وارى الحياة على شفاهك تبتسم

* * *

يا ايها اللحن المزغرد فى الفضاء
ما كدت استمع النداء
حتى اختفيت وراء دنيا من ضباب
ولم تعد الا صدى يخبو رواه

يا أيها اللحن الطروب
ما غاب منشذك الحبيب
عنى ولا نضبت رؤاه
يا أيها الطيف المودع ربنا
لى فى حماك قصيدة
ازلية لا كالقوائد
غنت تموجها حمامه
فى دوحها المتناول
غنت حمامه
بيضاء فى ثوب السلام
من الف عام

* * *

يا أيها اللحن المفرد فى الفضاء
عد للكمان . . لقلبي المتاجع
عد للوشاح لسحرك المتوجع
عد فالصباح اطل والزهر انتشى

* * *

يا أيها الطيف المودع ما حدا بك للذهب
يا نغمة غجرية حنت لعودتها الهضاب
يا نسمة عطرية متوئبه
يا طيف سعد عابر
هلا مررت بخاطرى
لى فى حماك قصيدة
غذيتها بمشاعرى

* * *

ونموذج ثالث لمحمد الهوارى وهو ثورة على الظلم الاجتماعى :
الحرف أعصار تربي فى دمي
الحرف بركان يعر يد فى دمي

الحرف آلاف الجياع بامتى
الجائعون كاخوتى

* * *

الحرف آلاف الجياع بامتى
المهزقون رحيق اعمار شقيه
الساكبون دماءهم دوما ضحية
الذابحون رقابهم
بمذابح الصمت المهين
السائرون عيونهم
بمعفونة الذل الذليل

* * *

الحرف نار من سحر
الحرف وهم مستطير
بعبون الجائعين
بقلوب الساكبين
بعبون آلاف الجياع بامتى
اعمارهم خلقت تباع
كى يحرقوا . . كى يحصدوا
ويقدموا كل الذى قد يحصدون
لصاحب الارض الكبير

* * *

الحرف آلاف الجياع بامتى
الساكرون مع النجوم
عبر السهول
عبر القرى
فى قرىتى
والنائمون على الثرى
بمدينتى

أوردنا هذه النماذج كاملة لنكتفى بها عن كثرة الأمثلة لأعطاء فكرة عن مدى نجاح هذا اللون من الشعر في المغرب فهي كما نراها تجارب لا تقل قيمة عن كثير مما ينسج على هذا المنوال في المشرق . واضطراب الميزان في بعض الأبيات هو من عدم إقامة عمود هذا الشعر في جل ما ينشر منه لأن قواعده لم ترس بعد على وضع ثابت . وفيما عدا الوزن نرى اللغزة والأسلوب لا يختلفان هنا وهناك أنها في الواقع لغة شعرية ممتازة غنية بأخيلتها واستعاراتها المبتكرة وإن يكن في بعضها غرابة ولكنه نهج أصبح مطروقا لا سيما مع ملاحظة الاقتباس من اللغات الأجنبية كإقتباس الحرف للدب . وأما الأسلوب فهو أسلوب الحكاية وكان ما كان ، ويعتبر في هذا الشعر من فنون البلاغة ، لذلك فالنماذج التي قدمناها متوفرة على جميع عناصر التجربة الناجحة أو القريبة من النجاح لهذا الاتجاه الجديد في مبنى الشعر العربي ومعناه أيضا . ونحن نعتقد أن هذا اللون من الشعر وإن كان في حاجة إلى كثير من الصقل سيكتب له انتشار كبير .

ونختم هذه المحاضرة بمثال من الشعر المنثور احاطة بالموضوع من جوانبه واستيعابا لوجوه التجديد التي دخلت على الشعر ولو أنه إنما يسمى شعرا باعتبار مضمونه . وهذا هو المثال لعبد القادر الميحيى بعنوان « قل أنك تحبني » :

في ذلك المساء
من الربيع
وقلبي دافئا
بالحنين
مثل أحلام الصغار
ليلة العيد
جئت إلى
وليس معك غير الحب
في ذلك المساء
من الربيع
وتحابيننا

كما لا يتحاب احد من قبل
منذ ذلك المساء
من الربيع
فقل انك تحبني
تحبني ..
ايمن ان ينسى ذلك المساء
من الربيع
ايمن .. ؟
ايمن ان تخلق الكلمات
بدفء الدموع
ايمن .. ؟
فقل انك تحبني
تحبني ..
كيوم حبنا
في ذلك المساء
من الربيع

الشعر القصصي والتمثيلي

من نافلة الكلام القول بأن هذين اللونين من الشعر جديدان في الشعر العربي ، فقد سبقنا الإشارة الى ذلك اكثر من مرة ، ودرج الكتاب ومؤرخو الآداب على تحليل خلو الادب العربي نثرا وشعرا من القصة والتمثيلية بما لا مجال لذكره هنا . الا انه مما بلغت النظر استمرار هذا الفراغ بالنسبة الى الشعر القصصي بعد النهضة الحديثة ، مع انه الفن الذي يمكن ان يعثر له على جذور في الشعر العربي القديم . ولقد نشط انتاج القصة والمسرحية الآن ، وظهر كتاب مبرزون في هذا الميدان ، كما وجد الشعر التمثيلي ووقع الاقبال عليه منذ ان رفع رايته امير الشعراء احمد شوقي . ولكن الشعر القصصي الذي كانت بذوره في شعر الجاهلية على وشك الانبات ، وقدم لنا عمر بن ابي ربيعة في صدر الاسلام تجارب ناجحة منه ، ولم يفنا الانباء يحاولون النظم فيه ، ومنهم من وفقوا الى نماذج رائعة كبديع الزمان فيما نظمه من قصة بشر بن عوانة ، وهي غاية في تصوير بطولة العاشق ، هذا الشعر لم يلاق من العناية ما هو جدير به ، وما تزال الاعمال التي انجزت فيه اعمالا صغيرة لا نسبة بينها وبين ما لشوقي وحده في الشعر التمثيلي بله ما قفى به عليه عزيز اباطة وعبد الرحمن الشرقاوي وغيرها . واكثر القصص الشعرية التي نعرفها لخليل مطران ومعروف الرصافي وبعض الشعراء الآخرين قصص صغيرة وتحمل طابعا ذاتيا . ولعل السبب في عدم تقدم الشعر القصصي ، قلة اقبال القراء عليه ، فان من المعلوم ان تذوق الشعر ناتج عن تفهمه ، وتفهمه يتطلب ثقافة واسعة ما زال القارئ العربي في العموم لم يتوفر عليها لا سيما مع ازدواجية اللغة التي تقف حجر عثرة في طريق انتشار التعليم وتنمية الذوق الادبي . والشعر التمثيلي انما انتشر بفضل المسرح الذي ذلل تلك العقبة وتغلب على الصعوبات التي تعترض قراءه ، فان تشخيص احداث الرواية واللقاء الفصيح واشتراك السمع

والبصر في تفهم العمل الادبي مما اعان على تذوقه ونجاح تجربته . فالى ان ينفشر التعليم انتشارا كليا وتعم التوعية الادبية اوساط الناس لا سبيل الى نهوض الشعر القصصى في نظرنا الا بنظمه في لغة مبسطة وتحبيب قراءته للعموم بوسائل الترغيب المختلفة كشكله وتفسير غامضه وتصوير أحداثه ، واهم من ذلك كله انشاده في المحافل الادبية وتقديمه للجمهور عن طريق الاذاعة المسموعة والمرئية .

وبالرغم مما ذكرناه من قلة الشعر القصصى في العالم العربى عامة فاننا سنقدم منه نموذجا مخضرمًا ان صح هذا التعبير موضوعه مستمد من تاريخ الاسلام ، والحلة التى يكتسيها لا يبلغ ان تكون حلة القصة المستكملة الشروط من عقدة وحبكة فنية وحل . ولكنها مما عمل فيها الخيال ومستها ريشة الفن اضفت عليه جو القصة الادبية وابتعدت به عن مجرد القص التاريخى . وهذا النموذج هو قصة كعب بن مالك أحد الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وقاطعهم النبى (ص) والمسلمون حتى نزلت توبتهم في القرآن ، وهو من نظم علال الفاسى .

يستهل الشاعر القصة بمدخل يخاطب فيه الناشئ الصغير حائا اياه على التماس القدوة من سيرة اسلافه الامجاد اذ كان المقصود من نظم هذه القصة هو ضرب المثل للناشئة في الصدق والاخلاص والثبات على المبدأ ، ثم يقول متخيلا انه اتى كعبا وتحدث معه على المنوال الآتى :

حلة الشيخ الوقور الطرب
في تبوك حيث لم يصطحب
في استباق الخير عند النوب
وكميا من كماء العرب
تخنشى بيض القنا والقضب
ان تأخرت فاغضبت النبى
فزت الا باجتساب الكذب
كسل اوتعننى في العطب
لم انل مثلهما في حقى
خدعوا الله وغشوا المسلمين

نبى قد جنت كعبا وهو في
سائلا عما جرى من شأنه
قلت عهدئى بك شهما لا نبى
كم غزاة كنت فيها اسدا
دامعا عن حرم الله فما
ما الذى اجبتك الامس الى
قال ان الصدق منجاة وهل
لم يكن لى اى عذر ، انما
كان لى يسر وعندي قوة
آه قد غرنى القوم الالى

وبعد ذلك يسأله الشاعر أن يروي قصته فيقدم له قبلها وصايا ونصائح يحذر فيها من الاغترار بالناس ويأمره بالاخذ بالحزم في شؤونه كلها ويستغرق ذلك قصبا من عشرة أبيات ثم يبتدىء الحكاية في قسم قال :

قال هذا وبكى مذكرا	ذلك الذنب الذي قد غفرا
ثم سار الشيخ في قصته	راويا متعظا معتبرا
قال رام المصطفى غزوته	في زمان حره قد سمرا
قاصدا سيرا بعيد المنهى	وعدوا جنده قد كثرا
فأبان القصد للناس لكى	ياخذوا الاهبة فيما امرا
ولقد كانوا كثارا ما لهم	من سجل فيه عد النظرا
فاستعد القوم الا فئة	حسبت موقنها لن يظهرها
وانا ما كنت الا مضمرا	رفقة القوم لاجنى الظفرا
غير انى كلما رمت قضا	حاجتى اخرتها منتظرا
فتماديت الى ان رحلوا	واذا بى في غمار القاعدین

ويستأنف القصة فيذكر خروج النبی (ص) الى تبوك وتقاعدہ عن الخروج معه ، وما هو الا ان يتدبر في أمره حتى يحيط به الندم ، لا سيما وهو يتجول في المدينة فلا يرى الا شخصا ضعيفا معذورا أو منافقا مشهورا ، ويبلغه ان النبی سال عنه وان احد الصحابة اجابه بانه شغله برده والنظر في عطفيه ، فيزيد ذلك في ألمه وان كان صحابى آخر قد اعتذر عنه :

فصل المختار في موكبه	وانا ما زلت أرجى سفرى
ليتنى اتبعته راحلتى	واذن يكمل منه وطرى
غير ان الامر موكل الى	ما يجليه صنيع القدر
ثم ما رمت حزينا بعده	دائم الغم شديد الكدر
لا ارى في الناس ان سرتهموى	ذى نفاق أو ضعيف معسر
سال عنى بتبوك المصطفى	فاجاب السلمي المجترى
قال برده وعطفاه هما	حبسا من جهاد خطر
ليتني كان لبيبا منصفنا	كمعاذ فهو بالحمد حرى
اذ اجاب المصطفى معذرا	ما عرفناه سوى الشهم الجرى
ورسول الله اصفى ساكنا	وهو ادرى بقلوب المتقين

وتنتهى الغزوة وتأتى الانباء بعودة النبی (ص) والمجاهدين ، فيفتم

كعب ويوبخه ضميره وتنتابه الهواجس ، كيف يلقي النبي ؟ وماذا يقول له ؟ وهل في استطاعته ان يبرىء نفسه ؟

جاءت الانبياء ان المصطفى	قد تولى قافلا في الموكب
فربا حزني وافنى جلدي	وخزات في الضمير الذرب
ما الذى افعل يارب وهل	ينفع اليوم حديث الكذب
كم اناس سيلحون غدا	في اختلاق العذر عند الطلب
هل اجاريهم فأتى فندا	ام لزوم الصدق اولى بالابى ؟
وهنا اشتد صراع قائم	بين نفسى وضميرى الطيب
عاملان مختلفا واصطنعا	حجبا توعد نار الشغب
واخيرا كان عزمى اننى	الزم الصدق ولو اوقع بى
اما ان اكذب على خير الورى	اعرض النفس لادهى عطب
ربما يسخط على المصطفى	فأرائى بين قوم خاسرين

ويعمادى في القصة ، فما هو ذا النبي (ص) يعود الى المدينة ، ويأتيه المتخلفون معتذرين فيقبل منهم ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا . اما هو فلا يجد ما يعتذر به ، انه آثر الصدق ولو شاء للفق الاعذار تلفيقا ، فانه كان ذا جدل . ولكنه ايضا كان ذا ضمير حى ، ويلومه اناس من قومه على انه لم يخرج من ذنبه بعذر يرضى فيستغفر له ، حتى يهم بمراجعة موقفه ، ولكنه حين يعلم ان صحابيين آخرين ممن شهد بدرا كانوا على مثل حاله تطمئن نفسه ويزداد ثباتا .

ويقع التعقيد في القصة ، اذ يأمر النبي (ص) بمقاطعة كعب وصاحبيه ، فيتجنبهم الناس ، وينفرون لهم ، ويكون الامر اشد وقعا على كعب من صاحبيه اللذين لزما البيت يبكيان فلا يريان احدا ولا يراها احد ، وهو كان شابا نشيطا يغشى السوق ويأتى المسجد ، ولكنه لا يكلمه احد ولا يكاد يرد عليه السلام .

ويتأزم الوضع بالنسبة الى كعب حين يضيق به الحال فيذهب الى ابن عم له يحاول ان يجد عنده سلوة فيعرض عنه ، واذا ياتيه رسول من ملك غسان يساومه على اخلاصه ، فلا يزيده ذلك الا ايمانا وتثبيتا .

ضاق ذرعى من جفاء دائم وتطلعت لان ينكشفنا

<p>طالما كان صديقى المسعفا اننى ممن يحب المصطفى قال الا الله ادرى وكفى بعد ما قد كدت اقضى اسفا ما يسلى وبقينى التلفا من بلاد الشام يأتى مطرغا هم مشيرون له ان قد وفى فتى غسان يحبوك الشفا واترك الذل فما انت مهين</p>	<p>فتسورت جدارا لاخ قلت ايه يا ابن عمى هل ترى ثم كررت وعادت فما وهنا فاضت دموعى حزنا فدخلت السوق على ان ارى غير انى لم اجد الا فتى سائلا عنى قومى فاذا فاتانى بكتاب انه من فالتحق بالشام تدرك ما تشا</p>
---	--

* * *

<p>ان يظن القوم انى اغدر ان هذا لبلاء اكبر اذ هو بالنور منى اجدر</p>	<p>وبح نفسى يبلغ الامر الى كيف ادعى لابتىاعى ذمتى فتيممت به التنور اذ</p>
--	---

واذ تبلغ مدة المقاطعة خمسين يوما يشتد فيها الامتحان حتى يامر
النبي النفر الثلاثة باعتزال نسائهم فيطيعون ويمثلون ، يأتى الفرج وتنزل
توبتهم من السماء وذلك ما تعبر عنه القصة فى هذا القسم .

<p>من لدن ذى العرش فى الذكر الحكيم به نفسى بعد ايام الجحيم منزل التوبة من عند الكريم فوق ظهر البيت قد كدت اهيم رحبت من هول ذا الخطب الجسيم خير خلق الله فى الجمع العظيم يبتغون الفوز بالفضل العظيم كعب : ابشر فلك المجد الصميم غير ان السبق للصوت الرخيم فهو بالشكران والحمد قمين</p>	<p>حبذا اليوم به البشرى وقت انه اليوم الذى قد سعدت حبذا فيه اصطباح انه جائنى فيه بشير وانما بعد ما ضاقت بى الارض بما ولقد اعلن عن توبتنا فاعتدا الناس الينا سرعة واعطى حمزة سلعا صارخا واستحث الشهم نحوى فرسا انه اسرع فى تهنتى</p>
---	---

نكتفى بما ذكرنا من اقسام هذه القصة ، وهى فى الحقيقة قصة مؤثرة
تمثل امتحان الضمير الحى وخروجه من ذلك الامتحان معززا

منصورا ، ولو كان فن الشعر القصصى قد توطدت دعائمه عندنا لاخرج منها رائحة من روائع الادب الانسانى الرفيع ولكنها فى صياغتها الطبيعية التى اختارها لها الشاعر قد احتفظت بقيمتها الواقعية فكانت ابلغ تأثيرا وأقوى تمثيلا لروح البطل الذى تدور عليه حوادثها مما يجعلها ادعى لاتخاذ القدوة وتحقيق الغاية التى رعى اليها الشاعر ، وبذلك فهى لم تقصر عن أى هدف نبيل يتوخاه مؤلف قصصى من عمله الادبى .

وننقل الكلمة الى الشعر التمثيلى فنجدته أخصب حقلا وأكثر انتاجا طبقا للملاحظات التى قدمناها من ان الاقبال عليه كان مشجعا لتداوله والاشتغال به ، ولدينا منه أعمال ناضجة سنقتصر على اعطاء امثلة من بعضها تحعلنا نكون فكرة عن مدى نجاح اصحابها فى ادخال هذا الفن الشعرى الجديد الى ادبنا العربى مساهمة منهم فى المجهود العربى الهام الذى بذل ويبدل من أجل هذه الغاية .

والمثال الاول الذى سنقدمه بكامله تقريبا لنخلص من النظر فيه برأى صحيح عن المحاولة ، هو تمثيلية صغيرة لاحمد البقالى تحمل عنوان مصرع الخلخالى والخلخالى هذا هو احد حكام مدينة اصيلة بلد الشاعر ، وكان مستندا فى حكمه استذل اهل هذه المدينة حتى نفذ صبرهم فثاروا عليه وقتلوه .

وهذا نصه :

(يبدو الخلخالى فى بيته امام مرآة كبيرة ، وهو يلقط من لحبته شعرات بيضاء ويترنم) .

غنوا معى ، لانام من لم يمتطى المجد الاثيلا
غنوا معى ، لاعز من لم يفتض السيف الصقيلا
نحن الالى ، فاشرب وغن لذكرنا دهرنا طويلا
قوم كآساد الشرى لا يعرفون المستحيلا

(يطرق الباب ويدخل غلامه الخاص قائلا :)

سبيلا

لم يجن منهم واحد ذنبا فهل الفيت فيهم فاسقا ضليلا
ماذا اذن صنعوا فحق عليهم منك العذاب اما اتوك فحولا
(يجلس الرجل فيتعطف العبد على سيده هامسا)

العبد — مولاي كلمهم فان الحق يدو في بريق عيونهم محمولا
الخلخالى — صائحا في عبده —

— تربت يداك متى تكلمت الملوك باذن عبد لا يبل غليلا
العبد — مولاي معذرة لقد عودتني هذا فلم أر عبء ذاك ثقيلا
الخلخالى — ملتفتا الى رئيس القوم
مهلا لقد اغلظت باعم

الرئيس — استمع للنصح يا ابن اخى ودع ذا القيلا
الخلخالى — اسكت

الرئيس — لنستمعن

الخلخالى — اسكت

الرئيس — ما أنا بالمسكت

الخلخالى — اغرب او تخر قتيلا

بعد هذه الثورة من الخلخالى يحاول القوم ان يسكنوا غضبه ويتشفعوا
له بكل مخرج من وسائل الشفاعة فلا يؤثر فيه شيء من ذلك ويسخر منهم
ويهددهم بالسجن والعذاب فيحتدم غيظهم وتهيج حميتهم ويهجمون عليه
محاولين الفتك به فيفر ويصعد الى اعلى بيته المطل على البحر فيلاحقونه
ويلجنونه الى ان يتدف بنفسه الى البحر وهذا ما يحكيه من امره بعد ذلك :

الخلخالى — واحيرتاه الرتمى ؟

صوت — نعم ارم نفسك انتحر مت كالاباة نبيل

الخلخالى — لا . اختنى

الصوت — ها هم ورايك يسمعونك للبنادق والسيوف صليلا

الخلخالى — (وهو يلقي بنفسه من اعلى البيت الى البحر)

رب ادرا الاعداء عنى واحمنى
آه أموت لقد حكمت فلم أكن
مالى اذا لم ترض عنى ملجأ
ان لم يسعنى عفوك المنشود فى
هيهات ان احيا الهى اين اين
او هكذا يمضى التجبر تاركا
آه أموت مرفقا مثلولا
عدلا فمت منكبا مخذولا
آوى اليه مكرما مقبولا
الدنيا فكيف اقابل التهويعلا
الموت ؟ ادرا عنى التضليلا
رمقا على قيد الحياة ضئيلا

(تسمع جلبه وضوء) .

قد اقبلوا نحوى سراعا ليتهم ضلوا السبيل الى

صوت — ادن قليلا

الخلخالى — قد اقبلو هيهات ان يترفقوا بى

الصوت — هل سمعت ؟

صوتا آخر — نعم سمعت عويلا

القوم يعثرون على الخلخالى وهو يجود بنفسه

ها الظالم الجبار يلفظ نفسه رياه هل سقط العنيد قتيلا

(ثم يجهزون عليه ويقول الرئيس) :

الرئيس — الله اكبر كبروا

القوم — الله اكبر

الرئيس — لا يزال مؤملا مسؤولا

لاهم شكرا دائما شكرا لنعمائك التى غمرت ربي وسهولا

لاهم لا نرضى سواك محكما فنيا ولا نبغى سواك بديلا

لا العزم توهمه الطفافة ولا الحجى توهى الصرامة حبله المفتولا

(يخلو المكان ويسمع صوت هاتف)

ياجثة كانت على عرش من الجبروت تجرى للدماء سيولا

ذوقى مذاب الهون أو فتبوثى ظلا على جمر السعير ظليلا

لم يقن عنك من المنية ما جمعت نمت الى سقر تؤم قبिला

ان قصة الخلخالى على ما يروى اهل المدينة الصغيرة قصة واقعية ،

وقد جرت حوادثها في تاريخ غير بعيد ، ولكنها انما تناقلتها الرواة ولم تدون في كتاب ، وقد سمعها الشاعر الشاب من اشيخ مدينته وعجائزها غير ما مرة وبروايات مختلفة منذ كان طفلا صغيرا فوعاها وارسمت في ذهنه فما زال يتمخض بها حتى اداها اليها هذا الاداء الجميل فكتب لها البقاء على احسن صورة . وكم من قصص شعبي وروايات يتناقلها الناس على انها احداث تاريخية لو قبيض لها من يسجلها بهذه الطريقة او غيرها لاغنت تراثنا الادبي واعانت على تدوين تاريخنا الفكري والسياسي .

وقد احسن الشاعر في اختيار القالب التمثيلي لاداء هذه القصة ، لانه يجسم ما تحويه من معاني الثورة على الظلم والاستبداد ومصر الحكام الجائرين والطفاة المتجيزين ، فان العبرة بالتمثيل تكون اقوى مفعولا لتعاون السمع والبصر فيه على احداث الاثر المطلوب . واذا كان العرب يحتفلون بنبوغ الشاعر منهم اكثر من احتفالهم بالفارس الشجاع لانهم يعدونه لسانا يحمي اعراضهم ويخلد مآثرهم ، فحق لاصيلا ان تحتفل بشاعرها الشاب الذي لم يسجل هذه القصة من قصص بطولتها باهون سبيل بل اختار لها وسيلة الشعر التمثيلي ليخلدها على الصعيد الادبي والفني معا .

ونحن لا نعرف اصل الحكاية التي يرويها بها الاصيليون ، فلذلك لا يمكننا ان نحكم على محتوى التمثيلية ومبلغ ما فيه من تزييد او مطابقة للواقع التاريخي ، ولكننا لا نشك في ان بعض الالتفاتات الفنية هي من اضافة الشاعر لان طبيعة العمل الادبي يقتضيها كحركة العبد في اجلاس الوفد وصوت الهاتف الذي يسمع بعد اخماد انفاس الظالم وغير ذلك . على ان في القسم الذي حذفناه اختصارا . بعض ملامح من الحياة الاجتماعية المحلية لمدينة اصيلا ، وقد صورها الشاعر فاضفى عليها ظلالا من «السريرية» او ما فوق الواقعية ، فكان ذلك من زيادته على اصل الحكاية ، ولكنه ليس من الصدق الفني المستحسن في هذا المقام

واما اسلوب الاداء فان المؤلف بعد ان فضل الشعر على النثر ، زاد فالتزم بحرا واحدا من بحور الشعر الستة عشر كلها ، فضيق على نفسه واسما . ولو شاء لتنقل بين البحور الشعرية العديدة ، ولا سيما هذه البحور

السريعة الخفيفة المطواع مثل الرمل والخفيف والسريع كما يفعل غيره من الذين وضعوا تمثيلات شعرية . وذلك مما يكسب العمل الشعري الطويل ترفا فنيا ويجعله أكثر ملاءمة لتنوع المناظر واختلاف المواقف . بل انه القزم فوق ذلك قافية واحدة هي قافية اللام المردوفة في جميع التمثيلية ، ومن غير شك ان ذلك الجاه الى استعمال بعض الكلمات أو العبارات الاضطرارية . وكأنه كان يجرب مقدرته على النظم في نطاق واسع مع هذه القيود فلم يتساهل في الأمر حتى أوفى على غايته . والذي جراه على ذلك فيما نرى هو ان التمثيلية قصيرة لا توقع ناظرا أو قارنا في سام ، فلم يشعر بحاجة الى تنويع صور الاداء ، وهو في الواقع لم يخل في التزامه هذا بشيء مما يفرضه عليه العمل الفني . وذلك نجاح كبير .

وإذا كان الشاعر البقالى قد استوحى تمثيلية من تاريخ بلده القديم ، فان شاعرا آخر هو أبو بكر اللمتونى قد استوحى التاريخ المغربى الحديث لنظم تمثيلية رائعة باسم (بقيت وحدى) هي المثال الثانى الذى نقدمه فيما يلى :

ان ثورة الملك والشعب على الاستعمار 1953 التى انتهت كما هو معلوم بتحطيم الدمية التى اجلسوها على العرش وعودة الملك الشرعى واستقلال البلاد ، كانت حدثا عظيما في تاريخنا القومى الحديث ، وهى تحفل بأمثلة من الوقائع الخالدة والكفاح البطولى من اجل استرجاع السيادة الوطنية والحرية المفصولة بقل نظيرها ويحق بها الاعتزاز ، ومنها استمد شاعرنا موضوع تمثيلته بقيت وحدى وهو يلخص في هذا العنوان المعبر حوادث التمثيلية التى عزلت الملك المفروض على الشعب محمد بن عرفة وجعلت الناس يتحامونه حتى المستعمرون واذنبهم الذين غرروا به واوقعوه في المحذور نصار يندب حظه ويقول بقيت وحدى ولا معين .

والتمثيلية عمل كامل في أربعة فصول محكمة النسيج متينة الاسلوب أطلق الشاعر لنفسه فيها عنان الخيال فأغناها بالصور والمحاورات المحزنة والمضحكة فيمكن لذلك ان نعددها من قبل الملهاة ولا نرى في الحكم عليها احسن من تقديم نماذج منها تظهرنا على مدى توفيق الشاعر في هذا الفن الجديد .

فمن الفصل الاول ، من محاوره بين عرفة وابنته سلمى ، وهى فتاة
فى الخامسة عشرة :

سلمى — سمعت يا أبى جموعا خلتها رعدا هدر
كانهم صاعقة ليس لها من مستقر
قد اقبلوا من الشهاب كالجراد المنتشر
من الجبال والسهول والى البوادي والحضر
وهم يصيحون صياح الاسد حين تنثر
الموت للخائفة ليس لهم منام مفر
المس بابن يوسف جريمة لا تغفر
هو الملك ان نأى وهو الملك ان حضر
سنقطع اليد التى مدت اليه بالضرر
ثم يقولون .. الهى ، ليت سمى قد وقر

عرفة — ماذا يقولون ؟

سلمى —

عرفة — انطقى

سلمى — عرفة الى سقر

عرفة — عرفة الى الجنان لا الى جهنم

الى العروش والكنوز والى والنعم
ابوك ببيع مليكا بالكاع فاندمنى
والتمسى الغفران من والدك المحترم
بل من امير المؤمنين الملك المعظم

سلمى —

ابى لئن غفرت فاغفرت ما بقى من كلمى
بويعت يا أبى على من ؟ امسجب تكلم

عرفة —

على .. على .. على .. على ..
(مشيرا الى الجبال والهضاب البادية من النافذة)

هذى الربى والقمم

سلمى — ان بكل ريسوة مقتمدا من ضرر
وملء كل قمة مرتصد من نقم
قد نذر الشعب : ابن يوسف الوقي بالدم

عرفة — الشعب ، لن اسمع هذا اللفظ من ذاك الفم
الشعب ان لم يرضنى ادوسه بقدفى

سلمى — اهلا بنىرون الجديد ومرحبا بخليفة الحجاج والسفاح
ايتاح وطء العالمين لارجل وطء الطريق لهن غير متاح
تالله ما وطء الرقاب ببالح ما يبلغ الاخلاص والايتار

عرفة — لا تستغلى غلته افلتها ان اللسان بطبعه عشار
ساكون يا سلمى مليكا مخلصا يحنو على اوطانه ويفار

سلمى — هلا اقلت الشعب من غمراته لمرحمته وتركته يختار

عرفة — يختار غيرى ؟

سلمى — ان ذلك ثأته

عرفة — انى لغيرى عزمى الجبار

سلمى — ساقيم للاسلام فى هذا الحمى ركتا يكاد بناؤه ينهار
عجبا يحامى عن حقيقة دينه ملك يؤيد ملكه الكفار

ان فى هذه المحاوره اكثر من دلالة على القيمة الفنية لعمل اللمتونى
فى تمثيلية بقيت وحدى . ان فظاعة الجرم الذى ارتكبه عرفة قد ادركها كل
الناس واستنكرتها حتى ابنته المحببة فى داخل بيته والبراءة التى صور
الشاعر بها قلق الابنة على ابيها واشفاقها على مصيره ، لا يوازىها الا
براعته فى تصوير عرفة وهو يحلم بالعرش والملك والنعم ، فاذا افاق من
حلمه واصطدم بالواقع المر تلجلج لسانه فلم يجد ما يعبر به الا ان يلتقى
بنظرة اسيفة الى الافق البعيد ولا لحتاج ان نشير الى فزعه من الشعب
ومخزى ذلك . وهذه السخرية المرة التى تعبر عنها ابنته بقولها ايتاح

وطء العالمين لارجل لا تستطيع وطء الطريق ؟ وقولها عجبا كيف يحمى
حقيقة الدين ملك يؤيد ملكه الكفار ؟ ان ذلك كله من الكلم المعبر المشحون
بطاقات الفن والشاعرية .

وهذه صورة هجوم علال بن عبد الله على ابن عرفة عند بروزه
لصلاة الجمعة ، والحديث يجرى بين مطربين سيقوا الى القصر لتسلية
الملك المزعوم وهو من الفصل الاول ايضا :

— ماذا ورايك ؟

— امة محموعة
ودم زكى فى الشوارع يهدر
وابو المناخس فى طريق رجوعه
مثل الجزور مضرجا بتقطر

— ماذا تقول ؟

— مخرف ؟

— او ناقل
رب امرىء سمع الكلام فقالا

— بل شاهد

— ماذا شهدت الا تكون مازحا

— لا تـوسـمـوه خـبـالا

— من اين جئت ؟

— من المصلى مكرها
حملتنى الاجناد منه غيالا
زعموا وجود المطربين تجمعوا
كالبعث حثدا والمجرة الا
متباشرين ببيمة ميمونة
كالشمس يغمر نورها الاجيالا
بترقبون ليستهلوا حلفهم
نغمى الجميل وصوتى الصللا

— دع عنك هذا واحك ما شاهدته

— اجلس

— تعال هنا

— تعال تعالى

كان المصلى موحشا فحسبته
وظننت قصف القاصفين مناحة
وأطل ركب السوء فاهتزت له
فرايت اكوام الحجارة ترمى
والشعب يبرز للجود منددا

والجند هل ترك الغضابي حاذرا
بل كان يغتال البريء وينثنى
كم امهات اكلوا كم بائسات
والعاهل المزعوم كان مروعا
بل كان يمشى كالسلحفي زاحفا
متلفعا يخشى بؤادر أمة
تحكى حراب الجند حول حصانه
واذا على بعد المدى سيارة
حتى دنت لا تستثير تطلعا
واذا المعجوز تحت باقى عمرها
تطابير الاجناد حول مدارها
ثم انتطار دخانها عن اغلب
انساق برقاً واستقر قديفة
ومضى الى الملك المدلس حاملا
فارتاع سلطان الدمى وتخلخت
— هل مات منتصبا واهوى جثة
— ما مات منتصبا وعاش مرغا
— وعن الفتى

— دار الجنود على الفتى
— خزيا لهم نسر هوى من علوه
— اسروه ام قتلوه ؟
— بل حشدوا له

تبرا وخت الحاضرين ثكالى
والدور من احزانها اطلالا
ككل الانام وزلزلت زلزالا
وسمعت ايعاد الملا يتوالى

رباه . عزل يطلبون نزالا
اشعالهم ام زادهم اشعالا
يطأ القتيل ويرفس المفتالا
رملوا كم يتموا اطفالا
ام كان يمشى زاهيا مختالا
وكأنما هو حامل اثقالا
ثارت عليه نسوة ورجالا
شباك باب السجن والاقفالا
شمطاء تنهج كبرة وكلالا
لبلائها أو تستجد سوالا
في كرتين فتستحيل غزالا
مثل الجراد تسابق الاجالا
بذ الرجال شجاعة ونضالا
وانقض سها واستوى رثالا
قلبا اشم ومديفة قتلالا
من تحته رجل الحصان غزالا
ام دق منه سقوطه الاوصالا
فوق التراب يوسد الاوحالا

مثل الذباب اذلة انذالا
وسط الكسلا فاصبحوا ابطالا
خير الكفاة وصاولوه صيالا

وسقوه كأسا للمنية خلنها
سقط الشهيد د ضحية وكأنه
— واسم المفدى ؟ هل تعرفت اسمه —
سماء لى أصحابه عللا

انها صورة للمشهد التاريخى وحادثة الفداء الاولى التى قام بها ذلك
البطل الخالد ، اثر وقوع كارثة ابعاد الملك الشرعى عن البلاد وتنصيب
الدمية الاستعمارية على العرش ، وظن المستعمرين ان الجو قد خلا لهم
وانهم قد ضربوا الضربة القاضية على الحركة الوطنية وما كانت تحلم به من
بعث الدولة المغربية واحياء مجد البلاد بعد استعادة حريتها واستقلالها .
ولئن كان الشاعر قد مهد للصورة بما هو من قبيل الهواجس التى ساورت
افكار المواطنين كثيرا منذ تلك الصدمة المؤلمة ، فانه قد توخى الحقيقة الكاملة
عند عرضها ولم يتزبد فيها بكلمة ولا حرف ، وبذلك كان واقعيا فى تسجيل
هذا الموقف التاريخى وتجلية مناظره للعموم . واى حاجة به الى التزبد
والموقف فى روعته وجلاله غنى عن كل تلوين ، بل ان الشاعر مهما أوتى
من الفصاحة والبيان لا يبلغ ان يحدث فى النفوس ما يحدثه مطلق وصفه
من الاثر العميق . وكأنى به قد أخذ بتأثير الحادثة التى كانت بردا وسلاما
على القلوب ، فاندفع فى وصفها متدفق الخاطر فلم يشعر بالحاجة الى
تبديل الوزن ولا حرف الروى الذى نظم عليه وان طال ذلك النظم واوشك
ان يوقعه فى الاغراب .

ونموذج آخر من الفصل الثانى نختم به ، هو منظر لاجتماع بين المقيم
الفرنسى وابن عرفة .

المقيم — ملك الملوك لقد وجدنا حيلة
نضع الجنود ظهورهم لظهورهم
فتنمر من بين الظهور محصنا
عرفة — مسيو المواسى حيلتى الا ارى
المقيم — والشعب ؟
عرفة — اقبل شوقه وولاءه
عنى ويلفه جميل سلامى

أو لم يثر اشفاق قلبك اننى
 لم يبق لى قلب يطير وعورت
 المقيم — د ع عنك اقوال العجائز انما
 انا منعلى بيعة بويعتها
 عرفة — كيف السبيل الى تلافى فتنة
 أو كيف يرضى المسلمون بببيعة
 غررتمو بى وانتهزتم كبرنى
 افرطت فى الاحلام حتى ساعنى
 المقيم — لا تصدق مقالة الاوغاد
 عرفة — أمن الافك الفمل صرعتنى
 لم يزل ظفرها يزلزل احلامى وتزآرها يروع بالى
 انا لو كنت فى مكانك ما كابررت فى الواضحات يا جنس الى

المقيم — يا مالكا لقيت ما
 ولم ازل مثابرا
 المرء لا يجيز بالجحد
 ولا يشط السذى
 لقيت من بيعته
 اكثر من شيعته
 على نصرته
 بجحد فى خدمته

عرفة — يا بادعا لقيت ما
 المرء لا يكذب المر
 الشعب تدسخطنى
 امعن فى اضرايه
 وليس من مذبذب
 غير ضعيف خائف
 فطعم الهلاك قبل مفتدى لقمته
 فهل نقول كـذب الميت فى ميته
 وكم امسام لم يقه باسمى فى خطبته
 حتى اتاه واغد الهلاك فى جمعه
 وكم معمر حكى قارون فى ثورته

حصده الموت — مع الحصيد في ضيعته

هم جنة الله — لا تمار في قدرته

أمنت بالله وبالفتية — من جنته

لكننى المقيم — لا يرجع في كلمته

قد خاب ما آمله — فاصبر على خيبته

وخله يلتمس — المخرج من ورطته

لست أقل رافة — بالشعب من جلده

المقيم —

ان كان يعنك — نجاة الشعب من فتنه

فهاك وصفة طبيب صاب في وصفه

قلها فلست بالذى — يشك فى نيته

عالجه بان يوسف — يبلى من علته

وانت ؟

عرفة —

المقيم —

عرفة —

المقيم —

دع عرفة — يخط فى ظلمته

فلست اول امرى — أصيب من نهته

وقد يحلل الاله العبد من زلته

ان عظم الذنب فلا — اعظم من رحمته

استغفر الشعب ولا — اطمع فى رده

لكننى اعوذ بالمر — حم من نعمته

استغفر ابن العم — ما جنيت فى دولته

ان خنته فقد كشنت عن ثدا سمته

وعن سخاء شعبه — بالروح فى غدته

دعنى دع عرفة — يهيم فى غربته

دعه يهاجر الى المجهول من هجرته

كالطائر الذى مثنى — بالخلف فى أسرته

فديس ماواه وغولسب على ايكنه

انا ابن آدم ابى اخرج من جنته

عرفة —

الاختصار لهذا القسم يذهب رونقه فلذلك اوردناه بطوله ، وبعد ان

اعطينا مثالا مما أجراه الشاعر من محادثة بين الملك المصنوع وابنته ، ومثالا من حوادث الثورة والفداء التى قابل بها الشعب الجريمة السياسية الفكراء، لم نر بدا من ان نعطى مثالا للعلاقة بين ابن عرفة والفرنسيين وكيف صورها الشاعر ، لنستوفى بذلك التقديم الذى يسوغ معه الحكم على التمثيلية ووضعها فى المقام اللائق بها بين الاعمال الادبية التى من هذا القبيل .

والمثال كما نرى يزخر بالمعانى والابخلة الشعرية الجميلة وبالنكت والعبارات الساخرة فضلا عن انسجامة وجمال اسلوبه . وقارن ان شئت بين حيلة المقيم التى دبرها لحماية الدمية من هجوم الشعب بسبب حرصه على بروزها وشهود الاحتفالات الرسمية مع مخاطبته لها بملك الملوك للتفريز والخداع وبين الحيلة التى دبرتها الدمية ولم تبغ بها بديلا للنجاة بنفسها من انتقام الشعب مع مخاطبتها للمقيم بمسيو المواسى . فان ذلك كله من الناس الواقع حلة البيان الرائع والخيال المبدع مع تطريزها بالنكت الهزلية التى تزيدها حلاوة وقبولا ، وقول ابن عرفة للمقيم لما ذكره بالشعب : اقبل ولاءه وشوقه نيابة عنى وبلغه ازكى سلامى هو من صور السخرية التى لا كفاء لها فى الحسن . والحديث كله مما عرض عرضا لبقا وذكيا فلم يبدع فكرة سياسية الا لمح اليها ولا عقيدة وطنية لم يحسب لها حسابها ، فبينما نرى المقيم يناور ويداور ليوقع الصيد فى الشبكة نرى الضحية يدافع ويعارض بما هو اقوى حجة واقوم سبيلا ، فاذا قال له المقيم اننا سنؤيد بيعتك ونعطى شأنها اجابه بقوله : كيف يرضى المسلمون بيعة يرون نبذها من تمام اسلامهم واذا قال له عاتبا وقد راى تصميمه على عدم الاستمرار فى التجربة الفاشلة :

المراء لا يجيز بالجحد على نصرته

قال له مبادها بحقيقة الواقع :

المراء لا يكذب المرئى من رؤيته

الى آخر ما فى ذلك الحوار من حقائق وآراء صائبة مع ما يلبسها اياه احيانا من لباس الهزء والسخرية كقوله على لسان ابن عرمة فى الفدائيين :

هم جنة الله فلا تمار فى قدرته

وما أجابه المقيم :

لكننى المقيم لا يرجع فى كلمته

وقوله فيما عرضه ابن عرفة لعلاج الموقف من ارجاح ابن يوسف الى
عرشه واجفال المقيم من ذلك . واما قول ابن عرفة :

استغفر الشعب ولا اطمع فى ردتـه

فهو من عيون الابيات فى هذا الحوار . وكذا قوله :

انا ابن آدم .. ابى اخرج من جنته

فهو ايضا من الروائع التى بلغت الغاية فى تسليـة النفس والاعتذار
من الخطا الذى ارتكبه هذا الرجل الذى هو ليس اول الخاطئين ولا آخرهم .

* * *

فهرس

صفحة

11 – 5

بين يدي الكتاب

16 – 13

مقدمة

- ☐ الادب المغربي الحديث غير مدون ولا مدروس .
- ☐ الطريقة التي اتبعت في هذه المحاضرات .
- ☐ العناية بالنشاط الفكري وحركة البحث والنشر
- ☐ مخطط للحياة الادبية في المغرب الحديث يهدف الى التعريف والتاريخ .

37 – 17

على عتبة العصر الحديث

- ☐ المغرب لم يشهد اى تحول فكري في منتصف القرن التاسع عشر واولئل القرن العشرين .
- ☐ العزلة التي ضربت على المغرب جعلته بعيدا عن التأثير بالشرق والغرب على السواء .
- ☐ محاولات للبعث والتجديد في ميدان السياسة والادارة .
- ☐ البحوث العلمية وانشاء الطباعة .
- ☐ المطالبة بالدستور .
- ☐ النشاط الفكري والادبي .
- ☐ اعمال ادبية نثرية من باب الرسالة والمقامة والتأليف بطريقة النثر الفني .
- ☐ اعمال ادبية شعرية في اغراض السياسة الوطنية وموضوعات اخرى .

فجر النهضة

- ☐ عوامل النهضة الجديدة .
- ☐ التعليم الحديث .
- ☐ الإصلاح الدينى .
- ☐ النهضة الشريفة .
- ☐ الحماية مقدماتها ونتائجها .
- ☐ شعار هذه الفترة كان هو العلم .
- ☐ التحول الفكرى الذى ظهر فى الاعمال العلمية والادبية .
- ☐ حركة التأليف والنشر .
- ☐ نماذج من النثر العلمى والفنى والكتابة السياسية .
- ☐ ظهور فن المقالة .
- ☐ الخطابة سياسية واجتماعية .

فجر النهضة (2)

- ☐ تطور الشعر فى هذا العهد .
- ☐ تماثل الاعمال الادبية فى العالم العربى من تماثل اسباب النهضة ولا يعنى اى مفهوم تقليدى .
- ☐ الشعر السياسى والوطنى .
- ☐ الشعر الاجتماعى .
- ☐ اغراض الشعر الاخرى .

الجيل الجديد

- ☐ التيارات المذهبية والسياسية التى اوقفت المد الاستعمارى فى العالم .
- ☐ ظهور الحركة الوطنية بمظهر المقاوم الجاد .
- ☐ السياسة البربرية واثرها فى توحيد صف الشعب المغربى .

- ☐ عيد العرش .
- ☐ مطالب الشعب المغربي .
- ☐ الحركة الفكرية تساقط العمل السياسي .
- ☐ الصحافة وما كان لها من اثر في بعث الادب المغربي .
- ☐ الادب المغربي جزء لا يتجزأ من الادب العربي .
- ☐ هل نخضع ادبنا لمقاييس النقد ومدارس الادب الغربية ؟
- ☐ النشاط الفكري لادباء الجيل الجديد .

النثر واتجاهاته الجديدة 97 — 123

- ☐ حصيلة ادبية طائفة :
- ☐ استيعاب الموضوعات والاشكال الكلامية الجديدة .
- ☐ ازدهار الخطابة السياسية والاجتماعية .
- ☐ نمو فن المقالة وتطوره العظيم .

القصة والمسرحية 124 — 145

- ☐ محاولات اولى في الرواية والمسرحية .
- ☐ الانتاج في الاقصوصة كان اكثر .
- ☐ النزعة الواقعية ابرز من غيرها في هذا الانتاج .
- ☐ الالتزام والرمزية .
- ☐ نماذج من الاقصوصة والمسرحية .

الشعر واتجاهاته الجديدة 146 — 181

- ☐ الشعر اكثر الفنون الادبية تقيدا واكثرها تحررا .
- ☐ المجالات الجديدة التي اقتحمها الشعر المغربي الحديث .
- ☐ الشعر الوطني .
- ☐ تحرير المرأة .

- ☐ وصف الطبيعة .
- ☐ الشعر العاطفي .
- ☐ الشعر الاجتماعي .
- ☐ الشعر الحر .
- ☐ الشعر المنشور .

202 — 182

الشعر القصصي والتمثيلي

- ☐ ظاهرة قلة الشعر القصصي في الشعر العربي الحديث عامة .
- ☐ نمو الشعر التمثيلي وأسبابه .
- ☐ نموذج من الشعر القصصي .
- ☐ نموذج من تمثيلية شعرية تاريخية .
- ☐ نموذج من تمثيلية شعرية معاصرة .

صدر عن دار الثقافة

- الخوارج في بلاد المغرب د . محمود اسماعيل
- التراجم كتمولج د . حسن المنعمي
- الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية د . ابراهيم المولاي
- الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي د . عباس الجراري
- من ادب الدعوة الاسلامية د . عباس الجراري
- الروايات التاريخية في تاسيس سجل ماسة وغانة د . تعريب الاستاذ محمد الحمداوي
- دفنا الماضي : الاستاذ عبد الكريم غلاب
- روضة التعريف بالحب الشريف مجاهدان الاستاذ محمد الكتاني
- الحضارة المغربية عبر التاريخ الاستاذ حسن السائح
- مناهج البحث في اللغة د . تمام حسان
- العصرية والدولة د . محمد عابد الجابري
- في الشعر السياسي د . عباس الجراري
- الثقافة والفكر في مواجهة التحدي الاستاذ عبد الكريم غلاب
- رفقة السلاح والقمر (الجائزة الاولى للجمع اللغوي الفاعمة 1975) الاستاذ مبارك ربيع
- صفحات دراسية من القديم والحديث د . عباس الجراري
- وحدة المغرب المذهبية ، خلال التاريخ د . عباس الجراري
- في ظلال العقيدة د . عبد الهادي النازي
- التنظيم الجماعي الجديد د . انور احمد رسلان
- قراءات في ادب الصباغ الاستاذ عبد العلي الودغري
- النضال في الشعر العربي بالمغرب د . عباس الجراري

مطبعة النجم الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم 1984/546